الدكتور جبرائيل سليمان جبّور
أستاذ شرف في الدائرة العربيّة في الجامعة الأميركية في بيروت

كيف أفهم النقد

نقدٌ وردّ

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

كيف أفهم النقد

نقدٌ وردٌ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى
١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

الإهداء

إلى الجامعة الأميركية في بيروت

المعهد الذي فيه تعلمت وعلمت وعشت أكثر عمري ،

وفيه عرفت من عرفت من طلبة وأساتذة ورؤساء

أحفظ لهم أخلص الود وأطيب الذكرى . وفيه

نشأنا معاً على احترام النفس وحرية الفكر وحب

الاستقلال ، إليها وإليهم أهدي هذا الكتاب .

قال العتابي :

من قرض شعرا أو وضع كتابا فقد استهدف للخصوم واستشرف للالسن الا عند من نظر فيه بعين العدل وحكم بغير الهوى ، وقليل ما هم ٠

المقـدّمة

كان ذلك منذ اكثر من خمسين سنة ، وكنا عصبة قليلة العدد نجتمع مرة في الاسبوع في بلدة النبك المصيف السوري الذي يقع في أعلى بقعة على الطريق الممتد بين دمشق وحلب ، نتذاكر في بعض شؤون الأدب ، ونقرأ بعض المقالات والكتب ، ونتناقش في بعض ما يرد من الرسائل الأدبية والاشعار في الصحف والمجلات ٠ وكان من أفراد تلك العصبة أديب هو عضو في المجمع العلمي في دمشق وأديبان ضريران كنا نقرأ لهما ما نعثر عليه من رسائل أدبية أو مقالات علمية في مجلتي المقتطف والهلال ، أو نبحث في بعض ما يمكن ان يكون قد قرأه لأحد منهما قارىء من أنسبائه أو أصحابه ، وكنت أصغر أفراد العصبة سنا وقد انتقل هؤلاء الاصدقاء جميعا الى رحمة الله ٠

وفي يوم من أيام جلساتنا العادية في صيف ١٩٣٠ وفد صاحبانا الى الاجتماع وقد تأبط احدهما العدد الذي صدر في شهر تموز من مجلة المقتطف ، وقال وهو يدخل ، جئتكم بهذا العدد وفيه مقال بقلم الدكتور زكي مبارك ـ يا عيني ما أروعه ، وأود أن يقرأه لنا جبرائيل لنستمتع بسماعه كلنا ،

ونتناقش في مضمونه • وتناولت العدد من يده ، وانتظمت الجلسة وأخذت أقرأه أمامهم ، وكان صاحبنا يسألني التوقف بين الفينة والفينة ، ويعلق على رأي المؤلف ، مبديا اعجابه الشديد ، وشعرت اني لا أشاركه الرأي في اعجابه ، فأخذت بدوري أرد على تقريظه ، وأبدي اعتراضي على آراء الكاتب ، وكنت قريب العهد بمطالعتي لكتاب الأغاني وانتهائي من قراءته كلها وشديد الاعجاب بصاحبه •

وما كدت أفرغ من قراءة المقال حتى ضاق صاحبي ذرعا بنقدي وردي على تقريظه ، وقال متحديا : رد عليه يا أخي في المقتطف ! قلت : سمعا وطاعة ، وموعدنا لسماع الرد الاسبوع القادم ان شاء الله • وهيأت ردي في ذلك الاسبوع ، ولم يكن لدي في ذلك المصيف من الكتب والمراجع سوى القليل ، وقرأت الرد على أفراد العصبة في الموعد المعين لاجتماعنا ، وأرسلته في اليوم التالي الى مجلة المقتطف •

وأذكر اني كتبت رسالة الى رئيس تحرير المقتطف الدكتور فؤاد صروف وهو أول أستاذ بعد والدي كان له أثر كبير في توجيهي الى دراسة الأدب العربي ومحبة اللغة العربية ، أقول فيها : أرى في باب المراسلة والمناظرة في مجلتكم الغراء شروطا ثلاثة ، أولها التأدب والاحتشام في المناظرة ، والثاني مراعاة الايجاز والاختصار ، والثالث أهمية الموضوع ، فمن حيث التأدب فاني آمل أن أكون فيما كتبت قد تقيدت بطلبكم ولم أقس بالكلام على مناظري • وأما من حيث الايجاز فاني لم أستطع أن أوجز أكثر مما فعلت • وقد يبلغ مقالي كما ترون

نحو ثماني صفحات من مجلتكم ، وأما من حيث أهمية الموضوع فاسمحوا لي أن أقول ، اني لم أعهد المقتطف ، فيما قرأت من مجلداته في السنين الاخيرة حتى الآن ، عالج في بحوثه الادبية موضوعاً أهم من هذا الموضوع ، فاذا رأيتم نشر هذه المقالة في نقد رسالة الدكتور زكي مبارك أكن ممتنا ، والا فاني أعهد أن هناك الى جانب مكتبك سلة مهملات ، فليس عليك بعد قراءة مقالتي ـ ان لم ترقك ـ سوى أن تودعها تلك السلة مشكورا ، فلدي نسخة منها ٠

وجاءني بعد مدة وجيزة جواب كتابي ، ولا أزال أحتفظ به وفي مطلعه يقول : « أنشرها واباها » وكان فيه كل المحبة والتشجيع ، وبالفعل ظهرت تلك المقالة في عدد اكتوبر سنة ١٩٣٠ ٠ وذكر لي أحد رفاقي من طلبة الدكتور طه حسين أنها قرئت له وسر بها ٠ وكان ذلك أول مقال لي في النقد نشر في مجلة وكان أقرب الى نقد الكتب منه الى نقد الأدب ، أو لعل الأولى أن أقول انه أقرب الى النقد التاريخي العلمي منه الى النقد الادبي ، وقد رأيت أن أنشره في هذه المجموعة من المقالات هو ومقال الدكتور زكي مبارك ٠

ومرت بضع سنوات كنت أمارس فيها التدريس في دائرة اللغة العربية في الجامعة الاميركية في بيروت ، والبحث في فروع الأدب العربي ولا سيما الشعر ونقده ودرس خصائصه في عصوره المختلفة ٠ وكان ان عقدت احدى الجمعيات الادبية في الجامعة سلسلة من المحاضرات الدورية ، كلفت فيها رهطا من الأدباء ، هم الاساتذة فؤاد افرام البستاني وسعيد عقل وخليل

تقي الدين وقسطنطين زريق ومؤلف هذا الكتاب ، أن يبحثوا مواضيع عينتها لهم في الفنون الادبية وكيف نفهمها وهي كيف نفهم التاريخ ، ثم كيف نفهم الأدب ، ثم كيف نفهم الشعر ، ثم كيف نفهم القصة وكان نصيبي أن أبحث في كيف أفهم النقد . وقد نشرت هذه المحاضرات في كتاب صغير اسمه الفنون الادبية طبع منه عدد قليل جدا نفذ بعد صدوره ببضعة أشهر . وقد رأيت أن أجعل هذا المقال بعينه في أول هذا الكتاب لأنه يمثل أول محاولة لي في درس النقد الادبي نشرت في كتاب .

وأسست هيئة للدراسات العربية في الجامعة كانت تعقد مؤتمرا في كل سنة تلقي فيه في مدى اسبوع محاضرات في موضوعات مختلفة ، وكانت الموضوعات في سنة ١٩٥٤ في الأدب العربي الحديث ، وكان المحاضرون الاديب ميخائيل نعيمه فتحدث عن ماهية الأدب وأهميته ، ثم الاستاذ محمود تيمور فتحدث عن القصة العربية ، ثم الاستاذ ابراهيم العريّض فتحدث عن الشعر العربي الحديث وقضيته ، وكان من نصيبي أن أتحدث عن النقد الادبي . وقد نشرت هذه البحوث في مجلة الأبحاث عدد حزيران من تلك السنة ، وقليل هم الذين كانت تصل اليهم هذه المجلة ، ومن هنا فقد رأيت أن أعيد نشره في هذا الكتاب بعد أن أضفت اليه ما كنت قد حذفته في المحاضرة لضيق الوقت .

أما البحوث الأخرى والرسائل فهي نقود وردود أو مناظرات ان جاز لي هذا التعبير ، نشر بعضها في مجلات في مصر وفي لبنان ، وبعضها نشر في الصحف ، وقد رأيت أن أجمعها بين

دفتين في كتاب واحد ، آخرها كما يرى القارىء الكريم هو الرد على دعوة الشاعر سعيد عقل الى العدول عن الفصحى الى العامية اللبنانية وعن الحرف العربي الى الحرف اللاتيني ٠

وقد رأيت في الوقت نفسه أن أنشر النقود التي كتبها أصحابها وردي عليها لكي يطلع القارىء عليها كلها ، ما عدا مقال سعيد عقل الذي ألقاه باللغة العامية ولم ينشر بكامله لطوله ٠ ولا يسعني في الختام الا أن أشكر للأخ السيد رحاب عكاوي مساعدته لي في تصحيح مسودات هذا الكتاب عند طبعه ، ولدار الآفاق الجديدة نشره بهذا الشكل الجميل ٠

بيروت ١٩٨٣ جبرائيل جبور

كَيْفَ أفهَم النَّقْد

محاضرة القيت في قاعة « وست هول » في جمعية خريجي القسم الثانوي في الجامعة الاميركية .

يروى عن سقراط أنه قال في دفاعه أمام القضاة الذين اقترعت أثينا على انتخابهم لمحاكمته : كنت ابحث عن الحكمة فاستعرضت الناس الذين عرفوا بها فأخلفوا ظنوني ، حتى اذا بلغت الى الشعراء عرضت أشعارهم أمامي ، ودرستها بعناية فائقة ، وحملتها بيدي اليهم أسألهم عما عنوا بها ، واني اخجل أن أقص عليكم الحقيقة ، ولكني مكره على القول انه لم يكن منهم من استطاع أن يحقق رغبتي ، وصدقوني اذا قلت ان أي واحد في قاعة هذه المحكمة يفقه معاني هذه الاشعار ويستطيع التحدث عنها اكثر من الشعراء أنفسهم . ويروى من ناحية ثانية عن الشاعر غويتي انه كان يخشى النقاد وانه قال : اقتلوا ناقد الكتب انه كلب ! والواقع أيها المحفل الكريم ان كلا الرجلين مخطىء ، فليس كل ناقد كلبا فيقتله الشاعر ، ولا كل شاعر ، يعجز مثل ما عجز شعراء سقراط عن ان يفهم

ولعل سقراط أراد أن يظهر للناس أن انتاج الأدب شيء ، بينما القدرة على تحليله ونقده شيء آخر ٠

ومن زمن سقراط ، الى زمن غويتي ، بل الى زمننا نحن ، وهذه الخصومة بين النقاد والمنتجين تلعب دورها ، وقديما قال العتابي : « من قرض شعرا أو وضع كتابا فقد استهدف للخصوم واستشرف للألسن الا عند من نظر فيه بعين العدل وحكم بغير الهوى ، وقليل ما هم » ٠

ومن أمتع ما يروي عن هذه الخصومة ان احدى الروايات التمثيلية كانت موضوع جدل ومناقشة بين الناس لشيء أثاره بعض النقاد ، وحدث أنه بينما كان الممثلون يقومون بتمثيلها ذات ليلة ، بلغت الحماسة بأحد النظارة حدا كبيرا ، فأطل من شرفته العليا ، وانحنى ، واذا به يهوي الى القاعة ، وان الناس لفي دهشتهم ينظرون الى هذا الجسم هاويا ، اذا بصوت مؤلف الرواية يصرخ : ربي أسقطه على ناقد ٠

ولبيرون شعر في النقاد يقول فيه :

اطلب الورد في كانون ، والتمس الثلج في حزيران
وامل من الريح ان تستقر ، ومن التبن أن يتحول قمحا ،
صدق الامرأة أو الزخرف ، أو أي شيء زائف
قبل أن تثق بناقد ٠

وقال بعض النقاد في أمثال هؤلاء الأدباء :

ان مثلهم مثل طائر صغير ساقه القدر فدخل غرفة من داخنتها حتى اذا بلغ وسطها رآها مغلقة عليه ، ورأى نفسه

سجينا ، وحاول أن يهتدي الى الطريق الذي أتى منه ، فلم يفلح، فأخذ يضرب النوافذ الزجاجية بجناحيه لجهله النافذة التي أتى منها ٠

ولحسن حظ النقد انه لا يحيا عالة على الشعراء واصحاب الكتب ، ولا يستمد منهم الحياة ، بل انه يستمد بقاءه من جماهير الناس الذين يتذوقون الأدب ولكنهم لم يؤتوا عبقرية الشعراء ولا نبوغ النقاد ٠

ويجب ألا ينكر أثر النقد في توجيه بعض المؤلفين والشعراء الى السبل القويمة ، وتنبيههم الى مواطن الضعف في أقوالهم ، ليتجنبوها فيما يصدر عنهم بعد ذاك ، فكم من كاتب استفاد من آخر بعرضه امامه ما كتب ، لا سيما اذا كان كلاهما خبيرا في الموضوع الذي يبحث فيه ، حتى زعم بعضهم أن كثيرين من الروائيين المشهورين لم يحرزوا مكانتهم الكبرى الا بعد أن دفعتهم نظرات النقاد الى سلوك السبل القويمة ، ولهذا كان « هوراس » على حق حين قال : ان النقاد حجر المسن فهي وان لم تقطع فانها تشحذ الحديد ٠

وفائدة النقد بين الجمهور ، انه اعلان سيار بينهم ، ينقل الأخبار عن الكتب والاشعار ، فيشوق الناس لمطالعتها ، ويمهد السبيل الى الناس لفهمها وتذوقها ، ويرفع مستوى الثقافة الادبية الفنية الى حد يصبح معه من الممكن أن تظهر عباقرة الفن ويظهر معهم من يقدرهم قدرهم ، أو كما قال اناطول فرانس : ان الناقد يستطيع ، وهو يطوف رياض روائع الفن ، أن يسهل على الناس ارتيادها ، فيهيء لهذا مجلسا ، ولذاك متكأ ، بحيث يمكنهم أن يستمتعوا بجمالها الأخاذ ٠

ويمكن للنقد سواء أكان من النوع الهدام أم من النوع الذي يكون رائده المنطق والعدل ، أن يكون لذاته أدبا يقرأ ، وفنا يستجلى جماله ·

وبعد فقد آن لنا أن نحد النقد ·

جاء في المعاجم : « نقد الشيء ينقده نقدا اذا نقره باصبعه كما تنقر الجوزة ، ونقد الطائر الحب ينقده اذا كان يلقطه واحدا واحدا ، ونقد الرجل الشيء بنظره ونقد اليه اختلس النظر نحوه · وفي حديث أبي الدرداء : « ان نقدت الناس نقدوك ، وان تركتهم تركوك ، أي ان عبتهم واغتبتهم قابلوك بمثله » · « ونقد الدراهم اذا ميز جيدها من رديئها » ·

ولعل هذا التحديد الاخير هو أقرب ما يكون الى ما فهمه العرب القدماء من النقد الادبي · حكى ابن رشيق أن رجلا قال لخلف الاحمر : ما أبالي اذا سمعت شعرا استحسنه ، ما قلت أنت وأصحابك فيه ، فقال له : اذا اخذت درهما تستحسنه ، وقال لك الصيرفي انه رديء هل ينفعك استحسانك اياه ؟

وقال الجمحي :

« وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان ، من ذلك اللؤلؤ والياقوت ، لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراوة ولا وسم ولا صفة ، ويعرفه الناقد عند المعاينة ···· ومنه البصر بأنواع المتاع وضروبه وصنوفه ، ما تشابه لونه ومسه

ذرعه واختلاف بلده ، حتى يرد كل صنف منها الى بلده الذي خرج منه ، وكذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجارية فيقال : ناصعة اللون ، جيدة الشطب ، نقية الثغر ، حسنة العين والانف، جيدة النهود ، ظريفة اللسان ، واردة الشعر ، فتكون بهذه الصفة بمئة دينار ، وبمئتي دينار ، وتكون أخرى بألف دينار ، وألفي دينار ، ولكن لا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة » .

«ويقال مثل ذلك في المغنين، يعرف ذلك أهل العلم به ، عند المعاينة والاستماع له، بلا صفة ينتهي اليها، ولا علم يوقف عليه ، وان كثرة المدارسة للشيء لتعين على العلم به ، وكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به(١)» وقال ابن رشيق: « سمعت بعض الحذاق يقول : ليس للجودة في الشعر صفة ، انما هو شيء يقع في النفس عند المميز كالفرند في السيف والملاحة في الوجه ، وهذا راجع الى قول الجمحي بل هو بعينه وانما فيه فضل الاختصار » .

ومن الممتع أن تعلموا أن الخطاب في بعض مدننا يبعثون أمهاتهم أو اخواتهم أو غيرهن من قريباتهم لينقدن لهم العروس، فينظرن الى محاسنها ومساوئها ، ويزاولن اختبارها ويصدرن عليها أحكامهن .

واذا كانت المعاجم العربية القديمة لم تعرض لتحديد النقد الأدبي ، فان كتب الادب قد التفتت اليه كما لاحظتم ، وقد سموا بعض أئمته في العصور القديمة ، قالوا : « وقد كان أبو عمرو ابن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف الاحمر في هذه الصناعة

١) راجع طبقات فحول الشعراء تحقيق محمد محمود شاكر مصر ، ١٩٥٢ ص ٦ — ٧ ففيه بعض الاختلاف عن الطبعة المصرية القديمة .

أي النقد ، ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها وحذقه بها واجادته لهـا » ٠

اما التحديد الحديث للنقـد الادبي فنستطيع أن نجملـه بقولنا :

انه فن تحاول فيه ـ وأنت خال من الغرض والهوى ـ ان تحكم على الاشياء الفنية الادبية بعد فهم خصائصها ومزاياها ، ثم تعرض للناس هذا الحكم بقالب فني أدبي ٠ فهو ينطوي قبل كل شيء كما تلاحظون على فهم الاثر الادبي وادراك الجمال أو القبح الذي فيه ثم ينتقل الناقـد الى اصدار الحكـم وقد تجرد من ميوله ونزعاته الخاصة ثم يصوغ هذا الحكم بعبارة فنية يعرضها على الناس ٠

ولعل أوجز تحديد في نظري للنقد الادبي هو تطبيق علم الجمال على الادب ، ومن الخير أن نلاحظ أيضا انه متى عرضنا هذا النقد الادبي بقالب فني اصبح النقد الادبي نفسه أدبـا وأصبح الناقد بدوره أديبا واذن فكل ناقد أدبي أديب ، ولا يعكس ! فليس كل أديب ناقدا ٠ ولعله يعكس الى حد اذ لا يمكن للأديب أن يتخلص من روح النقـد وان لم يشعر بهـا وهـو ينتج أثره ٠

أما الرأي الشائع عند بعض الناس في أن النقد هو اظهار المساوىء فقط وانه لا يعرض للمحاسن فهـو رأي مخطىء اذ ليس هناك شيء يخرج عن نطاق النقد أو فوق النقد مهما بلغ من الكمال والروعة ولكن هناك اشياء أدنى من النقد اذا كانت سخيفة وكان في نقدها مضيعة لوقت الناقد والقراء ٠

ومن البديهي أن النقد لا يمكن أن يكون قد عرف قبل الانتاج الادبي ، ذلك انه لا يمكن للناقد أن ينقد في الهواء بل لا بد من أثر أدبي بين يديه ولا نستطيع أن نتصور أن النقاد بدأوا عملهم في الخيال كأن نزعم أنهم تصوروا وجود قطع أدبية ثم حاولوا نقدها اذ ان مجرد تصور أثر أدبي دليل على أن الانتاج قد سبق هذا التصور ولا يمكن للخيال مهما سما أن يصل الى ما لم يختبره الانسان أو يسمع به واذن فالنقد قد عرف بعد الانتاج • وهناك خطوة تفصل بينهما وهي التذوق والاستيعاب والتلذذ بما تقرأ أو تسمع وهي الخطوة التي انتقل فيها الادب من طور الانتاج الى طور الاستمتاع به ،وقد بدأ النقد الأدبي كما تلاحظون منذ حاول الناس أن يفضلوا أثرا أدبيا على آخر وليس من شك في أن تفضيل الناس أول الامر لم يزد على أنه تعبير عن شيء أحسوه ولم يستطيعوا أن يتلمسوا أسبابه وهو التفضيل المبهم ويظهر لي مع الأسف أن كثيرا من نقادنا لا يزالون في هذا الطور • وحسبي أن ألفت أنظاركم الى أكثر مقدمات الدواوين الشعرية في هذا العصر ، فسترون فيها ان الشاعر الذي كلفوا أن يكتبوا عنه هو شاعر عصره ، وفريد دهره ، طاوعته البلاغة وانقادت اليه القوافي ، وهو فوق ذلك أشعر الشعراء بلا منازع • فاذا تركت مقدمة ديوان الى مقدمة ديوان آخر رأيت الكلام نفسه لناقد آخر في شاعر آخر ، أو للناقد نفسه في شاعر آخر ، ويذكرني هذا بقصة تروى عن مروان ابن ابي حفصة قالوا : انشد يوما امام جماعة شعرا لزهير ثم قال : زهير والله اشعر الناس ، ثم أنشد للأعشى فقال : الاعشى أشعر الناس ثم أنشد شعرا لامرىء القيس

فقال : امرؤ القيس أشعر الناس ثم قال : والناس والله أشعر الناس · وأظنه يعني انهم أشعر الناس حين ينشد شعرهم ·

وكذلك يعني أصحابنا في هذه المقدمات ، اما اذا أردت أن تعرف آراءهم في الشعر فقد كلفت نفسك شططا فالشعر عند صاحب مقدمة ديوان حافظ مثلا «ظرف الحكمة ومسرح الخيال ومغنى الفصاحة وخدر البلاغة ووعاء الحقيقة»· قال الدكتور طه حسين : « ان كنت قد فهمت من هذا الكلام شيئا فأنت موفق سعيد أما أنا فلا أرى فيه الا ثرثرة وتكرارا · كلام مرصوف ولفظ مصفوف لا مزية له الا انه منتقى مختار » ·

وارتقى النقد من طور التفضيل المبهم وأصبح اختيـــارا يستطيع معه الناقد أن يصطنع الاسباب والمبررات ويستند الى عوامل منطقية وتاريخيـــة يرى لهـــا الاثـــر الاكبر في تفكيره وأحكامه : أي انه اصبح للنقد في هذا الطور أساس يرتكز عليه قوامه بالاكثر النقل والعقل ·

أما النقل فذلك حين كثر الانتاج الادبي وتعددت فروعــه واصطلح الادباء على تقسيمه وتبويبه وتنظيمه فصار الناقد بحكم هذه النظم والتقسيمات الموضوعة مرغما في أغلب الأحيان على أن يلتفت في نقده اليها ويتدرج منها الى النظر في الأثر الذي بين يديه فيتساءل مثلا أي شبه بين هــذه القصيدة والشعــر الغنائي أو أي شبه بين هذه القصة وقصص الادب القديــم ؟ وهو بحكم هذا مضطر الى أن يكون قد ألم بأنواع الادب المختلفة ونظمها وخصائصها فنّاً فنّاً ويحاول أن ينتقل منها الى الاثر الذي بين يديه وهو ما نسميه النقد المبني على كيان الادب وهو في

رأيي على أهميته نقد لم يبن على نظرية فلسفية صحيحة ويكفي أن يكون مصدره التقل حتى ينهار أكثر بنائه • ولنذكر أن هذه النظم لم توضع قبل الادب بل استمدت منه ، أي أن النقاد القدماء درسوا الانتاج الادبي القديم ورأوا خصائصه المشتركة ومزاياه المستقلة فبوبوها ونظموها واستمدوا منها النظريات وجعلوها قاعدة يبنى عليها النقد فيما بعد • فاذا كانت الدراما التي مثلت في العصور القديمة مثلا لم تزد أو تنقص عن خمسة فصول فيجب على الدراما الحديثة أن تتقيد بهذا الشرط واذا كانت الملاحم مثلا قد حوت خصائص خاصة واقتضت أبياتا كثيرة من الشعر فيجب على كل ملحمة حديثة أن تحوي مثل هذه الخصائص وما يقرب من عدد تلك الابيات ولا أظنني بحاجة الى التدليل على فساد هذه النظرية في هذا النوع من النقد • ويكفي أن أذكر لكم ان أرسطو كاد يحتم على الرواية التمثيلية أن تتم حوادثها في أربع وعشرين ساعة ـ في يوم واحد ـ « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » •

أما النوع الثاني من النقد فقد اصطلحوا على تسميته بالنقد الاساسي • وهنا ينعكس الامر فلا يلتفت الناقد الى الادب بوجه عام ولا تهمه النظم التي استمدت منه بل جل غايته درس المزايا التي يراها في الاثر الادبي الذي ينقده من حيث الموضوع واللغة والاخراج والاثر الذي يحدثه في النفس وغير ذاك •

فالنقد هنا عبارة عن محاولة يقصد بها الناقد أن يستفهم من الاثر الادبي نفسه عن أمور ثم يسعى هو نفسه أن يجيب عنها مستمدا أفكاره مما بين يديه محكما عقله فيما يصدر عنه

من جواب ، أي ان غرض النقد هنا هو فهم كل شيء وقدره قدره وهو يستند كما لاحظنا الى العقل لا الى النقل والى الذوق الخاص في فهم الجمال وتذوقه لا الى المصطلحات والنظم • ولكن أيكفل الذوق الخاص وحده الوصول الى الحكم الصائب عن الاثر الادبي ؟ سنرى ذلك بعد حين •

وتستطيعون اذا شئتم أن تقسموا النقد الى مناح اخرى مختلفة فتذكرون المنحى التاريخي مثلا وتزعمون بحق أننا لا نستطيع فهم أدب عصر ما دون درس كثير من العوامل الخارجية في ذوق ذلك العصر وانتاجه فنحن لا نفهم الادب الجاهلي مثلا دون ان نعرف الخصومات بين قبائلهم ، أو الادب الاموي دون أن نكون قد ألممنا بهذه الفتوحات العربية وما استتبعته من عناصر جديدة دخلت في حياة الشعراء أو الادب العباسي دون أن نلاحظ قبل ذاك تطور العلم وخضوع العرب للثقافة العلمية الفارسية واليونانية •

كذلك قولوا في آداب الامم الاخرى ، فليس هناك من ينكر أثر انتصار الانكليز على اسطول اسبانيا « ارمادا المنيع » في الأدب الانكليزي عصر أليصابات وليس هناك من ينكر أثر دك الباستيل في كتاب فرنسا الرومنطيقيين •

وتتعمقون في درس هذا المنحى فتصلون الى فروع له قد يستقل بعضها عنه استقلالا تاما وتشاهدون منحى بيئيا ترون فيه من المحتم أن تدرسوا بيئة الشاعر أو الاديب وحياته الخاصة التي عاشها مع أهله وذويه وتشاهدون منحى سيكولوجيا ترون

فيه من اللازم أن تتعرفوا الى أخلاق الشاعر وصفاته وهيئته قبل أن تستطيعوا فهم شعره وربما يعرض أمامكم من يلوح بالمنحى النظمي الذي ألمعنا اليه والذي يفرض عليكم أن تدرسوا نظم الادب التي وضعها القدماء وسنتها الاجيال قبل أن تلتفتوا الى الاثر الادبي الذي بين ايديكم •

وتستطيعون أن تذكروا المنحى المثالي اذا جاز لي هذا التعبير فتزعمون أننا لا نستطيع تقدير الادب ما لم يكن ينزع الى مثل أعلى وغاية عظمى وتستعرضون الادب في أكثر أطواره فترونه يتأثر بالمثل العليا التي وضعها الدين وسنها علم الأخلاق وتلاحظون أن الفضائل والحكمة كادت تستأثر فيه •

وهنا يعرض أمامنا أصحاب المنحى التأثري ، فنسمع غويته يقول اذا قرأت أثرا أدبيا واستسلمت لتأثيره عليك فحينئذ فقط تستطيع أن تستسيغ ما فيه وتصل الى حكم عادل عنه ، ويقول لك غيره من أتباع هذا المذهب : بين يدي أثر أدبي حاول فيه صاحبه أن ينقل الي اختبارا خاصا مستعينا بألفاظ خاصة وأسلوب خاص ففي قراءته متعة لي ولذة فنية وفي هذه المتعة أو اللذة وحدها أستطيع أن أحكم عليه وكل ما بوسعي هو أن أصف هذه اللذة وأثر هذا الانتاج الادبي فيّ • وباستطاعة غيري أن يستمد منه لذة تختلف عن تلك التي أشعر بها وباستطاعته أن يصفها كما يشاء وفي وسع كل منا اذن أن ينتج انتاجا فنيا جديدا يصف فيه اختبارا يشغل محل الانتاج الذي قرأه • هذا هو فن النقد بحكم المنحى التأثري وتلك هي حدوده التي لا يتعداها • فاذا اعترض معترض وقال وما يعنيني من الاثر

الذي احدثته فيك هذه القطعة وما شأني وما فعلت بك مثلا « قفا نبك » فانما أريد أن أفهم القصيدة وأنت تبعدني عنها وتقربني اليك ، قال نعم ، ولكن أي نقد لا يبعدك عنها أو أي منحى مما تعرف لا يدنيك الى غيرها ؟ ألست مضطرا في المناحي الأخرى الى أن تدرس اذا استعرضت « قفا نبك » هذه العصر الجاهلي؟ألست مضطرا الى أن تدرس حياة امرىء القيس ؟ بلى وأنت مضطر بعد الى التعرف الى اخلاقه وهكذا فأنت تدرس متى عاش وأين عاش ، وكيف عاش ، وكيف كان الناس الذين عاش معهم ونهج أيهم نهج وما هي صفاته وأخلاقه · وكل هذه تبعدك عن القصيدة وكذلك قل في المنحى النظمي المبني على الآثار الفنية الاخرى التي لم تسألني عن أثرها الفني في نفسي ولا عن اللذة التي أستفيدها منها ·

النقاد الآخرون يصورون لي التاريخ والسياسة وحياة الرجل وأخلاقه ويشرحون لي نظم الأدب القديم ، أما أنا فرغبتي هي في أن أغمض عيني لأحلم الحلم الذي حلمه صاحبي والتذ به فاذا رأيتني أشرح لك هذه اللذة فذلك لأنني لسوء حظي قد استيقظت من حلمي وتراني ابتسم · ان هذه اللذة التي شعرت بها كانت حلما لا حقيقة ·

وقد يبدو لأول وهلة أن موقف أصحاب هذا المنحى التأثري منيع ، ولكن هناك فيما أرى ثغورا في حصنهم هذا الذي امتنعوا فيه نستطيع أن نهاجمهم منها ، وهنا أعود الى مسألة الذوق الخاص الذي تركته منذ حين ·

وأريد قبل كل شيء أن أقرر هنا مبدأين رئيسيين يغنينا

تفهمهما عن متاعب كثيرة في النقد، ومن الغريب أنهما متناقضان في الظاهر متفقان في الواقع ، فأما أولهما فهو ان الناس جميعا متشابهون مهما اختلفت أزمنتهم أو تناءت بهم أمكنتهم ، وأما الثاني فهو ان الناس جميعا مختلفون مهما اشتدت وجوه الشبه بينهم ، أو تستطيعون أن تقولوا ان العواطف البشرية واحدة في كل زمان ومكان ، وانما تختلف باختلاف المؤثرات فيها • وهذا الاتفاق وهذا الاختلاق هما سبب وجود نوعين من الذوق•

فأنتم تعلمون مثلا ان الاقطار العربية تشترك بأذواقها في كثير من الامور ، فتكاد جميعها مثلا تعجب بالشعر وتطرب له وتقدس المروءة والكرم وحرمة الجار ، وأنتم تعلمون ايضا ان هذه الاقطار نفسها تختلف كثيرا فيما بينها بالنظر الى أمور أخرى ، ففي اشتراكهم نرى ذوقا عاما ، وفي اختلافهم نرى أذواقا خاصة ، وقد تضيق هذه الاذواق الخاصة فتنحصر في المدن ، فتقول مثلا ان ذوق الشاميين غير ذوق أهل بيروت ، وقد تضيق أكثر فتقول مثلا ان ذوق طلبة جامعة بيروت الاميركية غير ذوق غيرهم من طلبة بيروت ، وقد كان الناس الى حين يميزون طلبة هذه الجامعة من سيرهم في شوارع المدينة عراة الرؤوس • وقد يضيق هذا الذوق نفسه فينحصر في الافراد ، وهنا يتجلى في أقوى مظاهره ، ولكن أيكفي هذا الذوق الخاص للحكم على الأدب ؟ والجواب لا ! لأنه لا يزال جزءا من الذوق العام يختلف احيانا عن سائر أجزائه ، وهذا الاختلاف أو الاتفاق يجب أن لا يكون العامل الاوحد في الحكم على قيمة الأثر الفني •

ثم ان كلا الذوقين الخاص والعام لا يمكن أن يحلا محل العلم ، ولا هو محلهما ، بل لا بد من وجودهما كليهما في النقد الحقيقي ، أريد أن أقول ان الذوق الخاص على أهميته لا يمكن أن يكفي لتقرير الاحكام على الاثر الفني ، حتى ولا ان اتفق في الجوهر مع الذوق العام ، وأنا لا أعني هنا ذوق عامة الناس بل أعني ذوق عامة الأدباء ، لأن أحكام عامة الناس يجب أن لا تتخذ مقاييس لنقد الادباء •

واذن فان للنقد فيما أرى لونين مختلفين ، أو كما وصفهما بعض أدباء الغرب جنسين لا يستطيع النقد أن يعيش ويستمر دون وجودهما معا ، كما ان البشرية لا تستطيع البقاء طويلا دون أن يكون فيها جنسان متباينان يتمم الواحد الآخر •

نقد يقوم على نظم وأسس تعارف عليها العلماء وقد تأثر بها الذوق العام ، ونقد قوامه اللذة التي تحس بها وأنت مغمور بروعة الفن الذي تستجليه مقرونة الى عوامل اخرى متعددة كونت فيك ما نسميه بالذوق الخاص • فالذوق العام هو الذي يعطي النقد الادبي حظا من الموضوعية ، والذوق الخاص هو الذي يعطيه حظا من الذاتية •

ونستطيع بعد أن نقسم النقد الى نوعين : علم وفن ، أو الأولى أن نقول ان النقد ينتحل صفتين صفة العلم وصفة الفن • فالنقد وهو تعبير عن النفس وبحث عن الحقيقة والجمال لتذوقهما ينتحل صفة الفن ، والنقد وهو فحص لتعبير الغير وطرقه ومحاولة معرفة اصوله ومصادره ينتحل صفة العلم •

مؤهلات الناقد :

ينقلون عن غويته أنه قال : هناك ثلاث طبقات من القراء ، فبعضهم يلتذ بما يقرأ دون أن يفقه سببا لذاك ، وبعضهم يحكم على ما يقرأ دون أن يلتذ به ، وبعضهم يحكم وهو يشعر بلذة ما يقرأ ، ويلتذ وهو يحكم ، وهو خير هؤلاء ، والواقع ان الناقد الحقيقي يستطيع أن يرتفع فوق قراء غويته هؤلاء جميعا بحيث يدرك أن باستطاعته أن يعجب بأثر دون أن يلتذ به شخصيا ، أو أن يلتذ بأثر لا يستثير اعجابه ·

ولعل أول ما يحتاج اليه الناقد ادراك غرض صاحب الاثر الفني وفهم المغزى الذي يرمي اليه ، هذا سر النقد في نظري ، ولست أذكر أين قرأت عن فيدياس وتلميذه الكيمنس وقد سُبق بينهما جائزة في النحت ، قالوا فأخذ كل منهما في عمله حتى اذا تم صنع التمثالين كاد المحكمون وهم ينظرون اليهما بين أيدي صاحبيهما أن يحكموا لالكيمنس لدقة التفاصيل وبهاء الصقل وجمال المسحة الاخيرة ، وهنا وقف فيدياس يسأل المحكمين ان لا يبدوا آراءهم قبل أن يوضع التمثالان على قاعدتيهما في الموضع الذي عين لهما ، وما ان وضعا حتى انقلبت آراء المحكمين ، ذلك ان التقاطيع والقسمات البارزة والخطوط الخشنة في الظاهر قد نحتت لينظر اليها من بعد ، فبرزت بروعة جمالها حين ارتفع التمثال على قاعدته · اما حسن الصقل ودقة التفاصيل في تمثال تلميذه الكيمنس فقد زالت معالمها حين ارتفع التمثال ، وأمسى التمثال نفسه كثوب نصلت عنه الصبغة التي نفضها عليه صانع غير ماهر ·

فالفنان ، أو رجل الفن اذا شئتم ، يحاسب على الغاية أكثر مما يحاسب على الطريق الذي يسلكه في سبيل تلك الغاية • والناقد الذي يخطيء غرض الأديب قد ضل سبيله ، ولأضرب لكم مثلا نقد بعضهم لقصيدة بشاره الخوري الشاعر التي قيلت في مهرجان الزهاوي ، واسمحوا لي قبل كل شيء أن أقرأ لكم الأبيات التي دار عليها نقده :

بغداد ما حمل السرى منـي سوى شبح مريب
جفلت له الصحراء والتفت (م) الكثيب الى الكثيب
وتنصتت زمر الجنادب (م) من فويهات الثقوب
يتساءلون وقد رأوا قيس الملوح في شحوبي
والتمتمات على الشفاه مضرجات بالنسيب
تبكي لها قبل الصبا ويذوب فيها كل طيب
يتساءلون من الفتى العربي (م) في الزي الغريب
صحراء يا بنت السماء البكر (م) والوحي الخصيب
أنا لو ذكرت ذكرت (م) احلامي وأنغامي وكوبي
احدى الشموع الذائبات (م) امام هيكلك الرهيب
أنا دمعة الأدب الحزين (م) رسالة الألم المذيب
من قلب لبنان الكئيب (م) لقلب بغداد الكئيب

ما أعدت قراءة هذه الأبيات مرة منذ ظهرت في صحف هذه المحاضرة الا تمنيت لو قرنت الى غناء •

قال حضرة الأديب الناقد في جريدة المكشوف عدد ٣١ آذار ما يلي : « وبشارة الخوري لو كان من الصحراء ، ولو كان

ابنها وحبيبهـا ، لعرف أنهـا لم تعرف في حياتهـا الجنادب ، فالجنادب لم تطل من ثقب فيها ، ولا اسمعت في رحابها صوتـا على الاطلاق » اهـ • وأنا أرى قبل كل شيء أن اتهم معرفـة حضرة الناقد في الصحراء فان لم تكن الصحراء أم الجنادب فأين موطنها بل أريـد أن أذهب الى أبعد من هـذا فأزعم أن بشارة الخوري ليس مرغمـا على أن يعلـم أن الصحراء تعرف أو لا تعرف الجنادب ، ولا يهمه أن يعرف ، فهو امام الفكرة التـي تجلت له قد يستطيع أن يضحي بعلم الحيوان بأسره • وقـد يستطيع الروائي مثلا وهو يقص روايـة حربيـة أن يهمـل التفاصيل في واقعة يريد أن ينتصر بطله فيها ، فيخطيء فـي وصف فنون الحرب ، وهو ليس قائدا حربيا ، بل ربما يخطيء في وصف موضع المعركة ، ذلك لأنه لا ينظـر الا الى الغرض الأكبر وقد ملك عليه كل حواسه ، ألا وهو انتصار بطله • فليس غرضه أن يعلم الفن الحربي ، ولا أن يرسم خارطة لميدان المعركة • ولم يكن بشارة الخوري في قصيدته هذه مدرسا في علم الحيوان ، ولا شارحا يصف مواطن الجنادب والجراد •

وفي الالياذة سور قد يغيظ كل النقاد بني في السنة العاشرة من تلك الحرب ، لا لسبب فيما يظهر الا لأن اكلس قد تـرك الميدان ، وقد خيل لهؤلاء النقاد ان السور كان يظهر ويختفي في الالياذة بشكل غريب • واذن فقد زعموا ان هوميروس لـم يضعه بل بناه شعراء متأخرون ودسوه في الياذته ، وقد انبرى لهؤلاء من زعم لهم ان السور لم يتغير ولم يتبدل ، ولو فعـل فذلك لا يضير الشاعر ، لأن غايته الكبرى هي أن يبرز اكلس في أي شكل كان ، ويستطيع في سبيل غايته أن ينقل سور الصين

الاكبر الى ميدان القتال في اليونان أو يذريه هباء منثورا في الفضاء ٠

هكذا أراد هؤلاء النقاد ولكن ما هكذا يريد النقد :

« أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الابل »

ولقد قرأت لصديقي الاستاذ المازني وهو أحد النقدة المعروفين في مصر في هذا العصر فصلا في كتابه « صندوق الدنيا » عن تمثال النهضة الذي نحته محمود مختار ، أخذ فيه على صانعه أشياء أصاب في اكثرها غير أنه حين عرض الى أمر نهوض أبي الهول الجديد على يديه عمد الى علم الحيوان فزعم أن الحيوان — من البعير الى الهرة — حين يريد أن ينهض يقوم على رجليه الخلفيتين أولا ثم على الاماميتين ، وقال : واحسب ان مختارا انما آثر هذا الوضع لأن منظر أبي الهول يكون غريبا ثقيلا اذا أنهضه على رجليه الخلفيتين كما ينبغي أن يفعل اذا كان يقصد الى النهوض ، ولا أظن صديقي الاستاذ المازني يسوءه أن يعلم أن المجترات من الحيوان من ثور وجمل وغيرهما تنهض على أرجلها الامامية أولا ٠

ولو سلمنا جدلا انها لا تفعل ، فذلك لا يضير مختارا ، لأنه يجب أن ننظر قبل كل شيء الى الغاية التي رمى اليها مختار ٠ فأبو الهول القديم يمثل الصبر والجلد والانتظار أما أبو الهول الجديد فيمثل نهوض مصر ٠ ولنذكر كما ذكر الاستاذ أن أبا الهول هذا خليط من الآدمي والحيوان فله أن ينهض كيف يشاء ولكن ليس على رأسه كما يريد الاستاذ المازني متهكما ٠

ومتى أخذ الناقد يستفهم عن غرض الأديب بدأ النقد عمله • فما هو المعنى الذي يرمي اليه الشاعر ؟ وما الذي يقصده بهذا القول ؟ وما الذي نفعله حين نحاول فهم المعنى ؟ وهل بلغ الشاعر غرضه ؟ وكيف عرض غرضه ؟ وبعبارة أوجز نكتشف الغرض أولا ثم نحكم على قيمته ثم ننقد صنعة الاخراج • تلك هي بكلمة مفاتيح النقد فاذا أحسنا استعمالها تفتحت الأبواب المغلقة وأخذت الامور المغمضة تظهر شيئا فشيئا •

وبعد أن يدرك الناقد غرض القطعة الادبية ومعناها ومغزاها وأثرها في النفس ينتقل الى التفاصيل ، وسيرى ان المعنى العام الشامل مركب من معاني فرعية مترابطة واضحة في بعض الأحيان ومغمضة في بعض الاحيان الاخرى • ويرى ايضا أن للعبارة الواحدة في كثير من المناسبات معاني كثيرة ، اذ أن لغة الادب ، شاء الناقد أو لم يشأ ، تحتمل في كثير من الأحيان غير معنى واحد • وأبواب المجاز والكنايات واسعة • وقد تنقل العبارة من موضع الى موضع فيتغير معناها • وقد يستعار لفظها الى معنى آخر • خذوا مثلا هذه العبارة « وكانوا في النزهة ثلاثة رابعهم فلان أو خمسة سادسهم فلان » فمدلولها اللفظي عددي لا اكثر بحيث يصبح المجموع أربعة أو ستة ، أما مدلولها للناقد الادبي فيجب أن يكون أعمق من هذا ، وستستعرض ذاكرته ما جاء في سورة الكهف من القرآن الكريم : سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم • • الى آخر الآية • • وسيجد ان هذا الكاتب أراد أن يشير من طرف

خفي ظاهر الى أن هذا الرابع أو السادس كان منهم كما كان كلب أهل الكهف من أصحابه ·

وهناك استعارات من عالم الفنون التي تدرك بالنظر ، مثال ذلك قولك : وبدا لونها كلون حاشية الأفق عند الغروب ، فالسامع يسمع اللفظ ولا يرى فيه لونا ، والقارىء يراه بحروف سوداء ، وكلاهما يعمد الى خياله او حافظته ، وهذه تستعرض الألوان فتشرح للذهن هذا اللون وتصوره له على صفحات الدماغ »، وقد تخطيء متى كان اللون غير مألوف لها ، فالصورة اللفظية كما ترون تختلف عن اللوحة المدهونة ، فتلك هي نفسها انتاج الرسام وهي تبرز أمامك لتفصح عما فيها ، بينما هذه حروف مصفوفة في كلمات أو أصوات متقطعة تدوي في الآذان ، وما هي الا رموز يستعين بها الادباء لنقل ما في نفوسهم · ومع ان الادب كسائر الفنون قد هيئت له كما ترون واسطة لايصاله ونقل ما يحويه الى الغير فانه لا يزال أوعر الفنون مسلكا ، لأن هذه الواسطة كثيرة الصور والمعاني ومن هنا كان الاشكال في النقد ·

وهناك أمور أخرى يجب أن يلتفت اليها في النقد العملي ، منها مسألة ايقاع الالفاظ ، وحسن جرسها ، والصفات الصوتية لمقاطعها ، ولا سيما في الشعر · وعلى الناقد بعد أن يكون قد أدرك المعنى الذي يستخلص من العبارة الواحدة أن ينتقل الى الموسيقى التي يبعثها حسن انتظام الالفاظ ، ثم ينظر الى الكلمات المفردة ويتفهم معانيها الاولية وما تنتجه من خيال ، ثم ينتقل الى المزية الصوتية في مقاطعها ، وهنا قد يعترضنا

ثانية اختلاف الأذواق واسمحوا لي أن أضرب لكم مثلا على بعض هذه الظواهر واختلاف أذواق الشعراء فيها : نشر منذ زمن قصير الدكتور طه حسين بحثا قيما عن المتنبي ونقد فيه أشعارا وردت للشاعر وأورد هذين البيتين :

بأبي من وددتــه فافترقنــا وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
فافترقنا حولا فلما التقينا كان تسليمه علــي وداعــا

ثم قال : اعجب الفتى بهذا المعنى فأراد أن ينظمه وأن يصل اليه فتكلف لذلك بيتا ونصف بيت وأنت ترى مظهر التكلف في قوله : « بأبي من وددته فافترقنا » فكلمة وددته هنا نابية قلقة مكرهة على الاستقرار في مكانها الذي هي فيه · أراد الصبي ـ وقد كان المتنبي وقتئذ في صباه ـ ان يقول أحببته فلم يستقم له الوزن فالتمس كلمة تؤدي له هذا المعنى وتلائم هذا الذوق فلم يجد الا وددته هذه ! وقرأ الاستاذ العقاد كتاب الدكتور طه فانبرى يرد على هذا النقد ويقول : « والخلاف بيننا وبين الدكتور في طريقة النقد هنا جد بعيد ، فنحن نرى من جهة ان أبا الطيب لو أراد أن يقول أحببته بدلا من وددته لاستقام له الوزن مع بعض التجوز الكثير في الشعر المقبول في العروض ، وأري من جهة ثانية ان أبا الطيب كان مستطيعا أن يستخدم هنا حببته الثلاثية بدلا من أحببته الرباعية ، كما استخدمها في قوله وهو شاعر كبير :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى وقد كان غدارا فكن أنت وافيا

فلا ضرورة في الوزن ولا استكراه ، وفضلا عن هذا لا نظن

كثيرين يحسبون مع الدكتور ان وددته في موضعها من البيتين لا تعبر عن معناها الصحيح . فالمودة هي الكلمة العربية التي تقابل كلمة tendresse في الفرنسية ، وتطابق معناها تمام المطابقة ، وهو ذلك الحب الرفيق الذي فيه حنو وشوق ، وليس فيه عنف ولا اعتلاج . ثم استشهد الاستاذ العقاد بطائفة من الأبيات الشعرية التي ذكر فيها الشاعر المتنبي في كبره كلمة وددته أو مشتقاتها . وأظن أن باستطاعة الدكتور طه بدوره أن يرد على هذا النقد ويحيل الامر الى اختلاف الذوق . والحكم في مثل هذا الامر هم عامة المتخصصين .

ثم هناك تعابير أو ألفاظ شعرية ليس من الضرورة أن تكون الاساس في الاسلوب الشعري ، وليس الجمال في ايرادها فحسب بل ان الامر يتوقف على الطريق الذي يسلكه الشاعر في استعمالها . ويذهب بعض النقاد في هذا العصر الى ان كل تعبير يناسب المقام يجوز استخدامه في الادب ، والعيب في نظرهم هو أن يكون الأسلوب عاجزا عن التعبير ، غير اني أرى أن هناك ألفاظا أقوى من غيرها لا على نقل المعاني وحسب ، بل على نقل الجو أو الحالة التي يريد الشاعر نقلها الينا ، ولعلي الآن مستغن عن أن أذكر لكم انه لا بد للناقد في كثير من الاحيان أن يستسلم الى تأثير الشاعر عليه ، ولو الى حين ، ليرتفع معه في هذا الجو العلوي ، أو ينتقل الى الحالة التي أسماها صديقي سعيد عقل حالة « اللاوعي » ، وأسميها الوعي الاكبر أو الروع الاكبر الذي يستتبع حتما غموضا في الفكرة ، واضطرابا في التعبير . ولنذكر ان الشاعر يستمد حياته وفنه من العالم الباطني كما يستمدها من العالم الظاهري ، والعالم

الباطني لا تحد آفاقه • وفي عمقه وبعده وعدم وضوحه يستطيع الخيال أن يكسب مناظره فتنة وسحرا •

ويجب على الناقد عند يقظته من هذه الغفوة السحرية أن يحلل ولو الى حد محدود أسباب نشوته ولذته • ويحكى عن مصور كان يعرض صوره ان أحد الاغنياء ذكر له أنه لا يعرف شيئا من أصول التصوير ولكنه يعلم أي شيء يحب ، فاستشاط الرسام غيظا وقال : هكذا تفعل الحيوانات ايضا • ومهما يكن من أمر الوقاحة في جوابه اليه فانه ــ أي الرسام ــ قد لمس ناحية مهمة من نواحي النقد في جوابه له • فان علمنا لما نحب لا يكفي بل يجب أن نقرن اليه الاسباب التي من أجلها تعلقنا بهذا الحب •

ونستطيع أن نتتبع صفات الناقد الحقيقي بشيء من التفصيل ، غير ان الوقت لا يسمح ، ولا أظن أن محاضرة واحدة تكفي للبحث في صفة واحدة من صفات الناقد ، بل اني أرى ان الغرض من المحاضرات ليس حشد المعلومات وقتل الموضوع درسا وانما هي تنبيه للخواطر وفتح لابواب الوحي للملهمين • وعليه فاسمحوا لي ان اجمل فأقول ان على الناقد في نظري أن يكون قبل كل شيء واسع الثقافة عميقها ، يحسن العلم والفلسفة ويتذوق الادب،واسع الأفق،رحب الصدر،بعيد النظر ، متجردا من الغرض فلا يتعصب لجنس على جنس ولا لوطن على وطن ، ولا يجعل للهوى الشخصي سلطة عليه في احكامه على الآثار الفنية ، ولا يكيل الكلام جزافا في تقريظ أو انتقاد ، ذا قدرة

على التعبير عما يحس به اذا سئل عن ذاك • وعليه بعد أن لا يتقيد بقيود الزمن ولا بأقوال الناس ، فلا يبني نقده لشاعر ما على ما قيل عنه في عصره أو على أثره فيه بل ينظر اليه نظرا حرا ، مالكا لعقله اذا اعترضته حالات منه قد تؤثر بسيطرتها على احكامه الفنية ، حسن الاستعداد والتخيل والسليقة ، غير جاهل لنظم النقد التي عرفت من قبل ولا متقيد بها ، وعليه بعد أن تكون المقاييس التي يحاول هو وضعها مرنة بحيث تستطيع أن تصمد أمام المفاجآت الادبية التي قد تعصف بكثير من نظم النقد فتدك معالمها •

أيها المحفل الكريم عندما تتحقق هذه الأمور في الناقد يجيء دور الذوق ، وهو أبرز مؤهلات الناقد ، فيتلمس الجمال ويتذوقه ويدركه ويعيه • ويكون النقد الادبي عندئذ تطبيق شروط علم الجمال على الادب •

اما ميدان الجمال فهو لسوء حظنا أو لحسنه واسع تكثر فيه المتناقضات ، حتى زعم أناطول فرانس أن باستطاعة المرء أن يناقش في المواضيع المتعلقة بتقدير الجمال اكثر مما يستطيع في أي موضوع آخر • ومن يزعم لكم ان المقاييس لتقدير الجمال وتذوقه قد وضعت وضبطت واستقامت وعينت حدودها فهو خادع أو مخدوع ، بل لا أظن ان علماء الجمال يستطيعون أن يخضعوه لهذه النظم التي تخضع لها سائر العلوم ، ولا أظن ان الجمال ينتفع بشيء اذا نظم على قواعد وأرقام وقياسات خاصة ليحشر بين العلوم • انه عندئذ ليجد أن خياله قد دخل

بينها ومدلولاته الرقمية قد تسربت بين المعادلات العلمية ،ولكن الجمال والمغزى الذي يحمله الجمال ــ سحر الجمال ــ يبقى خارج الأبواب • ولست أذكر من قال ، وأرجو أن لا تحاسبوني على أرقام السنين ، أنه اذا استطاع علم الحياة أن يصبح علما ثابتا بعد ألف سنة فسينبغي لعلم الآداب والسلوك مثلها ، ثم لا بد أن تمر ألف سنة اخرى قبل أن يصبح علم الجمال مثلها ،وسيظل الناس في حيرتهم طيلة الثلاثة آلاف سنة يتساءلون عن مقاييس الجمال ونظمه • غير ان علماء الجمال قد اصطلحوا على وضع بعض النظم له . ولكن الخطر كل الخطر أن يوضع هذا السلاح في أيدي الاطفال من الادباء والنقاد ، فانهم ينتحرون به ولقد يضطرنا درسها ــ لو شئنا التوسع ــ الى درس فنون اخرى كالتصوير والموسيقى والنحت وغيرها ، وبكلمة أن هذه النظم لا يمكن أن ينظر اليها كما ينظر الى المقاييس المادية ، فان تقدير الجمال وتذوقه يختلفان عن اللذة المادية التي نكتسبها منه ، واذا سال لعاب أحدكم حين ينظر الى رسم تفاحة ، مثلا فهذا لا يعني ان الجمال فيها هو هذه اللذة التي اكتسبها ، هذه تزول ، ولكن الجمال يبقى فيها ، فيؤثر فيك وفي غيرك في أوقات أخرى • فتذوق الجمال اذن هو هذا الرضا الذي تحس به دون أن تكون لك مصلحة مادية ، هذه هي بنظري فلسفة علم الجمال بكلمة ، وذلك هو سحر الفن الذي لا يدرك بالحواس الظاهرة بل بالحس الباطن •

هكذا أيها المحفل الكريم أفهم النقد الآن وقد تفهمونه على غير هذا الشكل ولعلي وإياكم نفهمه غدا على غير ما نفهمه اليوم ،ولحسن حظي وحظكم وحظ النقد نفسه ان الناس تختلف فيه

اختلافها في أمر الجمال ، ولولا هذا الاختلاف في الأذواق لما وجدت كل هذه الكثرة من الرجال نعمة في عيون النساء ، ولا ألفت كل هذه الكثرة من النساء سبيلا الى قلوب الرجال ٠

ولا أظن أحدا في هذه القاعة يوافق صاحب ليلى في ليلاه حين قال :

لقد فضلت ليلى على الناس مثلما
على ألف شهر فضلت ليلة القدر

النَّقْدُ الأَدَبيّ

محاضرة القيت في قاعة « وست
هول » في الجامعة الاميركية في بيروت
في مؤتمر هيئة الدراسات العربية
سنة ١٩٥٤

« وقال الله ليكن نور فكان نور ورأى الله النور انه حسن » وما زال سبحانه في عملية الخلق يوما بعد يوم حتى أتم الكائنات ، ثم يقول الكتاب « ورأى الله كل ما عمله فاذا هو حسن جدا » ٠

هذا فيما نعلم أول حكم صدر عن ناقد في اثر ما ٠ وهو حكم على غاية ما يكون من الايجاز ٠ لم يقترن بشيء من التعليل أو الايضاح والتفصيل ٠ نرى فيه ذكرا لعملية الخلق وعملية النظر في الاثر الذي ابدع والحكم عليه ٠ خلق ثم رأى ثم حكم ان ما عمله هو حسن جدا ٠ ومنذ بدء الخليقة حتى زمن أرسطو ومن زمن أرسطو حتى يومنا هذا والعالم يغنى بعمل الخلق والابداع والنظر والحكم في الاثر المخلوق ٠

وظل النقد تابعا للابداع منذ عهده الاول يزجيه امامه ويقفو أثره بل يعيش عليه فاذا لم يكن هناك ابداع بفن النحت مثلا لم يكن هناك نقد لفن البناء • وبكلمة ، لقد اعتمد النقد في كيانه الاثر الفني ، بل لعلي لا أغالي اذا قلت ان كل خالق لأثر فني وبنوع خاص في هذا العصر الذي يزخر بالنقد ، لا بد ان يكون في نفسه شيء من روح النقد المتحسسة لعناصر الجمال والقبح والخير والشر والحق والباطل فيما يحاول أن يضع من أثر فني •

أما النقد الادبي ـ موضوع حديثنا ـ فهو ناحية خاصة من نواحي النقد العامة تقتصر على النظر والحكم في الأدب فحسب• أو ان شئتم فقولوا هو النظر والحكم في الاثر الادبي سواء أكان قصة أم قصيدة أم رواية أم كتابا أم قطعة أدبية في مقال • ولكنه على اقتصاره هذا لا بد له في نظري من أن يستعين ، ولو الى حد ، ببقية الفنون أدبية كانت أو غير أدبية ، بل انه مضطر الى أن يستعين أحيانا بطائفة من العلوم •

وستلاحظون ان زملائي الكرام الذين سبقوني فتحدثوا في الأيام الثلاثة الماضية عن بعض هذه الفنون الادبية قد تصدوا مختارين أو مضطرين الى كثير مما يدور عليه حديثي في النقد الأدبي • وهل يمكن أن يتحدث المرء عن الأدب عامة أو الشعر أو القصة دون أن يتعرض الى صميم النقد الادبي والى المقاييس التي لا بد من معرفتها حين تبحث ماهية القصة أو الشعر أو الأدب بوجه عام ؟ وربما كان أولى بالذين اقترحوا هذه الموضوعات علينا أن يكلفوا صاحب القصة أن يحكي لنا قصة

من روائع قصصه وصاحب الشعر أن ينشد قصيدة من عيون شعره وصاحب الأدب أن يتلو قطعة من ساحر بيانه ثم يتركوا للناقد أن يستعرض هذه الآثار الرائعة ويحللها ويحكم فيها بالقياس الى فنونها المختلفة ونظم النقد في كل منها وأثر وقعها في نفسه •

ولست أدري فلعله كان من الخير أن تعرض كل الفنون الأدبية بفروعها المختلفة فيستعرض الشعر بفروعه من قصصي وتمثيلي وغنائي وانساني وشعر طبيعة وغيرها،وبألوان الفروع اذا أمكن كالمديح والرثاء والغزل في الشعر الغنائي •ويستعرض الفن القصصي بفروعه من قصة ورواية ومسرحية على أنواع فروعها المختلفة ايضا ، ويستعرض الأدب النثري في غير القصة بأجزائه من خطاب ومقال وكتاب على ألوان كل منها ، ثم يعمد الى متخصصين في كل فرع من فروع هذه الفنون يعرضون لنا آراءهم في ماهيتها وتطبيق نظم النقد عليها • انها الطريق الفضلى التي أخذ يسلكها النقد الادبي الغربي ويجب أن يتجه اليها النقد الادبي العربي اليوم •

ولقد سلك النقد الادبي عند العرب طرقا كثيرة ومر بأطوار كثيرة فكان أول أمره بدائيا عاما يقتصر على ذكر وقع الأثر الادبي في النفس أو يعرض لبعض الخصائص التي اصطلح الأدباء والنقاد على أن يميزوا الاثر الادبي الخاص بها ، أو يتناول بعض الالفاظ ويكتفي بتحليلها والتنبيه الى وقعها وجودتها وصحتها وتأديتها للمعنى أو الى نبوها وقبحها وفسادها وقصورها عن بلوغ الغرض المقصود •

وأعار العرب القدامى هـذه النواحي الخاصـة التفاتهم ـ وكان جل أدبهم شعرا ـ فدارت اكثر مناحي نقدهم علـى اللفظ المفرد والقافيـة والمعنـى الجزئي في البيـت • فهـذا المرزباني يضع كتابا كاملا في مآخذ العلماء على الشعراء معنعناً مسند الرواية الى الادباء والنقاد حتى أوائل القرن الثالـث للهجرة • دار كله على النظـر في الالفـاظ المفردة والمعانـي الجزئية والاخطاء اللغوية والنحوية والجوازات والحشـو فـي اللفظ واضطراب القافية • كأن يقول : وقد عابوا على الأعشى لفظة « طحال » في شعره مع القلب وقالوا لا يدخـل الطحال في شيء الا أفسده • أو كأن يذكر تنازع امرىء القيس وعلقمـة الفحل في الشعر بين يدي أم جندب وتفضيل أم جندب شعر علقمة الذي أدرك فرسه فيه ثانيا من عنانه لـم يضربه بسوط ولـم يتعبه • أو كأن يقول : وعابوا على جرير قوله :

فيا لك يوما خيره قبل شره   تغيب واشيه واقصر عاذله

فقالوا كان الاجود له لو قال :

فيا لك يوما خيره دون شره   تغيب واشيه واقصر عاذله

لأن لفظة « قبل » تفيد وقوع الشر بعـد الخير ولفظـة « دون » تنفي وقـوع الشر وهـو المقصود • أو كأن يقـول : واستحسنوا قول عنتره في جعلـه جـواده يتشكى مـن التعـب حين قال :

فازور من وقع القنا بلبانه   وشكا الي بعبـرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى   ولكان لو علم الكلام مكلمي

وهذا الاصفهاني يورد في أغانيه نقدا لمصعب الزبيري من رجال القرن الثاني في شعر ابن ابي ربيعة لم أعرف أطول منه في كتاب أدبي عربي ، دار اكثره على المعاني المفردة والمواقف الخاصة والاستعارات التي يزعم ان عمر فاق نظراءه بها وبرعهم، كانطاق القلب ، وطلاوة الاعتذار ، وعطف المساءة على العذال، وحسن التفجع ، وجني الحديث ، واذلاله صعبه ، ونفض النوم • وهو حديث مسهب في نقد شعر عمر لا يزيد اكثره عن انه شرح لبعض المعاني التي ذكرها عمر ولكنه ينطوي في بعض أجزائه على تطور في فن النقد اذا قيس بماضيه الجاهلي والأموي •

حتى اذا جاء ابن سلام الجمحي وابن قتيبة الدينوري خطا النقد بهما خطوة اخرى الى الامام • فقد وضع كل منهما بحثا موجزا في أصول النقد صدر به مقدمة كتابه في طبقات الشعراء ، فبعد أن كان النقاد يقولون في شعر المحدثين : « انما أشعار المحدثين مثل أبي نؤاس وغيره مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا » ، أتى ابن قتيبة يقول : « ولا أحسب أحدا من أهل المعرفة والتمييز نظر بعين العدل وترك طريق التقليد يستطيع أن يقدم أحدا من المتقدمين المكثرين على أحد الا أن يرى الجيد في شعره أكثر منه في شعر غيره • ولله در القائل أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه » • بل ان ابن قتيبة ليلتفت الى العامل السيكولوجي في عملية الخلق فيقول : و « للشعر دواع تحث البطيء وتبعث المتكلف ، منها الشراب ، ومنها الطرب ، ومنها الطمع ، ومنها الغضب ، ومنها الشوق »•

أو « وللشعر أوقات يبعد فيها قريبه ويستصعب فيها ريضه » ·
وأتى ابن سلام يقول : « وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان · من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره » الى أن يقول : « ويقال مثل ذلك في المغنين ، يعرف ذلك أهل العلم به عند المعاينة والاستماع بلا صفة ينتهي اليها ، ولا علم يوقف عليه ، وان كثرة المدارسة للشيء لتعين على العلم به · وكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به » وقد لخص هذا القول بعضهم فقال : « ليس للجودة في الشعر صفة ، انما هو شيء يقع في النفس عند المميز كالفرند في السيف ، والملاحة في الوجه » · وهذه كلها كما تلاحظون ومضات من روح النقد الموفقة ، ونظرات خاطفة صائبة في فلسفة النقد والجمال كنت أود لو يعنى بها نقادنا اليوم بالمقابلة مع ما توصل اليه فن النقد عند الغربيين ·

وأخذت الحياة الأدبية عند العرب بالتطور · وأخذ النقد بدوره يتطور معها أيضا ، وظهرت آثار ذلك في مؤلفات الادباء والنقّاد في العصور العباسية ، وبنوع خاص في أبي بكر محمد الباقلاني الذي حاول في كتابه اعجاز القرآن أن يحلل بعض الشعر العربي من الناحية الفنية الجمالية ، وفي عبد القاهر الجرجاني الذي حاول أن يضع أو ينظم بعض المبادىء العامة للأدب والنقد ، ونبه بنوع خاص الى وحدة اللفظ والمعنى في العبارة ، ووجه الجمال في ائتلافهما معا ، معارضا نظرية الجمال في اللفظ المفرد ، وذكر ان المعاني أسبق من اللفظ في الذهن ،

وان ترتيبها فيه هو الذي يسوق الى تنسيق اللفظ في العبارة ، وان سر الجمال هو في ترتيبها واقترانها مجتمعة في نسق فني خاص ، وليس في كل منها مفردة • حتى اذا اديل من سلطان العرب ، وأخذت العربية بالتقهقر ، انطوى الادب على نفسه ، وتضاءل النقد وراءه في اطماره ، وأخذ يعنى بالسفساف والقشور ، الى ان كانت النهضة الاخيرة ، وكان احتكاكنا بالغرب وأدبه وأساليب تفكيره ، فنشط أدبنا من عقاله ، وأخذ النقد يقفو أثره بحيث ظهر في السنوات العشرين الاخيرة ما لا يقل عن عشرين كتابا في النقد النظري والعملي وفنون الأدب ، أذكر منها : « في أصول الاذب » لاحمد حسن الزيات ، و « الاسلوب » لاحمد الشايب ، و « النقد الادبي » لاحمد امين ، و « الفنون الادبية » لجماعة من الادباء ، و « النقد الجمالي وأثره في النقد العربي » لروز غريب ، و « النقد الادبي ـ أصوله ومناهجه » لسيد قطب ، و « على المحك » ، و « مجددون ومجترون » لمارون عبود ، و « فن الادب » لتوفيق حكيم ، و « من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده » لمحمد خلف الله ، و « في الميزان الجديد » لمحمد مندور ، و « الدراسة الادبية » لرئيف خوري ، و « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » لمصطفى السحرتي ، و « ثقافة الناقد الادبي » لمحمد النويهي • ولست بناس ما كان لرواد النقد الاربعة في هذا القرن نعيمه والمازني وطه حسين والعقاد من أثر في توجيه النقد في هذا السبيل •

ولعل الذي ساعد على رقي النقد عند الغرب في العصر الاخير اتصال نهضته بأدباء اليونان القدماء وفلاسفتهم من

ناحية ، وتقدم علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة من ناحية ثانية ، وتقدير رجال هذه النهضة منذ عصر الانبعاث للفن بفروعه كلها وما يقتضيه كل من هذه الفروع من قواعد ونظم واختبار ومواهب ، سواء أكان هذا الفن نحتا أم رقصا أم تصويرا أم موسيقى أم أدبا • ومن هنا فان النقاد في الغرب في هذا العصر — ونقاد الادب بنوع خاص — كثيرون • وقد استمد منهم نقادنا كثيرا مما نراه بين أيدينا من مادة النقد الادبي النظري وقد استعان مؤلف غربي اسمه روبرت ستولمن (Robert Stallman) ، وضع كتابا في عملية الخلق وطبيعة الشعر ووظيفة النقد اسمه كتاب الناقد (The Critic's Notebook) بما لا يقل عن مئة ناقد غربي مشهور ، اذكر منهم على سبيل التمثيل اليوت (T. S. Eliot) ، وبول فاليري (Paul Valery) ، ورتشاردز (J. A. Richards) ، وفلنت (G. C. Flint) وليفز (Leavis) ، ولاسلز ابركرومبي (Lascelles Abercrombie) ، وماريو براز (Mario Praz) ، وروجر فراي (Roger Fry) ، وروبرت وارن (Robert Warren) ، وهربرت ريد (Herbert Read) ، وازرا بوند (Ezra Pound) ، ثم ألحق كتابه بجدول للمؤلفات التي صدرت بين ١٩٢٠ و١٩٥٠ في مواضيع النقد والتذوق الادبي ، فيه ما لا يقل عن الف ومئتي كتاب تقع تحت الابواب التالية : طبيعة النقد ووظيفته ، الحياة والفن ، الاسلوب ، مشكلة المعنى ، الشعر ومشكلة الايمان به • هذا في اللغة الانكليزية فحسب وفي مدى ثلاثين سنة • فما بالكم لو استعرضت كتب الغرب في كل اللغات ؟ بارك الله لنا في هذا المورد العظيم !

والآن وقد بلغنا هذه المرحلة من الحديث نقدم لبحث النقد الادبي ولعلنا ننتفع اذا رجعنا الى الحد الذي وضعناه ، وهو ان النقد الادبي أمر يتناول ناحية خاصة من نواحـــي النشاط الفني ــ هي ناحية الادب فحسب • ومن هنا فهو يقتصر على النظر في الاثر الادبي ، ثم التحسس والتذوق له وابداء الحكم فيه • ومن الخير هنـــا أن نعـــالج الموضوع حســـب التقسيـــم التالي :

(أولا) موضوع النقد الادبي

(ثانيا) غرض النقد الادبي

(ثالثا) مناهج النقد الادبي

(رابعا) أثر النقد وفائدته

(خامسا) الناقد

(سادسا) الذوق والجمال

(سابعا) مستقبل النقد

موضوع النقد الادبي :

امّا موضوع النقد الادبي فهو الادب بفروعه كلها ، وقد حدثكم زملائي في هذا المؤتمر عن هذا الجزء من الموضوع بوجه عام ، وعن بعض فروعه بوجه خاص ، وكفوني مؤونة التعرض له بالتفصيل ــ الادب هو المادة التي يعالجها النقد الادبي والتي عليها يقوم بناؤه • وتحديده بكلمة موجزة هي : التعبير بكلام

فني عن النفس والحياة بعنصريها الانسان والطبيعة • والتعبير عن النفس حاجة في طبيعة الانسان بل في طبيعة كل ذي حياة أو نفس • فالبكاء والضحك والغضب وانقباض الوجه كلهـا تعبير ولكنها ليست أدبا لانها لم تقرن الى كلام فني • وبعض الفنون كالرسم والموسيقى والنحت تعبير عن النفس ولكنهـا ليست أدبا • فالادب يجب أن يكون تعبيرا مقرونا بكلام فني، ويشمل كل نواحي النفس بل كل نواحي الحياة • قلت فني وأقصـد بهذا ما يمكن أن يدخل هذا التعبير من عناصر العاطفة والخيال والاسلوب بحيث نرى فرقا ــ مثلا ــ بين مؤرخ يكتب عن حروب سيف الدولة وشاعر يستمد من حوادثها فكرة لقصد يلعب فيه الخيال والتصوير والموسيقى مـا لا تفعلـه كتـب التاريخ • ومهمة النقد ان يصل قبل كل شيء الى طبيعة هذا الادب وان يفهم غرض الأديب • فعلاقة النقد بموضوعه ــ أي الأدب ــ هي قبل كل شيء الولوج الى صميمه ، ومحاولة فهم التجربـة الادبية الفنية التي بين يدي الناقد ، وادراك عملية التكوين أو الخلق فيها ــ من أين استمدت هذه التجربة ، وكيف تولدت ، وكيف يحاول خلاقها نقلها الى الناس ، وفي أي شكل أخرجهـا وجلاها للمتذوقين ، وكيف يتلقاها المتذوق ويفهمها ويستسيغها ويستمتع بها ــ ثم يحاول الناقد بعد ذلك أن يوضحها ويحللها ويجلوها بدوره كانما يعيد خلقها ، ثم ينقل اثرذلك للناس في حكم صحيح •

ولما كان الادب ــ كما ذكرت ــ تعبيرا عن الحياة في عنصريها الرئيسيين ــ الانسان والطبيعة ــ بصدق لأن غاية الادب الرئيسية

الاخلاص لطبيعته،وفن أي جمال،والا فهو ليس أدبا ، ولما كان أحد هذين العنصرين ــ الانسان ، وهو أهم العنصرين ــ على غاية ما يكون من التعقيد ، له تاريخ ، وبيئة ، وعصر ، وأهل ، وأصحاب ، وأتراب ، وله نفس ، وعقل ، وفكر ، وشخصية ، وذوق ، واحساس ، وما شئت من هذه الظواهر والمزايا والاغراض والنزعات التي يعددها علماء النفس ويجهدون في تحليلها :

أتزعم انك جرم صغير　　　وفيك انطوى العالم الاكبر

أقول لما كان هذا شأن أهم هذين العنصرين ــ الانسان ــ كان الأدب،ولا سيما الشعر،حين يعبر عنه وسيلة صعبة المرتقى، بل غاية ما يكون من التعقيد لدى النقد والتحليل ، ومن هنا فقد كادت عملية النقد تضارع عملية الخلق صعوبة في بعض الأحيان ، واكتفى النقاد القدماء لدى تحليل الادب الرائع بهذه اللمحات الخاطفة عنه فقالوا : « ان من البيان لسحرا » وعمد النقاد المحدثون الى الاستعانة بمختلف وسائل الفنون والعلوم المستحدثة لتذوق الاثر الادبي وتقدير قيمته والحكم فيه • وقد دفعوا بحكم هذا الى درس ما يحيط بالأثر الادبي ، ودرس عملية الخلق أي التجربة الادبية نفسها وفهمها ومحاولة اعادتها الى الحياة • ومن هنا ايضا اختلف النقاد واختلفت طرقهم ومناهجهم واحكامهم باختلاف أمزجتهم ونشآتهم وثقافاتهم وبيئاتهم المختلفة ، وكل منهم هو بدوره جرم عظيم على صغره وفيه انطوى العالم الاكبر •

غرض النقد الادبي :

اما غرض النقد الادبي فمن علماء النقد من يزعم انـه التمييز بين تجربة واخرى من التجربات الادبيـة التي تقع بين أيدينا بعد فهمها وتذوقها ، ثم تقييم هذه التجربة أي تحديد قيمتها وأخيرا الحكم عليهـا • ومنهم مـن يظن غرض النقـد تهذيبيا لتوجيه الادباء الى طرق الفن الادبي الصحيحة ، أو الى المثل والقيم التي يتطلبها المجتمع من أدبائه بصفتهم زعمـاء للحركات الفنية والادبية والاخلاقية والقومية وغيرها • ومنهم من لا يرى للنقد الادبي رسالة غير رسالة الادب نفسه الفنيـة الخالصة فهو ليس « عملا تربويا » وليس له « مهمة توجيهية » انما هو « الادب منعكس على ذاته » أو هو « تكويـن جديـد للانتاج الفني ومعاودة للخلق » هو استمتاع شخصي انفعالي• والواقع ان غرض النقد الاول هو الاستمتاع ولكـن الامر لا يقتصر على هذا بل يتعداه الى هل نحن مصيبون في استمتاعنا ؟ ولماذا ؟ ومن هنا فقد أصبح لزاما على النقد أن يميز بين تجربة وتجربة ، ويساعد على التذوق ، ويحاول التقييم والحكـم • وفي هذا نرى ان النقد ــ سواء أقصدنا أم لم نقصد ــ سيؤثر في الادب وفهمه وتذوقه والاستمتاع به ، ولا يمكـن لعمليـة التذوق أن تتم بأكمل حالاتها دون أن تمر بتقييم الاثر الادبي ، أي فهم مزاياه والالتفات الى حسناته وعيوبه قبل الحكم عليه •

غير اني أريد أن أشير هنا الى ان النقد ليس صاحب الزعامة أو القيادة حتى ولا التوجيه وان يكن له اثر كبير في ذلـك •

فالنقد محافظ بطبيعته والمحافظة عدوة للابداع • ولعل الادب الرائع لا يبلغ ذروته الا حين يتحدى المحافظة وما تستتبعه من نظم وأصول •

ان العبقرية الخلاقة التي تريد أن تعبر عن نفسها حين تضطر الى ذاك لتشق طريقها دون أن تعير السنن والنظم أي التفات • والادب العبقري ان جازت لي هذه التسمية ليتقدم النقد أشواطا في طريق الفن • ان النقد تابع لا متبوع ومن يتبع التابع فقد تأخر • وليس على الاديب الفذ الا أن يستلهم بوحي طبيعته الفذة حتى يكون من السباقين • وهكذا فيجب أن يكون غرض النقد الاساسي الاستمتاع الشخصي بالتجربة الفنية وتذوقها أولا ، ثم تقييم الاثر والحكم عليه ، وفي اتمامه لغرضه الاساسي على الطريق الافضل يستطيع النقد أن يؤثر في الادب ويرقي الذوق •

مناهج النقد :

واستتبعت طبيعة الادب نفسها والحياة التي يعبر عنها وأغراض النقد تعددا في مناهج النقد • فهناك منهج تاريخي يلتفت فيه الناقد قبل كل شيء الى درس العصر الذي ظهر فيه الاثر الادبي ، والى درس الاحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية والادبية التي عرفت في ذلك العصر ، ثم يدرس بيئة صاحب الاثر الخاصة وصلتها بهذه الاحداث في عصره وعائلته ، وما يحيط بجميع هؤلاء من ظروف خارجية قد تؤثر بدورها في صاحب الاثر الادبي وبالتالي في نتاجه •

وهناك من قصر كتبا خاصة على عصور الرجال قبل البدء بدراسة أدبهم والحكم فيه وقد اقتضاني هذا المنهج منذ نحو عشرين سنة وضع كتابين في عصر ابن أبي ربيعة وحياته حين رغبت في درس شعرة (١) • وهي طريقة لا يرضى عنها جماعة « الفن للفن » لانها في رأيهم تبعدك عن الاثر الفني وتدفع بك الى نطاق العلم الواسع الحدود •

ولست الآن في موقف المدافع عن هذا المنهج ولكنني أرى انه لا يمكن أن يفهم غرض الاديب ، والشاعر بنوع خاص ، فهما صحيحا وادراك ما تنطوي عليه كثير من الاستعارات والتلميحات والمعاني والالفاظ التي يستعين بها للتعبير عما في نفسه وعن احساساته اذا لم نفهم الظروف التي قال شعره فيها والبيئة التي أحاطت به والحياة التي عاشها ، وبخاصة اذا كانت هذه الظروف والحياة تختلف عما نألف اليوم •

وهناك منهج سيكولوجي يتناول النقد فيه الاثر الادبي على انه تعبير عن النفس ــ نفس الشاعر أو الاديب صاحب الاثر ــ فيبحث في أخلاقه ونزعاته وأهوائه وعلاقة هذه بالأثر الادبي ، وقد يهمل الناقد فيه الاثر الادبي الى حين كي ينظر في ما وراء هذا الاثر من بواعث وعوامل دفعت بصاحبه الى أن يقول ذلك القول ، ثم ينظر في كيف تمت هذه التجربة على ضوء هذه العناصر الشعورية النفسية ، ثم كيف يكون تأثير هذه التجربة في الناس حين يقرأونها بالنسبة الى حالاتهم

---

(١) وقد الحق بهما بعد عهد هذه المحاضرة كتاب ثالث في قسمين حبه وشعره والاجزاء الثلاثة هي الان من منشورات دار العلم للملايين .

النفسية وأحاسيسهم الخاصة والعامة ٠

وقد سلك هـذا المنهـج كثير مـن نقـاد العصر الحـاضر ـ الغربيين والعرب ـ وبنوا على أسسه كثيرا من الاحكام في دراساتهم وكتب واحد ممن ذكرت من مؤلفي كتب النقد كتابا خاصا في هذا المنهج اسمه « من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده » ٠

وهناك منهج اصولي يتناول الناقد فيه الادب ويعارضـه على الاصول والقواعد وقد عرفت هذه الاصول بعـد أن عرف الادب وكثر الانتاج وتنوعت الاساليب وتفرعت الفنون الادبية، فوضع العلماء والنقاد منذ زمن اليونان نظما مستمدة من الادب نفسه متفقة مع مزاياه وخصائصه ، وجعلوها اصولا وقواعـد للنقد ٠ فالناقد في هذا المنهج يحمل مقاييسه ويستعرض الاثر الفني الادبي على ضوء هذه المقاييس ، فاذا كان من المقاييس ما يفرض أن تبدأ القصيدة بالغزل مثلا ، كما ألف العـرب في بعض عصورهم الادبية ، أو بقدر معلوم من أبيات الغزل ، ولم يجر الشاعر على هذا المنوال عيب عليه ٠ وقد ذكروا عن بعض الرجاز في العصر الاموي انه وفد على نصر ابن سيَّار عامل بني أمية في خراسان بارجوزة تشبيبها مئة بيت ومديحهـا عشرة ، فقال نصر : والله ! ما تركت كلمة عذبة ولا معنى لطيفا الا وقد شغلتك عن مديحي بتشبيبك فان اردت مديحي فاقتصد في غزلك ٠ فأتاه مرة ثانية وأنشده :

هل تعرف الدار لام عمرو دع ذا وحبر مدحة في نصر

فقاطعه نصر قائلا : لا هذا ولا ذاك ولكن بين الامرين ٠

ويا ويل الادب اذا فرض عليه ان يخضع لنظم تسن له ٠

ولست أنكر ان هذه النظم كانت تتطور وتتبدل بتطور الأدب واختلاف الزمن ، ولكن المنهج في تطبيقها على الادب منهج لا يوصل وحده الى الغرض المطلوب ، وهو أشبه بمذهب النقل عند جماعة الفقهاء • ويكفي أن نذكر ان أرسطو كان يحتم على الرواية المسرحية أن تتم حوادثها في أربع وعشرين ساعة ـ في يوم واحد ـ وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون •

وهناك نهج مثالي تقيس فيه الادب بمقياس ما ينزع اليه من مثل عليا وقيم وغايات ، وما يحقق من نفع اجتماعي أو قومي أو أدبي ، فتحكم عليه بالنسبة اليها ، أي بالنسبة الى ما يسمونه الرسالة التي يحملها الأدب ، لا سيما حينما ينشأ في بيئة تحتاج الى اصلاح اجتماعي أو قومي أو أدبي أو ديني ، فعمر ابن ابي ربيعة والوليد ابن يزيد وبشار ابن برد وأمثالهم يعتبرون عند اصحاب هذا المنهج غير جديرين بالدراسة أو النقد ويجب ألا يلتفت اليهم ، وبالفعل قد حاول بعض القدماء أن يمنعوا ذويهم من رواية اشعار بعض هؤلاء أو الاستماع اليها لأن فيها ما يدعو الى ما يناقض المثل والقيم العليا في الحياة ، بل ان بعضهم اضطهد أو قتل في سبيل شعره كالاحوص والعرجي وبشار •

ونهج جمالي تأثري يعتمد على ما لعلم الجمال من نظم وما للذوق من أثر في فهم هذه النظم وتقديرها وتطبيقها • ما هي المزايا التي يراها في الاثر الادبي ؟ هل في الاثر تلاؤم او تناسب بين اجزائه ترتاح اليه ؟ كما ترتاح له مثلا في فتاة جميلة تتلاءم عناصر الجمال فيها من وجوهها المختلفة من رشاقة قد واعتدال طول واسالة خد وصفاء

لون وسحر عين وحلاوة حديث وهل لالفاظه وقع تطرب لـه ؟ هل استطاع أن ينفذ الى قلبـك ويحـرك مشاعرك أو يستثير طربك أو حزنك كما استثارك الجمال في وجه فتاة أحببت وعلقت حبالك بها ؟ وهل وافق طبعك وذوقك ؟ وعلى هـذه الأسس تبني حكمك عليه ٠

وهناك اخيرا منهج تأثري يقرب من المنهج الجمالي ولكنه يستقل عنه ، وقوامه أن تهمل علمك بمقاييس الفن والجمال وصاحب الاثر وبيئته ، وتستسلم الى الاثر نفسه ، وتغمض عينك اذا أمكن لتحلم الحلم نفسه الذي حلمه صاحب الاثـر وتلتذ به ، أو لتختبر التجربة نفسهـا التي اختبرها صاحـب الاثر ، ثم تصحو بعد هذا الحلم أو تتنبه بعد هذه التجربة التي عشتها مع الأثر نفسه ، فتصف ما رأيت واختبرت وما تركت في نفسك هذه المشاركة الروحيـة للعمل الفني مـن أثـر أو احساس ، ويكون حكمك عليه مبنيا على أثره في نفسك ٠

ولكل من هذه النهج أو المناهج أشياع وأتباع عرفوا بهـا وناصروها وتنازعوا في سبيل الدعوة لها ولا سيما في القرنين الاخيرين فقد يعترض بعضهم على المنهج التأثري ويقولون : وماذا يعنينا الاثر الذي أحدثته القطعة الادبية في نفسك ، وما شأننا مثلا وما أثرته في نفسك قصيدة أبي تمام في فتح عمورية، فنحن نريد أن نفهم القصيدة في نقدك لها وأنت تبعدنا عنهـا وتقربنا اليك ، وقد يجيب صاحبنا : أجل ! ولكن أي نقـد لا يبعدك عنها أو أي منحى مما تعرف لا يدنيك الى غيرهـا من الامور ؟ ألست ترى في المنـاحي الاخرى حـين تعرض لهـذه القصيدة أنك مضطر الى أن تدرس حياة أبي تمام وعلمه ورأيه

المنجمين والتنجيم ، وتدرس النزاع بين العرب والروم ، كانة مدينة عمورية في هذا النزاع ؟ ألست مضطرا الى أن رس أخلاق أبي تمام ونزعاته السياسية وعلاقته بالبلاط غير ذاك ؟ وكل هذه تبعدك عن القصيدة نفسها ٠

والواقع ان كلا منها ضروري في النقد ٠ ولعل خير نهج النهج الذي يجمع أشتاتها ويمنح كلا منها نصيبه الخاص ٠ حيث يبلغ الناقد الى معرفة غرض الاديب وفهم أثره وادراك ا فيه وتذوقه وتحليله والحكم عليه ٠ ووراء هذا النهج الناقد خبير فهو الذي بيده الزمام وله الخيار في اتخاذ القرار الاخير ٠

ثـر النقـد :

ان اثر النقد متصل بغرضه ولما كان غرض النقد الاساسي كما ذكرنا الاستمتاع الفني وترقية الذوق بواسطة المشاركة في لتجربة الفنية ومعايشتها أو عيشها مع خالقها مرة ثانية قبل لحكم عليها فان أثره ليظهر أولا بالناقد المتذوق نفسه اذ يكشف ه عالما يستمتع به ويدعو اليه غيره من المتذوقين ، وقد يزيل النقد حتى للخالق نفسه حجبا عن بعض المنافذ التي فتحها وينير له السبيل ٠ ولأضرب مثلا موجزا ، كان في الجامعة الاميركية جمعية عربية أدبية تعرف بجمعية العروة الوثقى ولها نشيد نظمه بعض الادباء منذ عهد قديم ورأت الجمعية أن تغير نشيدها تمشيا مع روح العصر فكلفت الشاعر سعيد عقل أن يضع لها نشيدا فوضعه وعرضه على بعضهم حين كان الملحن يلحنه وكان في مطلع النشيد للنسور ولنا الملعب يلهب اسمان الصدور العلى والعرب ٠

فقال صاحبنا لسعيد بعد أن قرأ هذا النشيد واستمتع به

واستمع الى لحنه : نشيدك رائع ولكن لي مأخذ على مطلعه وهو قولك يلهب اسمان الصدور فاني لا أرتاح لهذا النوع من الوصل اللفظي في اللحن على حبي للمعنى وحبذا لو تأتينا بلفظ آخر ولو اقتضى الامر صورة اخرى لهذا المعنى الجميل الذي قرنت به العرب والعلى • فتردد الشاعر أولا ولكنه عاد في اليوم الثاني وفي يده المطلع محورا هكذا :

للنسور ولنا الملعب
والجناحان الخضيبان بنور
العلى والعرب
ولنا القول الابي
والسماح اليعربي
والسلاح
ولنا هز الرماح
في الغضوب المشمس
ولنا زرع الدنا
قببا زرق السنى
ولنا صهلة الخيل
من الهند الى الاندلس

وهو النص الذي ثبت في النشيد •

ثم يصبح النقد بدوره ادبا يساعد القارىء على ترقية ذوقه وارهاف احساسه الفني ويعيد الناس عامة الى الأثر مرة ثانية ليتذوقوا الجمال معه •وكم من نقد فتح آفاقا جديدة لأثر أدبي كان مغمورا لولاه ، وكم من ناقد اكتشف شاعرا وسدد له خطاه ، وكم من نقد وجه أدبا ورفع مستواه ، ولكني أريد أن أقرر هنا ان الادب بوجه عام يتأثر بالأدب أكثر مما يتأثر بالنقد •

ولعل من الخير أن أحترز فأقول ان الأدب العربي قد تأثر بالأدب أكثر مما تأثر بالنقد • واسمحوا لي أن أستمد الدليل من نهضتنا الأدبية الاخيرة فان أدباءنا اليوم قد تأثروا بالادب وبالأدباء في مطلع هذا القرن أكثر مما تأثروا بالنقد وبالنقاد• حتى النقاد أنفسهم فان أدبهم هو الذي أثر في أدبنا قبل نقدهم ــ وما لي أحوم ولا أرد ــ ان مخائيل نعيمة مثلا أثر في الادباء بأدبه أكثر مما أثر بغرباله وكذلك فعل المازني وطــه حسين وغيرهم من الادبــاء النقــاد • ولولا طرق هــؤلاء في الكتــابة وأساليبهم ــ ولست أرضى عن كلمة الاساليب لوصف فنونهم ــ أقول لولاها لما كان لهم هذا الأثر الذي نلمسه اليوم في نهضتنا الادبية • فالتأثير المباشر الاكبر كان للكتابــة نفسهــا وليس للنظرات النقدية التي عرفناها لهم •

وأريد بهذه المناسبة أن أشير الى هذا الاستفتاء الذي قامت به مجلة الآداب في عددها الاخير لطائفة من الادباء في هــل أدى النقد العربي رسالته ، أو هل كان له أثر في انهاض أدبنــا المعاصر أو تقويمه وتوجيهه ، ففيه متعة وفائدة وفيه ما يظهر لكم اختلاف ادبائنا في اثر النقد والنقد العربي بنوع خاص بل اختلافهم حتى في مقاييس النقد وأغراضه (١) • ومهما يكن

(١) فأجاب السيد عادل غضبان : « نعم ! ادى النقد العربي مثل تلك الرسالة في تقويم ادبنا المعاصر وتوجيهه ولا يزال يؤديها وحسب النظرة العجلى الى مكتبة النقد العربي وما حفلت به من اسفار والى الصحف والمجلات وما استوعبته في انهارها من دراسات في النقد لنوقن ان النقاد قد وفوا قسطهم للادب .

واجاب الاستاذ روحي فيصل : النقــد الادبي عندنا لــم يحقق =

من أمر فان أثر النقد لا يمكن أن ينكر أو يحصر في زمان • أما أن تفرض على الناقد أن يكون نقده توجيها محضا فذلك افساد لعمل النقد •

النـــاقد :

تذكرون اني حين عرضت للمناهج أشرت الى أن الخيـــار

رسالته حتى الان على نحو ما حققها عند الغربيين ... ثم قال : اين من يدلني على الناقد الحق في العالم العربي لاهتف ملء فمي على الفور ، ان مشعل النقد يحمله رائد الادب الحديث .

واجاب الاستاذ شاكر مصطفى : ما أدري اذا كنت اتنكر للسؤال نفسه اذا قلت : اني لا افهم النقد على انه عمل تربوي ومهمة توجيهية لها لحية الوقور العاقل وعصا شيخ الكتاب، النقد عندي لون من ألوان الادب ، فن مبدع مستقل كالشعر والقصة ، وفن سيد ليس بأجير ، ولا غاية له سوى الغاية التي ينتهي اليها كل فن اخر .

واجاب الاستاذ انور المعداوي : لا ! ذلك لان النقد العربي في رايي لم يستطع ان يسهم بقوة وخصب في انهاض ادبنا المعاصر — هذا التفاعل الثقافي مع الثقافة الغربية هو الذي أحدث هذه الانتفاضة في شكل الادب العربي ومضمونه، هؤلاء الذين احدثوا هذا التطور هم وحدهم الذين التقوا بالثقافة الاجنبية ولم يلتقوا بالنقد العربي .

واجاب الدكتور مندور : وليس من شك في ان الحملات الجبارة التي قادها النقد هي التي خلصت الادب العربي من الصناعة اللفظية التافهة وردته الى المعين الانساني العام .

واجاب الاستاذ خليل هنداوي : « ومن هنا أرى ان النقد الحديث يعود اليه الفضل كله في توجيه ادبنا المعاصر » ، ثم يعود فيقول : ولعلنا نغلو كثيرا حين نعين وظيفة محدودة للنقد . لان النقد كالادب حدوده الا تكون له حدود وقيوده أن ينعتق من كل القيود .

في أمرها يعود الى الناقد فهو الذي يجمعها من شت ويطبق ما يوافق منها وهو الذي يسترشد بها عند اتخاذه القرار الاخير .
وعلى مثل هذا الناقد أن لا تستعبده المناهج حتى ولا الأصول لأن الناقد الحق هو الذي يأبى أن يقيد بقيود الحرف والاصول أو أن يخضع لعوامل ومؤثرات تستهويه وتضله عن الطريق السوي . ان الاصول والمناهج حين تقرن الى الفن الحقيقي كالقمقم الذي حاولت الاساطير أن تحبس فيه الجني . وان العبقرية التي تنتج الاثر الرائع الفني لكالجني يصعب حبسها في قمقم . فهي حين تحصر أو يضيق عليها لا تلبث أن تشق لها منافذ تنطلق منها الى عالمها الفسيح . ولا يمكن لأحد أن يروضها ويذللها كما ذلل سليمان الجن الا أن يكون ناقدا عبقريا ذا عصا سحرية قد استمد من أرض عبقر نفسها سلطانا سحريا كسلطان سليمان . ومن هنا أهمية النقاد الافذاذ في تاريخ الآداب ونهضات الشعوب . وقد يبلغ الناقد أحيانا أن يكون هو المكتشف للأديب ولولا قليل لقلت خالق الاديب .

ومن هنا ايضا فان المفهوم الحديث للنقد ليس الضبط والحصر وتطبيق النظم بل محاولة المشاركة والاستمتاع والاستجابة للتأثيرات المختلفة والتذوق والتجرد من النزعات الشخصية والقدرة على فهم التجربة الادبية على وجهها الصحيح وابرازها كما هي وتحليلها وايضاحها ونقلها من الناقد الى غيره من القراء الذين يرغبون في الاطلاع عليها بحيث يوصلهم بهذا النقل الى أعلى مستوى من المتعة الفنية ويشتركون جميعا بالتذوق الفني .

وينتظر من الناقد في سبيل هذا أن يكون منبه الذهن حاد النظر قوي الادراك للاساسيات يرى الشيء كما هو في حقيقته ، غير ذي غرض أو هوى خبيرا قد مارس عمله ، متمرنا فيه كثير المدارسة له ، ملما بألوان الفنون الادبية وبآداب الأمم الراقية ، يعرف ما يميز أدبا عن أدب ، ويدرك ما لكل أدب من خصائص ، مطلعا على كثير من الروائع والآثار العالمية المبتكرة بحيث يستطيع المقابلة ويكشف ما بين الروائع من الصلات ، مختبرا لعملية الخلق نفسها وما تقتضيه من أحوال ، عادلا فيما يصدر من أحكام ، مرنا فيما يحاول وضعه من نظريات ومقاييس ، فهو الذي باستطاعته أن ينفذ الى تراث الأمم ولا سيما تراث أمته فيطوف في رياضه يسقيها ويتعهدها وينعش ما ذبل من أزهارها ويحييه ويعرضه للناس من جديد ، أو ينقل الناس اليها بعد أن يكون قد هيأ لهم فيها سررا عليها يتكئون · وهو الذي بعمله هذا يربي الذوق ويهذبه ويبلغ بالناس الى أعلى ذروة من المتعة الفنية والتذوق الصحيح · ان الناقد في مثل هذه الحال لينفذ الى صميم الاثر الادبي والى صميم نفس صاحبه ويتصل بها اتصالا مباشرا يمكنه من فهم التجربة الادبية وتحليلها وايضاحها وابرازها للناس في ثوب قشيب بل ان الناقد الفذ ليلقي أحيانا على الاثر الادبي مسحة من الجمال تجعله بهجة للمتذوقين ·

وللناقد فوق هذا شخصية مزدوجة فهو مفكر وابن فن يرى ويتذوق ، ولكنه يحاول أن يعلم كيف رأى وكيف تذوق · وفي تقييمه للأثر الادبي لا بد له من الاستناد الى هاتين الخاصتين ـ الفكر والذوق ـ الفكر لتطبيق ما يصلح من المقاييس

وادراك العوامل التي وراء الاثر والذوق أو التحسس للشعور بالجمال والقيم وتقديرها ·

الذوق والجمال :

اما الشعور بالجمال فأمر قد توضع له النظريات الفنية ولكن ادراكه أو توضيحه أمر صعب المنال · ومنذ زمن «كنت» Kant حين حاول تحديد الذوق وتقسيم ما لا يحس من القيم الى خير وجمال وحق والناس يختلفون في شأنه وقد حاول بعض النقاد مطابقة الخير والجمال والحق مع الارادة والعاطفة والعقل وجعلوا لكل منها في الانسان كفاءة أو موهبة فواحدة للمعرفة وثانية للذة وثالثة للرغبات فالفهم في المعرفة يدل على الخير والشر ، والذوق أو الحكم في اللذة يدل على الجمال والقبح ، والعقل في الرغبة يدل على الحق والباطل · ولهذا جعلوا الذوق أو الحكم في مواضع اللذة · ولكن النقد الحديث قد أخذ يتنكر لهذه النظريات ·

ومن النقاد من يزعم ان الشعور بالجمال يبعث من روح المرح واللعب فالحيوانات التي تنعم لحسن تغذيتها بفيض من النشاط العصبي لا بد ان تشعر بالحاجة الى انفاق هذا الفيض فتمرح وتلعب وتجد لذة ومتعة كاللذة التي يجدها الفنان في انفاق الزائد من قواه المذخرة · فالعواطف الجمالية عند أصحاب هذا الرأي مردها روح اللعب لا الحاجة ولا المنفعة · ومن هنا فالشعور بالجمال عندهم أمر منزه عن الغرض ـ أمر يأتي عن اللعب وليس عن جد الحياة · ونسمع من ناحية ثانية

ما يناقض هذا تماما وهو ان المنفعة هي أولى درجات الجمال فالرغبة هي ينبوع العواطف الجمالية بل ان كل ما يتصل بالوظائف الاساسية في الوجود من تحرك وتنفس وتغذ وتناسل يصطبغ بلون جمالي ويعطي لذة جمالية • وان اللذة نفسها تنطوي على بذور الجمال كما تنطوي على الخير نفسه • ويذهب البعض الى أن الجمال ادراك يوقظ فينا الحياة في صورها الثلاث الارادة والعاطفة والعقل وان الشعور السريع بهذه اليقظة العامة يولد اللذة الجمالية • ويضيف آخرون ان الشعور بالجمال ولذته يقوى مع الفعل والشعور بالواقع فللشعر الملحمي مثلا وقع جميل ايام الحرب وان انشاده وقت الالتحام أوقع ما يكون ولذلك فقد قالوا ان الجمال يقوى مع القوة في الحركات والانطلاق والرشاقة والانسجام والايقاع •

ولعل الجمال الذي نحاول استجلاء فكرته من المحسوسات أسهل فهما من الجمال في الفن الادبي وأقرب منالا الى ادراكنا • أما اذا خدعنا ببعض الظواهر الخارجية الشكلية في الادب ولم ننفذ الى باطنه فقد أخطأنا فهم الجمال • ثم ان الذين يظنون ان الجمال في الاثر الادبي مرده الى صفات أو مزايا ملازمة له من خيال وعاطفة وجودة تعبير وبناء وشكل وتوازن وتأليف وتصميم ووحدة وايقاع الخ لعلهم مخطئون فاننا حين نتكلم عن هذه العناصر والصفات انما نتكلم في الواقع عن حالات عقلية فينا رأيناها معكوسة في الاثر الفني فحسبناها صفات ملازمة له • ولعل هذا هو معنى القول الذي أوردناه : ليس للجودة في الشعر صفة انما هو شيء يقع في النفس عند المميز كالفرند في السيف والملاحة في الوجه • زد على هذا ان طريقة

الحكم على الكل مـن الجزء وعلى الفكرة الشاملة مـن بعض التفاصيل لأخطر ما يكون • ان جمال البيت في القصيدة مثلا يجب أن يقاس بالنسبة الى روح القصيدة كلها وان ينظر اليه كجزء من كل لا يستقل عنه كما ننظر الى اللون الواحد فـي الصورة بالنسبة الى الصورة كلها •

بقيت مسألة الذوق لادراك الجمال ! وهل هناك اتفـاق بشأن الـذوق ؟ وفي عـدد مـن أعـداد مجلـة « تيم » Time الاميركية رسالة من مصور مشهور الى رئيس تحريرها يعلق على ما كتبته المجلة في عدد سابق بشأن معمار راز لعله أشهر معمار عالمي حي ــ هو فرانك لويد ريت ــ فيقول : لقد عرفت عـن مقدرته من زمن بعيد ولكني رجعت هذه المرة الى مكتبتي لأرى صور تصاميمه • واني أتفق معكم في أنه قد حاز كل شيء ــ ولكن ما عدا الذوق • وفي جواب المحرر مـا يلي : ان حضرة المصور ليعلم ان لريت ايضا رأيا في هذه المسألة ــ مـا هـو الذوق ــ ••• ان الذوق لا شك في عالم علم الجمال ــ انـه سلطان غريب ، ما هو بالمتعلم ولا هو بالعاقل ولكنه موجود على كل حال ــ وبكلمة ان الذوق هو الذي نطلبه ونحبه ولكنه في هذا العالم العصري غير متجانس ويصعب تحديده • ويروى عن المؤلف الموسيقار المشهور جون وليمس أنه سئل عن صفـة الجمال في الموسيقى وكيف تكـون الموسيقى الجميلة فقـال : يصعب تحديدها ولكنني أعرفها حين أسمعها !•

وينسبون الى الناقد الشهير ازرا بوند أنه قال : لعن الله الذوق ! دعني أرقي ادراكك واحساسك وسترى بعد ذلك ان

الذوق يعرف كيف يدبر أمره ! ولست أذكر أين قرأت في بعض الكتب القديمة أن شاعرا نظم شعرا وأعجب به ثم أخذه فعرضه على الفرزدق وسأله كيف ترى هذا الشعر ؟ قالوا : فقال له الفرزدق : أرى أن ترده على شيطانك كي لا يمن به عليك ·

قبل النقد :

أيها الحفل الكريم

في مثل أول يوم من أيام هذا المؤتمر من سبع عشرة سنة ألقيت كلمة في النقد من على هذا المنبر قلت في آخرها ان ميدان الجمال هو لسوء حظنا أو لحسنه واسع تكثر فيه المتناقضات حتى زعم أناطول فرانس أن باستطاعة المرء أن يناقش في الموضوعات المتعلقة بتقدير الجمال أكثر مما يستطيع في أي موضوع آخر ، وقلت ومن يزعم ان المقاييس لتقدير الجمال وتذوقه قد وضعت وضبطت واستقامت وعينت حدودها فهو خادع أو مخدوع · وأشرت الى من ذكر أنه اذا استطاع علم الحياة أن يصبح علما ثابتا بعد ألف سنة فسينبغي لعلم الآداب والسلوك مثلها ثم لا بد أن يمر ألف سنة أخرى قبل أن يصبح علم الجمال مثلها وسيظل الناس في حيرتهم طيلة الآلاف الثلاثة من السنين يتساءلون عن مقاييس الجمال ونظمه · وها قد مرت سبع عشرة سنة من هذه الآلاف الثلاثة والجمال لا يزال في رأي بعض الناس حيث هو شيء لا يدرك بالصفة ولكن بالذوق والذوق على رأيهم غير متجانس في هذا العصر ·

ولكن النقد الادبي على رغم هذا قد خطا في هذه السنين السبع عشرة وحدها خطوات كبيرة وقد سلك طريقا عبدها لنفسه • نفذ منهـا الى روح الادب فتغلغل في صميمـه وتعـرف الى كنه الحياة نفسها التي يعبر عنها الادب • وقد ساير النقد ركب الفنون الادبية في جميع ألوانها وفروعها آخذا بيد الواحـد ومقيلا من عثرة الثاني ومنشطا لبعضها وممهدا الطريق لبعضها الآخر وحاملا مشعله الهادي من ذوق وعلم وسطها كلها بل انه قد شق لبعضها طرقا جديدة خاصة وأخذ يعالجها مستقلة عـن غيرها كل فن على حدة وكل فرع على حدة وأخذ يصدر عنها أحكاما تدل على ما لهذا الفن اليوم من أثر في بقية الفنون ومكانة بينها بحيث دعي هذا العصر بحق عصر النقد •

وأخذ النقد فوق ذلك يؤثر بدوره في الادب والادبـاء • يهذب الذوق العـام والخاص ويشحـذ الادراك بحيث يدنـي المتذوق من فهم الجمال وتحسسه ويحاول أن يسمو بالرغبات ليستدل العقل على الحق دون الباطل ويسعى في تنظيم الارادة لمعرفة الخير وتمييزه من الشر ، وحب بهـا محاولة في سبيل الوصول الى الحق والخير والجمال •

وكنت أود لو كـان باستطاعتي أن أستعرض بالتفصيـل مجاري النقد الادبي العربي اليوم وقـد يستلزم كـل مجرى حديثا خاصا بنفسه ــ كنقد القصة ونقد الشعر ونقد المسرحية ونقد الكتاب الى ما هنالك مـن أجزاء وفروع ، وموضـوع حديثي اليوم النقد الادبي فحسب • ولكنـي أوجز فأقول ان النقد الادبي العربي الحديث قد أخذ بوجه عام يتنشق بعـد

الحرب الكبرى الاولى شيئا من الحرية والجرأة اللتين يتطلبهما النقد الصحيح • ومنذ ذلك العهد الى اليـوم والنقـد العربي يحاول أن يساير ركب الادب العربي العـام المندفع بخطـى سريعة الى الامام • واذا كان نقادنا العمليون اليوم لا يزالون قلة بين أدبائنا ــ والكرام قليل ــ فانهم قد أخذوا ينشئـون جيلا جديدا من الشباب في كل البلاد العربية له تحسس جديد وادراك جديد واني مؤمن بمستقبل النقد الادبي علـى يده لأني أؤمن بالتطور في الحياة العربية وأؤمن بمستقبل الادب العربي ومستقبل الشباب العربي •

رواياتُ الأغـاني

مقال للدكتور زكـي مبارك في مجلـة المقتطف وقد اثبتنا النص كما ورد وفيـه الخطأ بكتابة ابن في اسم ابن ابي ربيعة دون الـف وكان يجـب ان تثبت في كـل المواضع لان الاسم الثاني وهو «ابو ربيعة» جد عمر وليس والده وهو ايضا كنية وفي اي من الحالتين يجـب ان تثبت الهمزة . وسيرد مقال في اواخر هذا الكتاب في كيف تكتب همزة ابن .

يعد أبو الفرج الاصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦هـ اكبر مؤلف عرفته اللغة العربية · ولا يوجد في المؤلفين من بعده من لـم يعول عليه ، ويندر أن نجد باحثا في تاريخ الادب أو تاريـخ الاسلام لم يتخذ كتابه الاغاني مرجعا له · والاغاني هذا كتاب عظيم في ٢١ مجلدا ألفه الاصبهاني في خمسين سنة وكتبه مرة واحدة في عمره واهداه الى سيف الدولة بن حمدان ·

وشهرة الاصبهاني وكتابه مستفيضة فلا حاجة الى اعـادة

ما يعرفه الناس • وانما أريد هنا أن أنص على ناحيتين من الاصبهاني وكتابه لم أجد من تنبه لهما من الباحثين ، ولهاتين الناحيتين شأن عظيم في فهم الحياة الادبية ، وسيكون لهما أثر بعيد في دعوة المؤلفين الى الاحتياط حين يرجعون الى كتاب الاغاني يتلمسون الشواهد في الادب والتاريخ •

الناحية الأولى خاصة بالأصبهاني : تلك الناحية هي خلقه الشخصي ، فقد كان الاصبهاني مسرفا أشنع الاسراف في اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب من تكوينه الخلقي أثر ظاهر في كتابه ، فان كتاب الاغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون • وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ، ويهمل الجوانب الجدية اهمالا ظاهرا يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين الجد والرزانة والتجمل والاعتدال • وهذه الناحية من الاصبهاني أفسدت كثيرا من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه المرحوم جورجي زيدان في كتابه تاريخ أدب اللغة العربية ، وما كتبه أستاذنا الدكتور طه حسين في حديث الاربعاء تكفي للاقتناع بأن الاعتماد على كتاب الاغاني جر هذين الباحثين الى الحط من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية وحملهما على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر شك وفسق ومجون •

ولا أريد بهذا أن أحكم بأن الاصبهاني كان يتعمد الاختلاق ، وان الجمهور في العصر العباسي كان مغمورا بالطهر والعفاف ، كلا • فقد قلت غير مرة ان الحياة الانسانية مزيج

من الشك واليقين والحلم والجهل والهدى والضلال ، وان الانسان لا يكون خيرا محضا ولا شرا محضا ، وانما بقاؤه في أن تكون سرائره مسرحا لنوازع الغي والرشد والبر والفجور • ولكن أريد أن أقول : ان اكثار الاصبهاني من تتبع سقطات الشعراء ، وتلمس هفوات الكتاب ، جعل من كتابه جوا مشبعا بأوزار الاثم والغواية ، وأذاع في الناس فكرة خاطئة هي اقتران العبقرية بالنزق والطيش والخروج على ما ألفت الجماهير من رعاية العرف والدين •

أما الناحية الثانية فهي خاصة بكتاب الاغاني : تلك الناحية هي وضع ذلك الكتاب ففي مقدمته عبارات صريحة في الدلالة على أن مؤلفه قصر اهتمامه أو كاد على امتاع النفوس والقلوب والاذواق : فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ • وأريد بذلك أن المؤلف أراد أن يقدم لأهل عصره أكبر مجموعة تغذى بها الاندية ومجامع السمر ومواطن اللهو ومغاني الشراب • وانه ليحدثنا في المقدمة بأنه أتى في كل فصل من كتابه بفقر اذا تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة الى مثلها ، ومتصرفا فيها بين جد وهزل وآثار وأخبار وسير وأشعار ، متصلة بأيام العرب المشهورة ، وأخبارها المأثورة ، وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام • وأخبرنا بعد ذلك بأنه اهتم بالغناء الذي عرف له قصة تستفاد وحديثا يستحسن • وعلل ذلك بقوله : « اذ ليس لكل الاغاني خبر نعرفه ، ولا في كل ما له خبر فائدة ، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهي السامع » •

وأحب أن يتأمل القارىء قوله : « رونق يروق الناظر

ويلهي السامع » فهذا التعبير هو الوصف الصادق لما اختار الاصبهاني أن يدور عليه حين أراد أن يقدم ما راقه من أيام العرب وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام • ولا سيما اذا لاحظنا أن كلامه يشعر بأنه مستعد لاهمال ما فيه بعض الفائدة اذا خلا من ذلك الرونق الذي « يروق الناظر ويلهي السامع » فهو اذن يساير القراء المتطلعين الى النواحي الطريفة من أخبار الملوك والخلفاء والوزراء والكتاب والشعراء • ولهذا النحو من التأليف قيمة عظيمة جدا اذا فهمه القارىء على وجهه الصحيح • فهو دليل على خصوبة التصور والخيال ، وبرهان على أن كتّاب اللغة العربية لم يحرموا من القصص الشائق الخلاب ، ولم يفتهم أن يقدموا لاوقات اللهو والفراغ ما تحتاج اليه العقول المكدودة والنفوس المحزونة من طرائف الاقاصيص وغرائب الاسمار • ولكن الخطر كل الخطر أن يطمئن الباحثون الى أن لروايات الاغاني قيمة تاريخية ، وأن يبنوا على أساسها ما يشاؤون من حقائق التاريخ لا سيما وصاحب الاغاني يصارحنا بأن « في طباع البشر محبة الانتقال من شيء الى شيء ، والاستراحة من معهود الى مستجد ، وكل منتقل اليه أشهى الى النفس من المنتقل عنه ، والمبتكر أغلب على القلب من الموجود » وان « انتقال القارىء من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن أخبار قديمة الى محدثة ومليك الى سوقة وجد الى هزل » أدعى الى نشاطه وأبعث على شهوته لتصفح ما في الكتاب من مختلف الفنون •

ولأضرب المثل بما قصه صاحب الاغاني من أخبار عمر ابن أبي ربيعة • وهي أخبار ظنها كثير من الباحثين صورة

لحياة الحجاز في القــرن الاول للهجرة · وقــد حدثني المسيو ماسنيون بأن لاشعار عمر بن أبي ربيعة وحوادثه أهمية عظيمة من هذه الناحية · وأنا قد اعتمدت بالفعل على كتاب الاغاني حين فصلت أحاديث من عرف ذلك الشاعر من الملاح في الطبعة الثالثة من كتابي « حب ابن ابي ربيعة وشعره » · ولكننــي دعوت القارىء الى الاحتراس وبينت له انني أريد أن أرسم من ابن ابي ربيعة صورة جذابة تشبه صورة ميسيه عند الفرنسيين وجوت عند الالمان وبيرون عند الانجليز · وأنــا أستبيح هــذا النحو من استغلال كتب الادب والتاريخ ، فان الادب يقصد به امتاع القلوب لا اقناع العقول · ومتى نص الكاتب على أن وجهته فنية محضة وان منحاه أدبي صرف فقد أبرأ ذمته ممن يريد أن يتخذ من أقاصيص الادب صورة لحياة الاشخاص وما أحاط بهم من مختلف البيئات وشتى الظروف · وكذلك فعلت حين قلت :

« ان كثيرا من حوادث ابن ابي ربيعة الغرامية من صنــع الخيال · وقد قبلناه على علاته واكتفينا بتلك الاشارة عند التمهيد لاخبار الملاح ، اذ كانت حوادث ابن ابي ربيعة التي أضيفت اليه تدلنــا على شيئين : فهي أولا علامــة على ان المتقدمين أنسوا بروحه ، وأسلموا قلوبهم لوحيه ، فأبدعوا في ظلال ذكراه ما شاء الخيال من أحاديث الحب الظافر والهوى الغلاب ، وهي ثانيا دليل على انه كــان للمتقدمين ميــل الى القصص الغرامي وحظ من الاجادة فيه » ـ راجع ص ٢٩٥ وما بعدها من حب ابن ابي ربيعة ·

لكن صاحب الاغاني لم يفعل شيئا من ذلك ، وانما ساق أخبار ابن ابي ربيعة كلها على أنهـا حقائق ، وساقها مروية بالسند ، والرواية بالسند شيء ساحر فتن به الاستاذ الرافعي في رده علينا اذ قال : « وهل نسيت ان الرواية علم دقيق لـه آداب وشروط ! » واعتمادا على هذا العلم الدقيق اطمأن أكثر الباحثين الى روايـات الاغانـي فضلوا وأضلـوا في حقائـق التاريخ •

قلت ان صاحب الاغاني كان يهتم بالنواحي الطريفة من السير والاخبار • فلاذكر من أدلة ذلك انه حدثنا بسنده عن أخي زرقان عن أبيه قال : أدركت مولى لعمر بن ابي ربيعـة شيخا كبيرا فقلت له : « حدثني عن عمر بحديث غريب » وكلمة « حديث غريب » هذه لها معناها فيما نحن بسبيله مـن أخذ الرواة بالتلفيق والاختلاق • فان البحث عن الاوضاع الغريبة من أحاديث عمر بن أبي ربيعة يدل على ظمأ تلك النفوس الى النادر المستطرف مـن القصص والاحاديث • ومـا عسى أن يكون ذلك الخبر الغريب ؟ هو خبر يشبه من بعض نواحيـه قصة حج أبي نواس التي اخترعها ابن دريد : فأبو نواس حين رجع من حجه اجتذبه جماعة من حسان النساء ، وما كاد يطمئن الى ظفره بما كان يشتهي من جميل الصيد حتى دخل عليـه جماعة من العبيد في حالة جارحة بددت ما نظم من ساحر الاحلام وابن ابي ربيعـة في حجه تعرض لنسوة مـن جواري بني أمية فخلبنه ووعدنه بتذكرة طيبة تكون تحفة له كلما تذكر انسه بهن في أيام الطواف • فلما بعث غلامه يتسلم التذكرة عاد ومعه

صندوق لطيف مقفل مختوم كان يظن أنه أودع طيبا أو جوهرا ، ففتحه فاذا هو مملوء من المضارب ...... واذن فقد تم التشابه بين قصة عمر وقصة ابي نواس .

ونجد صاحب الاغاني في مكان آخر يروي بسنده عن عثمان ابن ابراهيم الخاطبي قال :

« أتيت عمر بن أبي ربيعة بعد أن نسك بسنين وهو في مجلس قومه من بني مخزوم فانتظرت حتى تفرق القوم ثم دنوت منه ومعي صاحب لي ظريف وكان قد قال لي : تعال حتى نهيجه على ذكر الغزل فننظر هل بقي في نفسه منه شيء ؟ فقال له صاحبي : يا أبا الخطاب أكرمك الله ، لقد أحسن العذري وأجاد فيما قال ، فنظر عمر اليه ثم قال له : وماذا قال ؟ قال حيث يقول :

لو جذ بالسيف رأسي في مودتها لمر يهوي سريعا نحوها رأسي

ثم مضى يهيجه بالشعر حتى طرب . وحدثهما بحديث وصف بأنه « حديث حلو » وتلك الحلاوة لها معناها ايضا فهو نص على أنه وضع ليكون فكاهة طريفة ينتقل بها السامرون في مجالس الشراب . ويتلخص الحديث في أن خالد الخريت صاحب عمر حدثه عن نسوة مررن به قبيل العشاء لم ير مثلهن في بدو ولا حضر ، فيهن هند بنت الحارث المرية وأشار عليه بأن يأتي متنكرا ليسمع من حديثهن ويتمتع بالنظر اليهن ولا يعلمن من هو . فقال له عمر : ويحك ! وكيف أخفي نفسي ؟ فأشار اليه بأن يلبس لبسة اعرابي ثم يجلس على قعود فلا

يشعرن الا به وقد هجم عليهن ، فأطاع عمر ، ثم وقف بقرب النسوة وأنشدهن ما سألن انشاده من شعر كثير وجميل والاحوص ونصيب • وبعد لحظات تغامز النساء وجعل بعضهن يقول لبعض : كأنا نعرف هذا الاعرابي ما أشبهه بعمر بن ابي ربيعة ! ثم مدت هند يدها فانتزعت منه عمامته وألقتها عن رأسه ثم قالت : هيه يا عمر ! أتراك خدعتنا منذ اليوم ؟ بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه اليك لتأتينا في أسوأ هيئة ونحن كما ترى ، ثم قالت بعد أن أخذا في الحديث : ويحك يا عمر ! اسمع مني : لو رأيتني منذ أيام وأصبحت عند أهلي فأدخلت رأسي في جيبي فنظرت ••••••• فناديت يا عمراه يا عمراه !! فصاح عمر : يا لبيكاه ! يا لبيكاه ! ثلاثا ، ومد في الثالثة صوته ، الى آخر الحديث •

ونحن نجد لهذه القصة أشباها كثيرة من حيث الغرض والاسلوب فقد حدث ابن دريد أن رجلا جلس الى مجنون ليلى في ظل شجرة فقال : ما أشعر قيسا حيث يقول :

يبيت ويضحي كل يوم وليلة　　على منهج تبكي عليه القبائل
قتيل للبنى صدع الحب قلبه　　وفي الحب شغل للمحبين شاغل

فقال المجنون : أنا أشعر منه حيث أقول :

سلبت عظامي لحمها فتركتها　　معرقة تضحى لديك وتخصر

وللحديث بقية • وفي هذا ما يكفي لبيان الاسلوب الذي كان يجري عليه الرواة في تصوير العشاق الذين تسلوا أو

يئسوا ، وما كان يعمل أرباب الفضول في اثارة ما كانوا يكتمون من أسرار الوجد الدفين وقد استمر صاحب الاغاني ينقل أخبار عمر من غير نقد ولا تمحيص ، ولكنه فطن في بعض ما رواه الى تلفيق الرواة حين عرض الى تزويج الثريا وخروجها الى مصر وعمر غائب ، فقد قال :

« وهذا الخبر عندي مصنوع وشعره مضعف يدل على ذلك ، ولكني ذكرته كما وقع الي » . هنا دلنا صاحب الاغاني على ارتيابه في بعض الاخبار ، ولكن لماذا يذكر ما يرتاب فيه كما يقع اليه ؟ يذكره لأنه يريد أن يقدم ما يروق الناظر ويلهي السامع كما أشرنا من قبل . ولكن لا يفوتنا أن نشير الى أن هذا الخبر ايضا منقول عن جماعة من الرواة كان يصح أن يحتج بروايتهم لو لم ينص الاصبهاني على انه مدسوس .

وفي رأيي ان اخبار ابن ابي ربيعة كلها وضعت تفسيرا لشعره ، لأن كل قصيدة من قصائده تشير الى حادثة من حوادثه الغرامية ، وقد صنع الرواة مثل هذا الصنع في اخبار أبي نواس ، فقد لفقوا حديثا يشرح أبياته المشهورة في جنان التي يقول فيها :

قال اشتكتك وقالت ما ابتليت به
أراه من حيثما أقبلت في أثري
ويعمل الطرف نحوي ان مررت به
حتى ليخجلني من حدة النظر
وان وقفت له كيما يكلمني
في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر

وقد تنبه كثير من الباحثين الى ما دس على أبي نواس ، ولم أجد من أشار الى ما دس على ابن أبي ربيعة مع أن الرجلين يشتركان في أن كلا منهما قضى معظم حياته في اللهو والعبث والمجون • واذا جارينا صاحب الاغاني في الاستدلال على وضع الشعر بضعفه ، فان في شعر ابن ابي ربيعة قصائد يغلب عليها الضعف والانحلال ، حتى ليبعد معظم شعره عن المتانة التي عرف بها عصره وطبع عليها عدد من قصائده •

هذا ، ولو مضينا نحصي ما في روايات الاغاني من التلفيق لطال بنا القول ، فلنكتف بهذا ، ولنسجل مرة ثانية ان الاصبهاني أراد أن يكون كتابه معرضا لما تجمع بين أيدي معاصريه من طريف الاقاصيص • فليعتبره القارىء اذن كتاب أدب لا كتاب تاريخ •

حول روايات الأغاني

رد على مقالة الدكتور زكي مبارك

حضرة مدير المقتطف المحترم

سلام واحترام وبعد فقد قرأت في عدد يوليو من مجلتكم المقتطف مقالا عن روايات الاغاني للفاضل الدكتــور زكــي مبارك ينقصه كثير من الدقة والبحث اللذين تقتضيهما الروح العلمية وأود لو تسمحون لي أن ألفت نظره ونظر قرائكم الى الامور التالية :

زعم الدكتور أنــه يريــد أن ينص على ناحيتين مــن الاصبهاني وكتابه (الاغاني) تفرد بمعرفتهما ولم يجد مــن تنبه لهما من الباحثين ، اما تلك الناحية التي تخص الاصبهاني فهي خلقه الشخصي وزعم الدكتور ان أبا الفرج كان مسرفا في الشهوات أشد اسراف واذا فروايته مشكوك فيها ثم ذهــب الدكتور الى أبعد من هذا فزعم ان كتاب الاغاني هو كتاب أدب

لا كتاب تاريخ (١) . وأخاف أولا أن ينكر كثيرون على الدكتور تفرده بمعرفة هذه الناحية من حياة ابي الفرج واستنتاجه هذا كما أنكروا عليه ادعاءه بمسألة نشأة فن المقامات ويكفي أن نحيل حضرة الدكتور على الطبعة الاخيرة للاغاني التي تصدر عن دار الكتب المصرية فيرى في مقدمة الجزء الاول منها ص ١٩ تحت عنوان قدح بعض العلماء في صحة روايته ما نصه بالحرف :

« ذكره ابن الجوزي في كتابه (المنتظم في تاريخ الملوك والامم) فقال : انه كان متشيعا ومثله لا يوثق بروايته فانه يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق ويهوى شرب الخمر وربما حكى ذلك عن نفسه ومن تأمل كتاب الاغاني رأى كل قبيح ومنكر » .

« ونقل ابن شاكر في كتابه (عيون التواريخ) ان الشيخ شمس الدين الذهبي قال : رأيت شيخنا تقي الدين ابن تيميه يضعفه ويتهمه في نقله ويستهول ما يأتي به » .

ثم ايضا تحت عنوان « شيء من أوصافه » « كان أبو الفرج الاصبهاني وسخا قذرا وكان الناس على ذلك يحذرون لسانه ويتقون هجاءه ..... لأنه كان وسخا في نفسه ثم في ثوبه وفعله .. الخ (٢) » . وقد كانت ولا تزال هذه الاصول

(١) راجع مقال الدكتور في مقتطف يوليو ص ١٩٥ — ١٩٩ .

(٢) راجع خبر اتصاله بالوزير المهلبي ص ٢٠ وما بعدها من مقدمة الاغاني لدار الكتب .

في متناول الناس منذ زمن بعيد وقد رجع اليها كثير من الباحثين كما ان تصدير لجنة دار الكتب في الجزء الاول من طبعتها قد صار في متناول الناس منذ سنوات وسيرى الدكتور فيما بعد خطأ استنتاجه الذي توصل اليه من مثل هذه المقدمات ٠

وزعم الدكتور عند تصديه لذكر الناحية الثانية أنه تفرد بادراك ما ألمح اليه أبو الفرج في مقدمة كتابه عند قوله : « اذ ليس لكل الاغاني خبر نعرفه ولا في كل ما له خبر فائدة ، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهي السامع » وراح حضرة الدكتور يمعن في التأمل بقول أبي الفرج « رونق يروق الناظر ويلهي السامع » حتى ذهب الى أنه « الوصف الصادق لما اختار الاصبهاني أن يدور عليه كتابه » أي ان أبا الفرج قد اخطر القارىء فيما يزعم الدكتور ان الاغاني ستدور على قصص شائق خلاب ليس من الحقيقة في شيء انما هو وليد التصور والخيال واذن يقول الدكتور : « فالأغاني كتاب أدب لا كتاب تاريخ » وينكر على المؤرخين استنادهم الى الاغاني ويرى ان ليس لروايات الاغاني قيمة تاريخية ، ويرى حضرة القارىء ان الدكتور زكي مبارك تصدى بقوله هذا للقدح بجمهور الباحثين في تاريخ الاسلام من عرب ومستشرقين وخطأهم جميعا : ولم يكن الدكتور زكي مبارك يوما ما مؤرخا ٠ ولا نظنه ــ وليعذرنا في ذلك ــ تصدى لدرس المصادر الأولى للتاريخ العربي وفهمها كما درسها وفهمها هؤلاء المؤرخون الذين يقدح بهم ٠

والغريب ان الدكتور عند رجوعه الى مقدمة الاغاني عمد

الى عبارة أو عبارتين فأساء تفسيرهما وأهمل أمورا كان لزاما في ذمته أن يتأملها قبل أن يذهب الى ما ذهب اليه فقد ذكر أبو الفرج في المقدمة نفسها غايته بعبارة أصرح قال : « واعتمد (المؤلف أي نفسه) على ما وجد لشاعره (الضمير راجع للصوت) أو مغنيه أو السبب الذي من أجله قيل الشعر أو وضع اللحن خبرا يستفاد بذكره ذكر الصوت معه على اقصر ما أمكنه وأبعده من الحشو والتكثير بما تقل الفائدة فيه ، وأتى في كل فصل من ذلك بنتف تشاكله ولمع تليق به وفقر اذا ما تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة الى مثلها ، ومتصرفا فيها بين جد وهزل وآثار وأخبار وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام تجمل بالمتأدبين معرفتها وتحتاج الاحداث الى دراستها ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها اذ كانت منتخلة من غرر الاخبار ومنتقاة من عيونها ومأخوذة من مظانها ومنقولة عن أهل الخبرة فيها » اهـ وماذا يريد حضرة الدكتور زكي مبارك أكثر من هذا ؟ ألا يرى حضرة الدكتور ان أبا الفرج قد تعمد فائدة القارىء ومده بأوثق الاخبار انتقاها من مظانها ونقلها عن أهل الخبرة فيها ــ فيما يقول هو عن نفسه · فلم نرفض قوله هنا ونقبله هناك ؟ حتى انه في عبارته التي اعتمد عليها الدكتور زكي « ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهي السامع » يظهر جليا انه يهمه الخبر الذي فيه فائدة وان كان أبو الفرج قد وضع أخباره بشكل يروق ، فذلك لا يضيرها ! وهل يضير الحسناء اذا تجملت ؟ ولا سيما انه لم يضع كتابه

ليكون مصدرا للتاريخ فحسب بل للادب وللاجتماع ولغيرهما واذا صارحنا أبو الفرج الاصبهاني فقال : « ان في طباع البشر محبة الانتقال من شيء الى شيء ومن خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن اخبار قديمة الى محدثة ومليك الى سوقة وجد الى هزل فليس من المنطق في شيء أن نستنتج ان أبا الفرج كان كاذبا فيما يروي أو مكذوبا عليـه واذن فكتابه كتـاب أدب لا كتاب تاريخ ! بل بالأحرى ان مصارحة أبي الفرج هـذه أدعى بأن تفسر على ان أبا الفرج لم يشأ أن يقصر كتابه على التاريخ الصرف أو الادب الصرف أو وصف حيـاة القدمـاء فحسب بل جعله مصدرا لفنون كثيرة ففيه تاريخ وفيه أدب وفيه اجتماع ولا أعلم كيف يسهل علينا أن ننكر بكلمة صورة هذه الحياة العربية القديمة التي وصفها لنا أبو الفرج فكانت مصدرا لكثيرين من الباحثين بعده ٠

وليس معنى هذا ان ليس على المؤرخ أن يحترس ويحتاط عند رجوعه الى الاغاني فان هذا الاحتياط واجب عند الرجوع الى أي مصدر كان ولا أظـن الدكتـور يدعي تفرده بهـذا الاحتياط وأظن بل أعتقد ان الدكتور زكي مخطىء في زعمه ان المرحوم جرجي زيدان والدكتور طـه حسين اعتمدا فقط على الاغاني في أبحاثهما عن الحياة العربية في عصر الدولـة العباسية ونظرة الى المصادر التي ذكر زيدان أنه استند اليها تكفي لاقناع الدكتور زكي بخطئه !

أما اذا كان الدكتور يقصد باحتراسه أن نرفض كل ما يذكره كاتب اذا لمسنا فيه ضعفـا من ناحيـة خلقه فليسمح لي

أن أهمس في أذنه أنه لم يحسن استعمال سلاح الاحتراس ·
وشيء آخر أريد أن أوجه نظر الدكتور اليه وهو أمر الرواية والرواة الذي رده على الاستاذ الرافعي ومر به متهكما وهذه أول مرة أسمع بكاتب ينكر أهمية الرواية وانها « علم دقيق له آداب وشروط » وليت شعري لماذا يشك الدكتور زكي بروايات الاغاني اذا كان ليس لعلم الرواية آداب وشروط ·
وأظن الدكتور سيرجع عن رأيه فيسلم مع الاستاذ الرافعي بأهمية الرواية ولو أنه قرأ ما كتبه المؤرخ الالماني الكبير المستشرق فلهوسن في كتابه « الدولة العربية وسقوطها » لما سمح لنفسه بهذا الشطط · ويا ليت الدكتور اطلع على ما يكتبه المستشرق الكبير لامانس عن تاريخ بني أمية فيرى في كم موضع استند لامانس الى الاغاني · وأريد أن ينظر الدكتور الى غير هؤلاء من المؤرخين المستشرقين الذين قصروا أوقاتهم على درس التاريخ العربي أكثر مما قصرها حضرته ليرى ماذا يقولون في أمر الاغاني ولكن الدكتور زكي يريد أن يسفه جميع هؤلاء فهو قد تنبه الى شيء لم يتنبه اليه أحد من الباحثين ·

ولنعد الى أمر روايات الاغاني · ان أبا الفرج قد احترس شيئا ما عند تدوينها فقد ضعَّف بعضها وأنكر بعضها الآخر وطعن برواته وذكر ان التوليد فيه بيِّن والصنعة ظاهرة وقد ذكره لكي لا يخلو كتابه منه (١) وهذا تاريخ على نحو ما

(١) اغاني ٧ ص ١٣٣ — ١٣٥ بولاق ·

استطاع أبو الفرج أن يفهمه ، وقد طعن أبو الفرج برواية ابن الكلبي وجاراه غيره في ذاك وطعن بابن خرداذبه عند نقله عنه بعض أخبار معبد قال : « وابن خرداذبه قليل التصحيح لما يرويه ويضمنه كتبه » (١) واذا فليس من العدل أن نحكم ان أبا الفرج كان يتعمد سرد الاخبار الطريفة لا لشيء الا لأنها طريفة نادرة ولأن النفوس ظمأى الى مثل المستطرف من القصص والاحاديث • ولو نظر الدكتور الى هؤلاء الرواة الذين نقل عنهم أبو الفرج لرأى ان أمر انكار أخبار الاغاني أمر جلل ! فمنهم أبو بكر ابن دريد ذكره ابن خلكان ج ١ ص ٧٠٩ فقال امام عصره في اللغة والادب والشعر • ومنهم الفضل ابن حباب الجمحي ولي قضاء البصرة وقد قال عنه ابن النديم ص ١١٤ من الفهرست انه من رواة الاخبار والاشعار والانساب • ومنهم علي ابن سليمان الاخفش وكان ثقة فيما يقول ابن خلكان • ومنهم نفطويه رووا عنه أنه كان صادقا فيما يرويه حافظا للقرآن وحافظا للسير وأيام الناس والتواريخ • ومنهم المؤرخ الكبير محمد ابن جرير الطبري رووا أنه كان ثقة في نقله أصح التواريخ وأثبتها (٢) وان كان قدح بعض الناس كابن الجوزي وغيره في رواية أبي الفرج فليس من الضروري أن يحذف الاغاني من قائمة المصادر العربية لدرس التاريخ العربي • وليذكر الدكتور زكي ان من حق غيره أن يأتيه بمن أثنى على صاحب الاغاني خير ثناء •

---

(١) اغاني ١ ص ٣٦ طبع دار الكتب وقد صحح ابو الفرج رواية عمر معبد .

(٢) راجع تصدير لجنة دار الكتب للاغاني جزء ١ ص ١٦ .

فمنهم ابن النديم وقد ذكره في الفهرست فقال : « كان شاعرا مصنفا أديبا وأكثر تعويله كان في تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الاصول الجياد ويؤيد هذا انه في كتابه الاغاني يروي كثيرا من الاخبار بقوله نسخت من كتاب فلان (١) » ، وذكره ابن خلكان فقال : « كان من أعيان أدبائها (بغداد) وأفراد مصنفيها وكان عالما بأيام الناس والسير » وذكره ياقوت في معجمه فقال : « العلامة النساب الاخباري الحفظة الجامع بين سعة الرواية والحذق في الدراسة لا أعلم لأحد أحسن من تصانيفه في فنها وحسن استيعاب ما يتصدى لجمعه (١) » ويروى أن الصاحب ابن عباد قال عن الاغاني : « فهو للزاهد فكاهة وللعالم مادة وزيادة وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة وللبطل رجلة وشجاعة وللمتظرف رياضة وصناعة وللملك طيبة ولذاذة ... ولقد عنيت بامتحانه في أخبار العرب وغيرهم فوجدت جميع ما يغرب عن أسماع من قرنه بذلك قد أورده العلماء في كتبهم ففاز بالسبق في جمعه وحسن وضعه وتأليفه (٢) » . وذكره ابن خلدون في مقدمته قال : « وقد ألف القاضي أبو الفرج الاصبهاني ، وهو ما هو ، كتابه في الاغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم حتى يقول فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه (٣) » ولعمري انه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن

---

(١) تصدير لجنة دار الكتب ص ٣٢ — ٣٤ وترى هناك ذكر المصادر التي تشير الى هذا .

(٢) تصدير لجنة دار الكتب ص ٣٢ .

(٣) الضمير يعود الى الغناء في عبارة حذفناها للاختصار .

التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسمو اليها الاديب ويقف عندها ، وأنّى له بها (١) » ولعل عبارة الصاحب ابن عباد « ففاز بالسبق في جمعه وحسن وضعه » وعبارة ابن خلدون « وهو الغاية التي يسمو اليها الاديب ويقف عندها وأنّى له بها » لعل هاتين العبارتين تقنعان الدكتور ان كاتبيهما قد لمسا جمال الوضع في الكتاب ولم يقدحا بفوائده التاريخية ، واذا كان في الاغاني حديث « حلو » او « غريب » او « فكاهة طريفة » او « فائدة لها رونق يروق الناظر ويلهي السامع » اذا كان فيه مثل هذه فهي لا تكفي لأن نتكر على مؤلفه ان فيه فوائد تاريخية وانه اذا مصدر للتاريخ ايضا • وأريد أن أذهب الى أبعد من هذا فأزعم للدكتور أن في الاغاني كثيرا من الاخبار الملفقة التي ربما تكون قد جازت على أبي الفرج فأوردها ولكنها لا تمنع من أن يكون الاغاني مصدرا للتاريخ وعندما نقول مصدرا للتاريخ لا نعني المصدر الوحيد أو الافضل أو الجامع المانع بل نعني أحد المصادر فحسب وهو الأمر الذي أنكره الدكتور •

جميل أن نحترس عند رجوعنا الى مصدر ما أو أخذنا عن مؤرخ ما وجميل أن ندرس خلقه وشخصيته ونفسيته وعقليته وأحواله التي أحاطت به ونبين أثر ذلك في ما يكتبه فان هذا يعيننا على فهم التاريخ لا على انكاره • أمن الضروري ان كان

---

(١) تصدير لجنة تجار الكتب ص ٣٤.

المؤرخ فاسقا أو مسرفا أشنع الاسراف في اللـذات والشهوات أن لا يكون مؤرخا وان لا يكون صادقا فيما يروي أو يقول أو يكتب ؟ أو تظن يا دكتور ان أبا الفرج كتب كتبه كلهـا وهو في حالة السكر والمجون والخلاعة حتى ننكرها ونجردها مـن مزاياها التاريخية ؟

وأريد أن أوجه نظر الدكتور الى أن المنطق شرط ضروري في البحث العلمي · فقد قال : « وفي رأيي ان اخبار ابن ابي ربيعة كلها وضعت تفسيرا لشعره لأن كل قصيدة من قصائده تشير الى حادثة من حوادثه الغراميـة » · ويرى القارىء ان الدكتور ــ بكلمة ــ انكر كل اخبار ابن ابي ربيعة » ثم عاد فنبه بآخر مقاله الى ما دس على ابن ابي ربيعة أي ان الدكتور يرى رأيين مختلفين أحدهما ان اخبار ابن ابي ربيعة كلهـا ملفقة والآخر ان بعضها صحيح وبعضها مدسوس فتأمـل ! ولو أردت أن تعرف السبب الذي حداه الى انكار اخبار ابـن ابي ربيعة فانظر اليه ماذا يقول : « وفي رأيي ان اخبار ابن ابي ربيعة كلها وضعت تفسيرا لشعره لأن كـل قصيدة مـن قصائده تشير الى حادثـة مـن حوادثه الغراميـة » منطـق ! واستدلال ! تنكر الخبر لأن فيه شعرا وقد كان الاولى أن يثبت الشعر الخبر · وأخاف أن يذهب الدكتور الى ان الشعر والخبر مختلقان وهذه ورطة يصعب على مثل الدكتور التخلص منها وفي مثل هذه الحالة يليق بالدكتور قبل تصديه لانكار هـذا الشعر أن يدرس الفن الشعري عند عمر والتعابير والمصطلحات واللغة وغير ذاك وأحيله بهذه المناسبة على ما كتبه المستشرق الالماني بول شوارز في بحثه عن عمر ابن ابي ربيعة (١) ·

(١ Umras Leben, Dichtung Sprache und Metrik

ولعل الدكتور أساء تطبيق فلسفة الشك فرأى ان وجود أبيات شعرية بمعنى الحادثة دليل على عدم وقوعها أو على اختلاقها هي والابيات وأريد بهذه المناسبة أن أنشرها ولا حاجة الى اعادة ذكر الحادثة كما رواها أبو الفرج غير انا نلخصها في أن فتيات آرسلن خالدا الخريت (القسري) ـ وقد صار هذا الرسول فيما بعد من أهم الولاة في العراق ـ ليأتيهن بابن ابي ربيعة متنكرا دون آن يعرف انهن ارسلن وراءه وهذه هي بعض الأبيات :

ألم تسأل الاطلال والمتربعا
ببطن حليات دوارس بلقعا

الى أن يقول :

فقلت لمطريهن بالحسن انما
ضررت فهل تسطيع نفعا فتنفعا
لئن كان ما حدثت حقا فما أرى
كمثل الاولى أطريت في الناس أربعا

حتى يقول :

فقال اكتفل ثم التثم فأت باغيا
فسلم ولا تكثر بأن تتورعا
فأقبلت أهوي مثل ما قال صاحبي
لموعده ازجي قعودا موقعا
فلما توافقنا وسلمت اشرقت
وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبالهن بالعرفان لما عرفنني
وقلن امرؤ باغ اكل واوضعا

وقربـن أسبـاب الهـوى لمتيم
يقيس ذراعـا كلمـا قسـن اصبعـا
فلمـا تنازعنـا الاحاديث قلـن لي
أخفت علينـا أن نغـر ونخدعـا
فبالأمس أرسلنـا بذلـك خـالـدا
اليـك وبينـا لـه الشأن اجمعـا
فمـا جئتنـا الا علـى وفـق موعـد
علـى ملا منـا خرجنـا لـه معـا (١)

يزعم حضرة الدكتور ان الخبر وضع ليفسر هذه القصيدة وليت شعري ما الذي يفهمه الدكتور من هذه الابيات غير هذا الخبر ! فان زعم أنه يشك في الابيات فذلك لـه ! ولكن مـا الباعث على الشك في نظر الدكتور ؟ الخبر ! فالخبر مكذوب في نظره لأن الابيات توافقه والابيات منتحلة في نظره لأن الخبر يؤيدها ! بارك الله !

وفي الاغاني رواية تؤيد هذا الخبر ونستطيع أن نؤكـد للدكتور ان أبا الفرج لم يوردها اثباتا للخبر فقد وقعت قبلـه ولعل أبا الفرج لم ينتبه الى أنها تؤيد ذلك الخبر الذي شـك الدكتور بصحته ولم تشر لجنة التصحيح بدار الكتب الى أمر هذا الخبر في طبعتها مع أنها قد شرحت شيئا عند ورود اسم القسري رسول عمر • والرواية هذه تتلخص في أن ابن ربيعة خدع رجلا اسمه بديح واستطاع أن يبعثه رسولا الى بنـت

(١) قد حذفنا اكثر ابيات القصيدة لضيق المقام .

محمد ابن الاشعث الكندية ، الى أن قال أبو الفرج لقي ابن ابي عتيق بديحا فقال له يا بديح : « أخدعك ابن ابي ربيعة انه قرشي » ؟ فقال بديح « نعم وقد أخطأه ذلك عند القسري وصواحبه » فقال ابن ابي عتيق : « ويحك يا بديح ان من تغابى لك ليغبى عنك فقد ضمت عليه قبضتك ان كان لك ذهن أما رأيت لمن كانت العاقبة ؟ والله ما بالى ابن أبي ربيعة أوقع عليهن أم وقعن عليه (١) » ولا حاجة للتعليق على هذه الرواية فقد وردت قبل ذكر الخبر نفسه وهي تشير اليه كأنه أمر متداول معروف ، ورواة هذه الرواية هم غير رواة الخبر فأبو الفرج ينقل الخبر عن مصدرين مختلفين (٢) .

وانتقد صاحب الاغاني خبرا وقال : « ان شعره مضعف » فراح الدكتور يقول : « واذا جارينا صاحب الاغاني على وضع الشعر لضعفه فان في شعر ابن ابي ربيعة قصائد يغلب عليها الضعف والانحلال حتى ليبعد معظم شعره عن المتانة التي عرف بها عصره وطبع عليها عدد من قصائده » وأظن ان حضرة الدكتور لم يفهم بعد عصر ابن ابي ربيعة وحياته وشعره كما يجب وان ابن ابي ربيعة لم ينظم قصائده لتلقى كلها في الاسواق الادبية فمن شعره ما نظمه لينافس به بعض الشعراء ومنه ما نظمه تقربا للفتيات وطالما سألنه أن يطريهن ومنه ما نظمه ليغني وليكون موضوع لهو وسمر ليس الا . فمن شعره ما هو مأجور ومنه ما هو طبيعي ومنه ما هو غنائي

---

(١) اغاني طبع دار الكتب ١ ص ٨٩ .
(٢) اغاني ١ ص ١٧٤ .

وقد كان له صديقان يغنيان أشعاره أحدهما ابن سريج وفيه يقول :

يا ابن سريج لا تذع سرنا   قد كنت عندي غير مذياع

والآخر هو الغريض وأخباره معهما معروفة لا يستطيع الدكتور انكارها واذا فليس من المنطق في شيء وليس من العلم أن نستدل على ان الشعر منتحل من ضعفه ولو عرف ذلك العصر بالمتانة بل علينا أن ندرس الاحوال التي أحاطت بالشاعر عند نظم ذلك الشعر وان نحيط احاطة دقيقة بأموره الخاصة من حيث شخصيته الداخلية العميقة وبعلاقته مع غيره من حيث هو فرد من جماعة يشاركها في حياتها التي تحياها ، وعلينا ايضا أن نحكم على الشعر بمقياس ذوق العصر الذي قيل فيه ذلك الشعر لا بمقياس ذوقنا ٠

وفي الختام مهما اكتشفنا في الاغاني من روايات ملفقة ومهما عثرنا لصاحبه على عيوب في خلقه يظل الكتاب مصدرا مهما لفهم الحياة العربية القديمة وهو اذن ليس كتاب أدب وحسب بل كتاب تاريخ والسلام ٠

عَصرُ عُمَر ابْن أبي رَبِيعَة

وهو المقال الذي كتبه في جريدة
صــوت الاحرار ١٣ تمــوز ١٩٣٥
الاستاذ عمر فروخ عن كتاب عصر
ابن ابي ربيعة .

الشعراء ودراسة الاعصر :

تختلف حاجة المطالع الى درس عصور الشعراء باختلاف ما تمثله دواوين الشعراء من الصلة بحياة من حولهم · فاذا عاش الشاعر معتزلا في عصره الى فن خاص أو نزعة شاردة كانت الجدوى من درس عصره ضئيلة ولا يجوز لنا عندئذ أن نحكم على عصر بما نراه في ديوان شاعر أو عصبة من الشعراء وحينئذ يجب أن ندرس ناحية من عصر الشاعر أو نواحــي منه · ولو ألقيت سؤالا يتعلق بحاجتنا الى مقدمة في عصر بشار وعصر أبي تمام عن دراسة هذين الشاعرين لما اختلف اثنان في أن الحاجة الى مقدمة في عصر أبي تمام أشد من الحاجة الى مثلها في عصر بشار ·

عصر عمر :

وعمر ابن ابي ربيعة كان ممثل عصبة من الشعراء نظرت

في عصرها فاختارت منه زاوية • فعمر بن ابي ربيعة لم يطف بملذات عصره ومظاهره ولكنه أحب أن يجمع هـذه الملذات حول الزاوية التي يعيش فيها ثم انقطع عـن زيارة الخلفاء ــ أو أضرب عنها البتة ــ ولم يدخل هجاء سياسيا قط •

ولكن اذا كان الشاعر لا يستطيع أن ينفصل عن عصره وجب أن يكون ما في ديوان ابن ابي ربيعة صورا له وهذا ما أراد الاستاذ جبرائيل جبور أحد أساتذة الدائرة العربية في جامعة بيروت الاميركية أن يعرض له في الجزء الاول من كتابه « عمر ابن ابي ربيعة » • والكتاب في رأيي مقدمة موجزة الى دراسة الادب في القرن الهجري الاول ولكن التوسع في الحياة الاجتماعية خاصة جعله مقدمة وافية الى درس شعر ابن ابي ربيعة •

اتجاه الكتاب :

الكتاب علمي في تفكيره علمي في لغته ، اما في تفكيره فلأن المؤلف أراد أن يجمع أكبر عدد من الصور لعصر « شاعر الحجاز وقريش » في تسلسل معقول يرى القارىء لدى استعراضهـا فكرة الاستاذ جبور بجلاء ذلك ان جرير والفرزدق ــ والاخطل ايضا يا سيدي ــ لم يكونـا شـاعري العصر الهجري الاول الوحيدين ولا كان فنهما فن ذلك العصر الوحيد بل هو يذهب الى أبعد من ذلك فيدلنا (ص ٧٠ ــ ٧٣) على خمريات قيلت في القرن الاول مع اعتقاد جمهرة الادباء بأن الخمر فن القرن الثاني أو فن أبي نواس • والاستاذ جبور ايضا يريد أن ينقل

أكثر الميزات التي نعتقد أنها خاصة بالعصر العباسي من حياة الجواري ومن اللهو والفسق ومن التنعم والتلذذ ومن الاسراف والبذخ الى عصر الوليد وسليمان ابني عبد الملك • غير ان ما أرى ان هذه المميزات لم تكن شاملة شمولها في عصر هـارون الرشيد وكل ما أراه ان التقوى الشديدة أرت بعض الـولاة والخلفاء هذه النزعة مكبرة فحاربوها •

وهنا يجب ألا نهمل اهتمامنا بالعقلية البشرية فان نزعات المرء تولد معه ولكنها تتجلى في مرآة عصره وليست نزعة الفرد دليلا على نزعة العصر • واذا أيقنا من تحامل العباسيين على بني أمية ــ ونحن ندرس عصر خصومهم في كتبهم ــ استبان لنا شيء من الرشد في الاحجام عن كثير من الاحكام • ومع كل هذا فقد سرد الاستاذ جبور صور الحياة في القرن الهجـري الاول سردا محكما جامعا هو الاول من نوعه في اللغة العربية وفي غير اللغة العربيـة ــ لأنني قليـل الثقـة باخلاص الأب لامنس ــ •

لغة الكتاب علمية :

جمع المؤلف شواهده بلغة أصحابها ثم نسقهـا في كتابـه فأصبح الكتاب أشبه ما يكون « بكتاب مصادر » يكون الباحث عند الرجوع اليه موقنا بأنه أمام حقائق التاريخ جمعـت في صعيد واحد • ان الاستاذ جبور لم ينمق اسلوب تلك المواد فتفقد شيئا من قيمتها التاريخية أو قوة من دلالتها وهذا مـا يشكره عليه الباحثون وان كان القراء لا يستلذونه •

وبين هذه المواد المنسقة وعلى حواشيها وهوامشها لغة المؤلف بأسلوبه وهي في الاكثر مستمدة من النصوص الاصلية في اتجاهه العلمي • غير أننا كنا نوه أن نراها أصفى مما عليه وأجزل ، وان كان اسلوب البحث العلمي يقدر أن يكون كذلك •

الحياة السياسية ص ٤ ـ ١٤ :

يمر المؤلف بالاحداث السياسية مرا خفيفا وهو على حق في ذلك لفقدان الصلة بين ديوان عمر وأسفار التاريخ ولكن هذا القليل لا بأس به في تاج الكتاب •

الحياة الاقتصادية (ص ١٥ ـ ٢٨) :

يلوح لي ان المصادر التي أثبتها المؤلف خاصة بالجزء الذي نتكلم عليه لأنه قد أشار اليها كلها في حواشي الصفحات وان كان قد أشار الى بعضها مرة واحدة فقط •

تعرض المؤلف في هذا الفصل لثروة الدولة وثروة الأفراد وقد فاته مصدران هما كتابا الخراج للقاضي أبي يوسف وللقرشي فلقد كان يستغني بهما عن كثير من مصادر هذا الفصل الثانوية التي لم يقصد بها أصحابها درس الحياة الاقتصادية على ان أهم ما في هذا الفصل نجاح الاستاذ جبور في تصوير ثروة الافراد واظهار أثرها في لهو الشبان وفي تطور الحياة الاجتماعية •

الحياة الاجتماعية (ص ٢٩ ــ ١٢٧) :

الحياة الاجتماعية هي الغاية المقصودة بالذات من هــذا الكتاب ، هي التي ترينا ان شعر عمر ابن ابي ربيعة والترف المتجلي فيه واللهو ومجالس النساء واجتماعات المواسم لم تكن وليدة مخيلة الشاعر بل كانت موجودة حوله وكانت منتشرة في الحجاز انتشارها في دمشق والعراق ويحب المؤلف أن يلفــت نظرنا خاصة الى مواسم الصيف ومواسم الحج ونزول الجواري في الحجاز وتفنن الحجازيين في المأكل والملبس وانغماس الشباب في المشرب والمجلس ٠

ويبلغ هذا الفصل ذروته عند الكلام على الغناء والشراب فيكاد يقنعنا بأن الحجاز لم يختلف في هاتين الناحيتين في القرن الاول عن بغداد في القرن الثاني ٠

ثم يقف بالشبــاب بين أمرين : بــين التمسك بالديــن وفرائضه (ويقصد آدابه) وبين الاخذ باللهو (ص ٦٤ ــ ٦٥) ويبدي رأيه بأسلوب خطابي مبينا مدى انتشار الشراب وقوة أخذ الشباب باللهو فيقول : « فالدولة مسلمة والحياة في كثير من اقسامها خروج عن مبادىء الاسلام » ثم يؤكد ذلك فيقول : « وهكذا فقد كان الكثيرون منهم مسلمين بالاسم وخارجين على الاسلام بالفعل » ولا شك في أن هذا الحكم « لامنسي» وهو فوق ذلك خاطىء فالخمر لا تخرج المسلم من الاسلام وكذلك اللهو مهما عظم واذا كان فقهاء المسلمين لم يستطيعوا أن يكفروا فردا مع كل ما يكون في ظاهر أعماله من مخالفة لاركان الدين

فهل يستطيع الاستاذ جبور أن يخرج شباب الحجاز من الاسلام لمخالفته آدابه أو بعض آدابه وأظن الخطأ في استعمال كلمة « الخروج » لغة كما لا يخفى على الاستاذ واصطلاحا فقهيا ايضا • اما ان يكون الرجل مسلما بالاسم وغير مسلم بالفعل فأحكام نرجو أن يتركها المؤلف في المستقبل للراهب لامنس أو يتركها تؤثر عن الراهب شيخو أو اضرابهما •

غير انني لا أريد أن أمحو أهمية هذا الفصل بالملاحظة الاخيرة فأقول ان مواد هذا الفصل هي الصورة الحقيقية الواضحة للحياة في عهد عمر ابن ابي ربيعة وهي ألذ ما تطالعه في هذا الكتاب بشغف لما فيها من الجدة والاستهواء والعذوبة •

الحياة الدينية والعلمية والحياة الادبية (ص ١٢٨ ـ ١٩٤) :

وهذان الفصلان تتمة للحياة في القرن الاول فالمطالع يشعر في أثناء تلاوتهما أنهما قليلا التماس بديوان عمر حتى ان ثاني الفصلين أجدر بأن يكون مقدمة للهجاء السياسي بين جرير والفرزدق خاصة ، الا ان هذا الفصل نفسه يستعيد شيئا من اتصاله بديوان عمر ابن ابي ربيعة حينما يتكلم المؤلف عن انتشار المجالس الادبية وتأثر الناس بها حتى في المساجد وبين النساء •••

قيمة هذا الجزء :

ان هذا الجزء قد جمع صور الحياة العربية الاسلامية

للقرن الهجري الاول من مصادرها المختلفة في كتاب واحد منسق مبوب ، في تبويبه كثير من الاخلاص والجهود ، وفي تأويل بعض مواده شيء من العثار • ولا شك في ان الاستاذ جبرائيل جبور قد دلنا على ميزات كبيرة للقرن الاول الهجري لم نكن نعتقد من قبل انها ميزاته فحبذا لو تطلع علينا الجامعة الاميركية بكثير من هذه المنشورات التي بلغت حتى الآن فيما أعلم أقل من عشرة ، وحبذا لو يأخذ القراء والباحثون بأمثال هذه الكتب القيمة فقد شبعنا عواطف وأصبحنا بحاجة الى تفكير •

عصر عمر ابن أبي ربيعة
وكيف يجب أن نفهم التاريخ

رد على نقد
٢٧ تموز ١٩٣٥

طالعت بلذة وامعان مقالا رائعا للصديق الاستاذ عمر فروخ في جريدة صوت الاحرار الغراء في نقد كتابي « عصر ابن ابي ربيعة » وأرى من واجبي قبل كل شيء أن أشكر لحضرة الصديق ثناءه علي وعلى كتابي وعناءه في مطالعة هذا الكتاب ودرسه في الوقت الذي يعد فيه نفسه للسفر الى المانيا لمتابعة دروسه وفقه الله سواء السبيل ·

غير اني أنكرت على صديقي الاستاذ أمورا لا أرى بدا من توجيه نظره اليها فهي من الخطورة بحيث تعد أساسا لفهم التاريخ · فلقد ذكر في تحليله للفصل عن الحياة الاجتماعية في عصر ابن ابي ربيعة ان هذا الفصل يبلغ ذروته عند الكلام على الغناء والشراب بحيث يكاد يقتنع القارىء بأن الحجاز لم يختلف في هاتين الناحيتين في القرن الاول عن بغداد في القرن

الثاني ثم أشار الى اني قلت ان الشباب وقف بين آمرين : بين التمسك بالدين وفرائضه وبين الاخذ باللهو واني أظهـرت مدى انتشار الشراب وقوة أخـذ الشباب باللهو وذكـرت ان الدولة مسلمة والحياة في كثير من اقسامها خروج عن مبادىء الاسلام ، الى آخر ما اقتبسه من كلامي في هذا الموضوع ، وهنا قـال :

« لا شك ان هذا الحكم « لامنسي » وهو فوق ذلك خاطىء فالخمر لا تخرج المسلم من الاسلام وكذلك اللهو مهما عظـم واذا كان فقهاء المسلمين لم يستطيعوا أن يكفروا فردا مع كل ما يكون في ظاهر أعماله من مخالفة لاركان الدين فهل يستطيع الاستاذ جبور ان يخرج شباب الحجاز من الاسلام لمخالفتهم آدابه أو بعض آدابه ٠ » راجع مقالة الاستاذ فروخ في عدد السبت ١٣ تموز سنة ١٩٣٥ ٠

ولعل الاستاذ فروخ لا ينكر ان هناك فرقا بين الخروج عن مبادىء الاسلام ، والخروج من الاسلام لا سيمـا وقـد استعملت هذا التعبير كما ظن بمعناه الاساسي لا الفرعي ٠ ثم ألا يحسبن حضرة الصديـق ان الـذي يحد في السكر مـرارا ولا ينتهي قد خرج عن مبادىء الاسلام وفي القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ٠ ثم مـا رأيه في هذه الامور المنكرة التي كان يرتكبها بعض شبـاب العرب المسلمين كالاحوص والعرجي وخالد القسري والاقيشر وغيرهم من فسق وزنى وخلاعة ومجون وادمان للخمر ٠ أليس

فيها خروج عن مبادىء الاسلام ؟ وما قوله في هذا الشعر للاقيشر :

ان كانت الخمر قد عزت وقد منعت
وحال من دونها الاسلام والحرج
فقد اباكرها صرفا وأشربها
اشفي بها علتي صرفا وامتزج

راجع الاغاني ج ١٠ ص ٩٥ ، وهل يعتقد حضرة الصديق ان خلفاء بني امية تقيدوا كلهم بشرائع الاسلام وفروضه ، أليس في سلوك يزيد ابن معاوية ويزيد ابن عبد الملك والوليد ابن يزيد ابن عبد الملك ــ مهما قيل فيه ــ أليس في هذا السلوك خروج عن مبادىء الاسلام ؟ واني التمس اليه أن يعيد قراءة باب الحياة الاجتماعية وبنوع خاص من ص ٧٨ ــ ٨٢ فيرى ان هذا اللهو لم يكن من السهولة بحيث يبيحه الدين أو لا يرى فيه أولياؤه بأسا حتى زعم بعض الرواة ان احد الولاة حاول تطهير المدينة من الغناء والزنى • وأريده أن يقرأ خطبة زياد في البصرة المشهورة بالبتراء (العقد ٢ : ١٨٣) فيرى اثر انتشار الفسق فيها ، ورسالة الامام عمر ابن عبد العزيز في أمر الخمرة الى أهل الامصار (العقد ٣ : ٤١١) فيرى كيف كانت تقود الناس هذه الخمرة الى الفسق والفجور وانتهاك الاعراض •

لو سلمنا جدلا مع الصديق الاستاذ ان الخروج على مبادىء الاسلام انما يعني الكفر أو الزندقة فهل ينكر علينا ان من حقنا أن نصدر أحكاما عن مرتكبي هذه الآثام دون أن

نتصدى لادانتهم ثم ألا يرى حضرة الصديق انه يجب أن يكون هناك فرق بين الاحكام التي كان يصدرها الفقهاء وبين الاحكام التي نستطيع أن نصدرها نحن كباحثين ؟ فالرواة والمؤرخون اتهموا المغيرة ابن شعبة بالزنى في حادثته المشهورة ولكن الامام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لم يحده حد الزنى ولم يدنه لأن شهودا اربعة لم يتفقوا في شهادتهم عليه وقد كان الفقهاء أنفسهم ورؤساء الفرق الدينية المختلفة يختلفون في نظرهم الى هذه الآثام واحكامهم على مرتكبيها فمنهم من كفَّر مرتكب الكبيرة ومنهم من أبى ذاك · ولكن أحدا من الباحثين لا ينكر ان حمادا الراوية وحماد عجرد ومطيع ابن اياس وبشار ابن برد قد اتهموا في دينهم ورموا بالزندقة وهؤلاء كلهم قد نشأوا في آخر عصر بني امية ولكنهم لم يشتهروا فيه شهرتهم في ايام بني العباس ·

وليذكر حضرة الصديق اني قلت خارجين بالفعل لا بالاسم أي انهم لم يصرحوا علنا بخروجهم حتى يرموا بالزندقة كما صرح حماد عجرد أو بشار أو مطيع ابن اياس وغيرهم · ومن هنا اختلف الفقهاء في أحكامهم على أمثال هؤلاء الشبان الفاسقين من رجال العصر الاموي · ومع ذاك فقد نسب حماد عجرد الى الزندقة ورمي بالخروج عن الاسلام (وأنا أنقل هذه العبارة الاخيرة عن مصدرها بالحرف) لابيات لا تختلف في مضمونها كثيرا عما صرح به بعض هؤلاء · راجع الاغاني ج ١٣ : ٧٩ ·

واذا شاء حضرة الصديق أن أدله على ما هو أشد من هذا

فليس عليه الا أن يفتح الاغاني ج ١٣ : ١١٢ فيرى ما نصه بالحرف : « ان ربيعة ابن امية ابن خلف كان قد ادمن الشراب وشرب في شهر رمضان فضربه عمر رضي الله عنه وغرّبه الى ذي المروة فلم يزل بها حتى توفي واستخلف عثمان فقيل له فلو دخلت المدينة ما ردك أحد ، قال : لا والله لا ادخل المدينة فتقول قريش قد غرّبه رجل من بني عدي ابن كعب • فلحق بالروم وتنصر فكان قيصر يحبوه ويكرمه فاعقب بها » • هذا وربيعة قريب عهد بعمر وعثمان فما رأيك لو كان معاصرا ليزيد ابن عبد الملك والوليد ابنه • وقد روى الرواة ايضا ان الوابصي المخزومي تنصر ولحق ببلاد الروم لان عمر ابن عبد العزيز حده في الخمر وهو أمير الحجاز فغضب فلحق ببلاد الروم وتنصر هناك ومات نصرانيا (الاغاني ج ٥ : ١٨٤) •

وأخشى أن يكون الصديق من هؤلاء الذين يحاولون تمجيد السلف من رجالنا وتنزيههم عن كل اثم لا لشيء الا لانهم كانوا قدماء قريبي عهد بظهور الاسلام ودهشة النبوة • فليسمح لي أن أهمس بأذنه ان هذا اشفاق في غير محله فلا يضير الاسلام أي منكر ارتكبه نفر من تابعيه كما انه لا يضير النصرانية هذه الآثام التي يرتكبها أتباعها في كل مكان فقد أساء لويس الرابع عشر الى نفسه لا الى النصرانية كما أساء الوليد ابن يزيد الى نفسه لا الى الاسلام • ولعل الاستاذ عمر لا يجهل ان هذه الدولة التي عقبت دولة الخلفاء الراشدين لم تتقيد بنظم الاسلام ومبادئه تقيد تلك فقد كانت ملكا سياسيا دنيويا أكثر منها دينيا •

. ولقد ذكرني موقف الصديق هذا بموقف جماعة من الرواة في تاريخ آدابنا كانوا يشفقون على أن يموت بطل اخبارهم في فسقه وآثامه دون أن يتوب الى ربه فيرضى عنه ، فلقد جعلوا الفرزدق يتوب عن فسقه قبل موته ، وذكروا ان الدارمي تنسك وترك الشعر وحياة اللهو ، وزعموا ان أبا محجن تاب آخر حياته عن الشراب ، ورووا ان محمد ابن حزم شرب ونسك ، وقالوا كان آدم ابن عبد العزيز ماجنا ونسك ، ونشروا حول سرير إبي نؤاس ــ ابي نؤاس لا غيره ــ أبياتا في التوبة . أما ابن ابي ربيعة صاحبنا فقد أضافوا الى عمره سنوات حتى يصير ثمانين ثم زعموا انه فتك اربعين ، ونسك اربعين ، وفاز بالدنيا والآخرة .

وذكرني هذا كله برسالة موضوعها « كيف يجب أن نفهم التاريخ » نشرها الدكتور طه حسين في السياسة ثم في كتابه حديث الاربعاء يرد على رفيق بك عظم الذي نعى عليه ما نعاه عليّ الاستاذ فروخ . أود لو يعيد الاستاذ قراءتها وأود لو استطاعت « صوت الاحرار » نشرها ونشر رسالة رفيق بك العظم فان فيها فائدة من الخير ان لا تفوت بعض الناس .

ولست بمنكر ما في مقال الاستاذ من نظرات صائبة ، ولست بجاحد فضل الصديق في تحليله الرائع لكتابي وثنائه عليه . غير أني كنت أود أن لا يكدر هذا الثناء بالطعن في بعضهم ــ عرضا ــ بصورة لا تجيزها الطرق العلمية الحديثة ، قال : « ومع كل هذا فقد سرد الاستاذ جبور صور الحياة في القرن الهجري الاول سردا محكما جامعا هو الاول من نوعه في

اللغة العربية وفي غير اللغة العربية ــ لانني قليل الثقة باخلاص الاب لامنس ــ » اهـ

وأظن الصديق يسلم معي أن هنالك طريقا افضل من هذه لرد اقوال لامنس وهي الطريق نفسها التي سلكها في مراجعته كثيرا من الكتب الحديثة فليأخذ كتب لامنس واحدا واحدا ثم فليدرسها ويحللها وينشر رأيه فيها للناس ٠

وأرجو أن يسمح لي في الختام أن أشكر له هذه الفرصة التي يسر لي فيها التحدث اليه والى قراء « صوت الاحرار » الكرام ، واني أمد يدي مصافحا اياه قبل سفره الى المانيـا متمنيا له أحسن ما يتمنى الصديق المخلص لصديقه ٠

غزل عمر ابن أبي ربيعة
الوجه الإيجابي

اقامت الجمعية العربيـــة في كلية المقاصـــد الاسلامية ببيروت مســـاء الخميس في ٢١ آذار ١٩٤٠ مناظرة موضوعها « هل غزل عمر ابن ابي ربيعة فن جديد لا صلة له بالغـــزل الجاهلي ، وقد تولى الدفاع عـــن الوجه الايجابـــي : اي انه جديد لا صلة له بالغزل الجاهلي ، الاستاذ عمر الدسوقي احد اساتذة الادب في كلية المقاصد الاسلامية وعن الوجه السلبي : أي ان هـــذا الغزل ليس بجديد ولـــه صلة بالجاهلية الاستاذ جبرائيل جبور احـــد اساتذة الادب العربي في الجامعة الاميركية .

مجلة الامالي

للاستاذ عمر الدسوقي
وكيل الادارة وأحد أساتذة الادب
العربي في كلية المقاصد الاسلامية

سادتـي :

ان هناك ظاهرة يجب ان تسترعي نظر الباحث المدقق في تاريخ الادب العربي ونقده ، هذه الظاهرة هي ان الحجاز كان في العصر الجاهلي خلوا من الشعراء الغزليين . بل أستطيع ان اقول انه كان خلوا من الشعراء المجيدين في الانواع الاخرى من الشعر . ثم اذا بنا نراه في صدر الدولة الاموية يـدوي بنغمات الحب من كل نوع ، ويظهر في وديانه ومدنه شعـراء غزليون من الطراز الاول . ولقد كان العرب يقرون لقريش بالفضل في كل شيء الا في الشعر حتى أتى عمر ابن ابي ربيعة موضوع مناظرتنا الليلة فأقروا لها به .

ان ظهور الغزل فجأة بالحجاز يدعونا الى التساؤل عـن نشأته وعن نوعه ، وهل هو فن جديد أم تقليـد للشعـراء الجاهليين ؟

واسمحوا لي أيها السادة ان احدثكم لِمَ ظهر الغزل فـي الحجاز ابان العهـد الاول من دولة بني أمية ؟ ولم ظهر في الحجاز وحده دون بقية الاقطار العربية الاخرى ؟ أليس عجيبا الا يزال الاسلام في عنفوانه ويظهر عمر ابن ابي ربيعة يحمل راية الغزل الاباحي في مدينة الرسول أولا ثم بجوار بيته الحـرام ثانيا ، ويروي قصص غرامه ومغامرات حبـه على ملأ ومسمع من مشيخة قريش وكبار الصحابة التابعين ؟؟

ان ظهور هذا الغزل كان نتيجة سياسة بني امية التـي منعت شباب قريش من الاشتغال بالسياسة ووضعت أمامهـم العقبات حتى لا ينساحوا في البلاد ويلتف حـولهم الثائـرون

والناقمون على الحكم الاموي ، واغدقت عليهم الاموال مضافا اليها ما ورثوه عن آبائهم من الاموال الطائلة التي غنموها حينما كان الفتح الاسلامي في عنفوانه فوجد هؤلاء الشبان أنفسهم ولا عمل يشغلهم ، والمال ملء بيوتهم ، في حاجة الى تأليف مجتمع جديد وقد ساعدهم عليه ما وفد على الحجاز من سبايا وأرقاء ، وبعض النساء كن من بنات الملوك وممن ألفن الترف والدعة ، وساعدهم ايضا ما رأوه عند الامم المغزوة أو بالاحرى ما رآه آباؤهم من حضارة ونعيم • فاستسلموا للهو والترف وتفننوا فيهما ما شاء لهم المال أن يتفننوا فكانوا يشتون بمكة ويقضون الصيف بالطائف •

تشتو بمكة نعمة ... ومصيفها بالطائف
أحبب بتلك مواقفا ... وبزينب من واقف
وغريرة لم يغدها ... بؤس وجفوة خائف
غراء يحكيها الغزال (م) ... بمقلة وسوالف

وصاروا كما قال عمر عن نفسه :

من المسبغين رقاق البرو ... د أكسو النعال فضول الازر

وأخبار الثروات التي خلفها القرشيون لاولادهم وأحفادهم تغص بها كتب الادب والتاريخ ، ولولا خشية الاطالة لذكرت لكم طرفا منها •

جلب القيان معهن فيما جلبن من اسباب الحضارة الغناء • ويقول لنا الاستاذ جبور مناظري الكريم في كتابه عن عمر ابن ابي ربيعة ص ٤٤ ج (١) : « اذ يكاد لا يختلف المؤرخون الآن في أن هذا الغناء الذي عرفه العصر الاموي كان غير غناء الجاهلية » •

ويظهر أن مؤرخي الادب قديما قد ادركوا اختلاف هذا الغناء عن ذلك النوع الذي كان يتغنى به العرب في الجاهلية فروى لنا أبو الفرج الاصبهاني : « ان اول من غنى هذا الغناء العربي بمكة ، ابن مسجح مولى بني مخزوم ، وذلك انه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام فسمع غناءهم بالفارسية فقلبه في شعر عربي ، وهو الذي علم ابن سريج والغريض · ويروي لنا ابو الفرج ايضا ان اول من عمل العود بالمدينة وغنى به سائب خاثر وأصله من فيء كسرى وقد ذكر ابن رشيق شيئا عن انواع الغناء عند العرب فوصف الاوجه التي كان عليها قبل الاسلام من حداء وغيره ثم قال اسحق يعني اسحق الموصلي : هذا كان غناء العرب حتى جاءهم الله بالاسلام وفتحت العراق وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم ، فغنوا الغناء المجزأ المؤلف ، بالفارسية والرومية ، وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير » ·

كان من الطبيعي أيها السادة أن يستغل شباب قريش وحالهم ما ذكرناه آنفا ، وجود مواليهم واتقانهم هذا النوع من الغناء فعقدوا له المجالس والمجتمعات وملك على قلوبهم وعقولهم وشغلوا به · وأخذوا يدربون الرقيق على الغناء وأصبح فنا له أساتذته وأصوله · وكان المغنون كما يقول لنا الاستاذ جبور مناظري الكريم ص ٥٤ ج (١) يدركون قيمة الشعر الجميل فيلحون على الشعراء في أن ينظموا لهم الاشعار ، وكان لعمر مغنيان مخلصان له يتبعانه ويترنمان بشعره فلا تكاد تقع له حادثة حب أو واقعة غرام حتى ينظم فيها الشعر وما يكاد يفرغ من نظم هذه الاشعار حتى يلتقطها

صاحباه وهما ابن سريح والغريض ويضعـا عليهـا الالحـان ويذيعاها في الناس · ولقد قال لنا ابن عبد ربه : انه كان يقال قديما اذا قسا عليك قلب القرشي فغنه بشعر عمر ابن ابي ربيعة وغناء ابن سريج فانك ترقصه ترقيصا · وهكذا ايها السادة يعترف لنا مناظري الكريم في كتابه ص ٥٥ ج (١) بأن عمر ابن ابي ربيعة ورفاقه من شعراء الغزل كانوا من أهم العوامل التي ساعدت على تشجيع الغناء وتغذيته بالمنظومات الخاصة كما كان الغناء بدوره عاملا على تنمية هذا الفن الجديد من الشعر » ·

ويعترف لنا الاستاذ جبور ايضا بما نصه في ص ١٩١ من الجزء الاول : « وكان من الطبيعي أن ينتج عن هذا شعـر عربي فني يمثل من ناحية حوادث خاصة وقعت لبعض هؤلاء الشعراء فنظموا فيها شعرهم ويمثل من ناحية اخرى غـرض أصحابه في انه قد وضع للغناء والفن ليس الا » ·

ولست أدري أعدل الاستاذ جبور عن رأيه هذا ورأى أن عمر ابن ابي ربيعة لم يأت بجديد وان غزله وشعره ما هو الا صدى لشعر امرىء القيس وطرفة على الرغم من هذه الثورة الفكرية التي أتى بهـا الاسلام ومن هـذا الاختلاط والاقتباس الذي قام به العرب حين الفتح من حضارة الفرس والروم ، وعلى الرغم من هذه العوامل السياسية والاقتصادية التي أثرت في الحجاز ، وعلى الرغم من هذا الغناء الذي جلبه الموالي من الفرس الى مكة والمدينة وقد كان فيهما أيها السادة من هؤلاء المغنين والمغنيات عدد كبير وحسبي أن أذكر بعضهم كسائـب

خاثر ، ونشيط ، وعزة الميلاء ، وجميلة ، وطويس ، والدلال ، وبرد الفؤاد ، ونؤوم الضحى ، وفند ، ورحمة ، وهبة الله ، ومعبد ، وابن سريج والغريض ، وابن عائشة وبديح ، وعقيلة ·

لا أظن ، سادتي ، ان مناظري الكريم قد عدل عن هذا الرأي فهو الصواب الذي لا شك فيه فغزل عمر أيها السادة جديد في مادته جديد في غرضه ، جديد في خصائصه لا صلة بينه وبين الغزل الجاهلي وأعني شعره الغنائي اللهم الا اذا قلنا صلة الكلمات العربية والحروف الهجائية ·

ان الموسيقى الجديدة أيها السادة اقتضت شعرا جديدا فما الجدة في شعر عمر وهل هناك من صلة بينه وبين الغزل الجاهلي ؟

١) ان الجديد في شعر عمر هو قطعه الغنائية :

تقول وعينها تذري دموعا لها نسق على الخدين تجري
ألست أقر من يمشي لعيني وانت الهم في الدنيا وذكري

ويقول ايضا :

تصابى القلب وادكرا صباه ولم يكن ظهرا
لزينب اذ تجد لنا شفاء لم يكن كدرا
أليست بالتي قالت لمولاة لها ظهرا
أشيري بالسلام له اذا هو نحونا خطرا
لقد أرسلت جاريتي وقلت لها : خذي حذرا
وقولي في ملاطفة لزينب نولي عمرا

فهـزت رأسهـــا عجبـا وقالــت : مــن بـذا أمــرا
أهــذا سحــرك النســوا ن قـــد خبرنني الخبرا

ولقد روى أبو الفرجان الفرزدق قال لما سمع شعر عمر ابن ابي ربيعة : هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه . وقال هشام ابن عروة لا ترووا فتياتكم شعر عمر ابن ابي ربيعة لا يتورطن في الفحشاء تورطا .

لشعر عمر ايها السادة خصائص تميزه عن الشعر الجاهلي فمن ذلك تغزله بنفسه واعجابه بها :

فعرفــن الشـــوق في مقلتهـــا وحبــاب الشوق يبديــه النظر
قلــن يسترضينهـــا منيثنــا لو أتانــا اليــوم في سر عمــر
بينما يذكرننـــي ابصرننـــي دون قيد الميل يعدو بي الاغر
قالت الكبرى امــا تعرفن ذا قالت الوسطى بلى هــذا عمر
قالت الصغرى وقــد تيمتهــا قد عرفناه وهل يخفى القمــر

ويقول ايضا :

وانها حلفــت بالله جاهــدة وما أهل له الحجاج واعتمروا
ما وافق النفس من شيء تسر به واعجب العين الا فوقــه عمــر

ويقول ايضا مدعيا ان النساء يخرجن للحج من أجلــه ، وكان الحج من المواسم الاجتماعية العظيمة التي تغذي خيــال عمر ويتصيد فيه ربات الحجال :

أومــت بعينيها من الهـــودج لولاك هــذا العام لم أحجــج
أنــت الى مكــة أخرجتنـــي ولو تركــت الحج لم أخــرج

وانتقده المفضل بن سلمة قائلا ان شعره ليس على نمط الشعراء فما شكا قط من حبيب هجره ولا تألم لصد وأكثر أوصافه لنفسه ٠

٢) اكثاره من كنيته وذكر اسمه :

ولم يكن هذا من خصائص الشعر العربي الجاهلي ولكنه على ما نعلم من خصائص الشعر الفارسي الذي قد يكون قد آتى من بلاد الفرس مباشرة وعرفه العرب أو نقله الموالي لهم أو يكون قد أتى من بلاد اليمن وكان الفرس قد غزوها وأقاموا بها وتعربوا قبيل الاسلام وهم الملقبون بالابناء ، ويوافقنا على هذا الرأي استاذان جليلان هما Schwartz شارح ديوان عمر و Febraman الاديب الروسي في مؤلف عن الغزل عند العرب٠ وان كان الدكتور طه حسين ينكر صلة اليمن بهذا الموضوع ويشك في وجود الوضاح اليماني وشعره ، وعندي ان الوضاح صحيح وكان موجودا ولا شك ٠ ان قصته مع أم البنين ان لم تكن صحيحة كلها فهناك أصل لها لأن الحجة التي أدلى بها الدكتور طه حسين واهية ، وهي اختراع اليمنيين لاسمه ونسبة الشعر اليه حتى يفاخروا به شعراء مضر ، مع العلم ان اليمنيين ليسوا بحاجة الى هذا الاختراع فقبيلة عذرة التي منها جميل كانت يمنية ، وهاكم مثلا على استعماله الكنية :

قالتلجارتها انظريها مناولى وتأملي من راكب الادماء
قالت ابو الخطاب اعرف زيه وركوبه لا شك غير مراء

٣) الوحدة في بناء قصيدته :

ولم يكن الشعر الجاهلي يعرف ذلك فكانت القصيدة مكونة من عدة أجزاء كل جزء يتضمن غرضا شعريا فكـان الشعـراء الجاهليون وتبعهم كبار الشعراء في العصر الاموي يبـدأون قصائدهم بالوقوف على الاطلال والدمن ، ثم التأسـف علـى الاحباء الذين فارقوا هذه الديار وخلوها يبابا بلقعا ومن ثـم يصفون الصحراء وما تعانيه الناقة في سفرها ، وأحيانا يصفون الناقة ، أو مظاهر الطبيعة من مطر ، ومنظر صيد الخ ، ثـم يذكرون الغرض من القصيدة اما حكمة أو مديحا • أما شاعرنا عمر ايها السادة فجعل من الغزل غرضا شعريا مستقلا بذاتـه لا يخلطه بمدح أو حكمة أو وصف •

وقال لنا قصائد طويلة كلها في غرض واحد يأخذ البيـت منها بعجز الذي قبله كقصيدته الرائية :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أو رائح فمهجر

وكثير من مقطوعاته الغزلية • ولقـد كان النقاد في العصر العباسي حريصين على ألا يخرج الشعراء على عمود الشعـر وهو نظام القصيدة ، حتى ثار أبو نواس عليهم في خمرياتـه وتبعه غيره • ولقد قال بعضهم ان ابن الرومي جاوز عمـود الشعر وأتى بقصائد لها غرض مستقل ، وعدوا ذلك ناجما عن عقليته اليونانيـة • لأن البيت عنـد الجاهليين كـان وحـدة القصيدة •

٤) ان شعر عمر ابن ابي ربيعة كان موجها للمرأة بقصد استجلاب عطفها ورضاها وحبها اما الغزل الجاهلي والاحرى ان

نسميه نسيبا فلم يكن يقصد به اظهار عاطفة لامرأة حتى ترضى بحبه بل هو ذكريات الاطلال والدمن تثيرها في نفس الشاعر . ولذلك لا نسمع للوشاة ذكرا ولا نرى الشاعر يوجه الكلام الى محبوبته بل يتكلم بصيغة الغائب الا القليل . اما عمر فاسمعه يذكر الوشاة ويتعرض لهم وينعي عليهم :

لا تطع بي فدتك نفس عدوا　لحديث على هـوَاه افتراه
لا تطع بي من لو يراني وايا　ك اسيري ضرورة ما عناه
ما ضراري نفسي بهجري من　ليس مسيئا ولا بعيدا تراه

ويتكلم بضمير المخاطب لا بضمير الغائب فيقول :

وارى جمالك فوق كل جميلة　وجمال وجهك يخطف الابصارا
اني رأيتك غادة خمصانة　ريا الروادف عذبة مبشارا

فهذا كلام يطري به عمر المرأة ويثني على جمالها ويتحدث اليها حتي يسحرها ويخلب لبها فتلين قناتها وتبادله حبا بحب وعطفا بعطف والغواني يغرهن الثناء . ولذلك عرف لسان العرب الغزل بأنه التحدث الى النساء واللهو معهن . والنسيب بأنه رقيق الشعر في النساء . والتشبيب ترقيق الشعر بذكر النساء .

فغزل عمر أيها السادة لم يكن كنسيب الجاهليين الذي يذكر لترقيق الشعر فحسب مجردا عن العاطفة غالبا .

ثم ان نسيب الجاهليين كان عادة في امرأة متزوجة كأم الحويرث وجارتها أم الرباب الخ .

كان الجاهليون أيها السادة يصفون المرأة كأنها جمل أو ناقة صفات جسمية كأنها سلعة تباع وتشترى اما هو فاسمعوه يقول :

اذل لكم يا عبد فيما هويتم وانياذا ما رامنيغيركم صعب
واعذر نفسي فيالهوى فتعقني ويأصرني قلب بكم كلف صب
وفي الصبر عمن لا يواتيه راحة ولكنه لا صبر عندي ولا حب

ويقول في هند :

ولقد قلت اذ تطاول هجري رب لا صبر لي على هجر هند
رب قد شفني وأوهن عظمي وبراني وزادني فوق جهد

فأين هذا من شعر الأعشى :

غراء فرعاء مصقول عوارضها
تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوجل
كأن مشيتها من بيت جارتها
مر الغمامة لا ريث ولا عجل

فالأعشى يصف مشيتها كما يصف مشية الناقة · أما عمر فيجد في المرأة أمورا أخرى غير جمال وجهها وسواد شعرها واستواء قوامها وحسن ثغرها · بل يرى في حديثها متعة ونوعا من الجمال يفتتن به وفي شمائلها وصفاتها ما يسحر لبه :

حرةالوجه والشمائل والجوهر (م)تكليمها لمن نال غنم
وحديث بمثله تنزل العصم رخيم يشوب ذلك حلم
هكذا وصف ما بدا لي منها ليس لي بالذي تغيب علم

فهل هذا الطراز من الشعر له صلة بوصف النابغة للمتجردة :

قامت تراءى بين سجفي كلة كالشمس يوم طلوعها بالاسعد
أو درة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد
او دمية من مرمر مرفوعه بنيت بآجر يشاد وقرمد

والبيت الاخير يذكرنا بوصف طرفة للناقة وانها كقنطرة الرومي بنيت بآجر وقرمد ·

ثم انه كان عالما بطباع المرأة دارسا لها تمام الدراسة ، ولا عجب فقد عملها شغله الشاغل ، ولذا كان يتخذ الرسل الموفقات الخبيرات بمزاج النساء :

وأتتها طبة عالمة تمزج الجد مرارا باللعب
تغلظ القول اذا لانت لها وتراخى عند سورات الغضب

٥) أسلوبه القصصي :

ورب معترض يقول : لقد أتى امرؤ القيس بقال وقلت ، أوليس ذلك ما تعنون بالاسلوب القصصي ؟ هيهات ، فهنا شيء آخر يختلف في اسلوبه ومعناه ومبناه · هنا حوار يجري بين عمر ومحبوبته ، وبين النساء بعضهن وبعض ، مطول مفصل حتى يكاد يكون شعرا تمثيليا أو رواية محبكة الاطراف وخير مثال لذلك قصيدته الرائية ، ولكن ساختار غيرها مثلا على ما سقته لأنه لم يذكر قبل في الشعر الجاهلي وهو الحوار بين النساء وذكر حديثهن وأسلوبهن الخطابي واظهار عواطفهن نحوه :

قالت على رقبة يوما لجارتها ... ما تأمرين ؟ فان القلب قد تبلا
وهل لي اليوم من أخت مواسية ... منكن أشكو اليها بعض ما عملا
فراجعتها حصان غير فاحشة ... برجع قول ولب لم يكن خطلا
لا تذكري حبه حتى اراجعه ... اني سأكفيكه ان لم أمت عجلا
فاقني حياءك في ستر وفي كرم ... فلست أول أنثى علقت رجلا
فاستعبرت ثم قالت للتي معها ... بالله لوميه في بعض الذي فعلا
وحدثيه بما حدثت واستمعي ... ماذا يقول ولا تعني به جدلا

وحاشا مناظري الكريم أن يعد ذلك تقليدا لامرىء القيس أو لغيره فان المرأة في الجاهلية لم تكن لتظهر عواطفها بهذا الشكل وما قصة امرىء القيس الا عبث فاسق ماجن لا محب مدله · ولقد كان عمر أيها السادة محبا مدلها على الرغم مما يقال : انه كان زير نساء وانه لم يعرف الحب · وليس المجال مجال البحث عن حبه بل مجال البحث عن شعره ونواحيه الجديدة ·

ومن النواحي الجديدة في شعره ايضا تلك البحور القصيرة التي لم تكن معروفة في الجاهلية حتى توافق الموسيقى الحديثة وهي ولا شك مؤلفة من البحور القديمة وفيها من الخبن والزحاف والعلل الشيء الكثير :

هاج فؤادي موقف ... ذكرني ما اعرف
ممشاي ذات ليلة ... والشوق مما يشغف
قلت لها من انتم ... لعل دارا تسعف

ومن ذلك قوله :

قلت بالخيف مرة لجوار نواعم
قلن بالله للتي سمعت قول ظالم
اقبلي العذر من فتى صادق غير آثم
لم يخنك الوداد لا لا ورب المواسم
اتقي الله في فتى ماجد غير آثم

ومن ذلك قوله :

الا حي التي قامت على خوف تحيينا
وقد قالت لتربيها ورجع القول يعنينا
الا يا ليت ما شعري وما قد كان يمنينا
اموف بالذي قال وما قد كان يعطينا

ولقد ذكر صاحب الاغاني أخبار عمر وشعر عمر الذي غني به وهو كثير وهو كما ذكرنا في أول الكلام شعر خلقه ذلك الجو الجديد من الموسيقى والحياة الاقتصادية له خصائصه التي تختلف تمام الاختلاف عن الشعر الجاهلي من حيث الروح والغرض والمعنى والمبنى والوزن فكان شعرا جديدا بكل ما في الكلمة من معنى ولولا هذه الجدة في شعر عمر ما لقب بزعيم الغزليين الاباحيين وصاحب مدرسة خاصة كان من المتخرجين منها العرجي والاحوص وأضرابهما .

ان فتى قريش قد ثار على القديم فلم يبال به . نعم انه قد وقف على الربوع لا على الاطلال بعد ما سافر الحجاج في بعض قصائده ، وقد وصف الناقة أحيانا . ولكن هذا النوع

من شعره أيها السادة لا أعـد جديدا وانما أعد الجديد مـن شعره وبه اشتهر وعرف لأنه كان يعبر عن عصره تمام التعبير ويصف الحياة الاجتماعية وصفا متقنا ومـا عليـه المرأة • ولا عجب فكل ما مر على الجزيرة العربية منذ مجيء الاسـلام حتى عصر عمر جدير أن يخلق فنا جديدا من الشعر هو مـا رأيتم نواحي جدته • وهو الذي جعل بنات الاشراف ينشـدن وده :

عشية قالـت والدموع بعينها هنيئا لقلب عنك لم يسله مسل
لئن كان في اقراضك الود غيرنا وفعلك ناه لو ان معـي عقلي

والآن أيها السادة أختم كلمتي بهذه الأبيات الرقيقة التي تمثل لنا روحه الخفيفة وفنه الجديد :

مـر بـي سرب ظبـاء	رائحـات مـن قبـاء
زمـرا نحـو المصلى	مسرعـات فـي خلاء
فتعرضـت والقيـت	جـلابيـب الحيـاء
وقـديمـا كـان عهدي	وفتونـي بـالنسـاء

غزل عمر ابن أبي ربيعة
الوجه السلبي

لقد أنشدكم زميلي الكريم مقطوعات من الشعر الجاهلي وزعم أن عمر لم يعرف مثل هذا الشعر الذي يصف جسم المرأة فاذا كان عمر لم يصف جسم المرأة فمن الشاعر الذي يجرؤ بعد عمر أن يدعي هذا : اسمعوا قول عمر ، وقابلوه بما سمعتم من شعر الجاهليين :

قف بالديار عفا من أهلها الاثر
عفى معالمها الارواح والمطر
بالعرصتين فمجرى السيل بينهما
الى القرين الى ما دونه البسر
تبدو لعينيك منها كلما نظرت
معاهد الحي دوداة ومحتضر
وركد حول كاب قد عكفن به
وزينة ماثل منه ومنعفر

منـــازل الحــي اقوت بعــد ساكنهــا
امســت تــرود بهــا الغزلان والبقــر
وقفـــت فيهـــا طويــلا كي اسائلها
والدار ليس بهـــا علـــم ولا خبـــر
دار التـــي قادنـــي حـــين لرؤيتهــا
وقــد يقــود الى الحــين الفتى القــدر
خــود تضيء ظــلام البيت صورتها
كمــا يضيء ظــلام الحندس القمــر
مجدولـــة الخلــق لم توضع مناكبها
ملء العنــاق ألــوف جيبهــا عطـــر
ممكــورة الســـاق مقصوم خلاخلهــا
فمشبـــع نشـــب منهـــا ومنكســر
هيفـــاء لفـــاء مصقــول عوارضهـــا
تكاد مــن ثقــل الارداف تنبتــر (١)

الحق أن الخلاف بيني وبين زميلي الكريم أكثر خطورة يظهر لاول وهلة فهو يتناول مسألة أساسية في فهم التاريخ ـ من جلائها قبل الخوض في هـذا البحث • ويظهر لي ان ي يدين بمبدأ يذهب الى نفي كل صلة بين عصر وعصر او شاعر وشاعر ويؤمن بأن مشاهير الناس انما ذاعت شهرتهم أساس ابداع ابتدعوه أو خلق شيء لم يسبقوا اليــه • ء من هذا قد وقع لجماعة من مؤرخي الادب في تصانيفهم

ديوان عمر طبعة مصر ص ٢٠٣ — ٢٠٤ •

فميزوا العصور بمميزات خاصة وجعلوا بينها حدودا فاصلة وصنفوا الشعراء وجعلوهم طبقات مختلفة ثم عرضوا لرجال كل طبقة فوسموا كلا منهم بميسم خاص وعينوا له بابة خاصة فهذا عصر الجاهلية وذلك عصر الراشدين وهذا عصر بني العباس وذلك عصر الايوبيين ٠

وليتهم وقفوا عند هذا فانهم جعلوا لكل عصر مميزات متفردة مستقلة ترجع بالغالب الى النظم السياسية فتبدأ سنة كذا وتنتهي سنة كذا كان عوامل الاجتماع والعمران لا يظهر أثرها الا اذا تبدلت الملوك أو تغيرت الحكام ومن هنا نسمع بالأدب العباسي والادب الاموي وغير ذاك فاذا سألت طالب الادب : ومتى بدأ الادب العباسي قال لك بظهور السفاح أو متى بدأ الادب الاموي أشار الى معاوية ! وقد فات هؤلاء الناس ان الادب في صدر ما يسمونه « العصر العباسي » لم يختلف كثيرا عن الادب الذي سبقه وان هؤلاء الشعراء الذين عرفوا فيه تربطهم بالازمان السابقة أمتن الاسباب ٠

فأبو نؤاس في نظرهم مبتدع فن جديد لم يسبقه اليه أحد رفع لواءه بيده وسار أمام شعراء التهتك والمجون ٠ ونسي هؤلاء الناس ان تاريخ الادب قد عرف قبل أبي نؤاس شعراء كانوا أسبق من أبي نؤاس الى هذا الضرب من الشعر ، وبحسبي أن أذكر لكم ان العصر الاموي عرف شاعرا هو عبد الرحمن ابن سيحان لو حفظ لنا من شعره مثل ذلك المقدار الذي أثر عن ابي نؤاس لغمر أبا نؤاس في خمرياته ٠ أما فنه فلم يكن فن أبي نؤاس بمختلف عنه ٠ ولولا ضيق المقام لانشدتكم من أشعاره

طائفة كبيرة لا تختلف عن شعر أبي نؤاس في شيء ولكني أكتفي بمقطوعة أو مقطوعتين :

فان سريعا كان اوصى بحبها بنيه وعمي جاوز الله عن عمي
ويا رب يوم قد شهدت بني ابي عليها الى ان غاب تالية النجم

حسوها صلاة العصر والشمس حية
تدار عليهم بالصغير وبالضخم

فماتوا وعاشوا والمدامة بينهم مشعشعة كالنجم توصف بالوهم

وقوله :

اصبح نديمك من صهباء صافية حتى يروح كريا ناعم البال
واشرب هديت أبا وهب مجاهرة واختل فانك من قوم اولي خال

وقد كان عبد الرحمن هذا معاصرا لمعاوية وابنه ، وبينه وبين ابي نؤاس نحو قرن ونصف . وللوليد ابن يزيد الاموي خمريات زعم أبو الفرج ان أبا نؤاس والحسين ابن الضحاك قد نقلوها في أشعارهما : قال وللوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها في أشعارهم سلخوا معانيها وأبو نؤاس خاصة فانه سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره .

اذا فلم يكن أبو نؤاس بمبتدع الخمريات انما هو رجل عرف وشهر بها وكذلك الشأن مع عمر ابن ابي ربيعة : وأريد أن أقيد ملاحظتي هذه بشيء هو اني لست أنكر على عمر انه متميز بشخصية خاصة لها لونها وان شعره قد صبغ بصبغة خاصة أو طابع خاص . فأنا أفهم أن الشاعر لا يمكن أن يكون شاعرا مجيدا حقا كما يقول الدكتور طه حسين الا اذا كان

شعره مرآة نفسه وعواطفه ومظهر شخصيته ، أنا أفهم هذا وأقبله ولكني لست أقبل أن يقال ان الشاعر اذا بلغ هذا انقطعت الصلة بينه وبين من سبقه أو أن يقال انه لا يبلغ هذا الا اذا انقطعت الصلة بينه وبين من سبقه ٠

وشيء آخر أريد أن أجلوه في هذا المقام فيما يتعلق بمعنى الغزل والنسيب والتشبيب وما اليها فقد فهمت من زميلي انه يرى فرقا بين النسيب والغزل ولكن المعاجم لا تعرف هذا الفرق بل ان النصوص الادبية تذهب الى أن العرب كانت تستعمل النسيب لهذا المعنى الذي نستعمل له كلمة الغزل اليوم وها نحن اولاء قد جعلنا موضوع محاورتنا غزل ابن ابي ربيعة ولو كنا في عصر عمر لكان الأولى أن يكون الموضوع نسيب عمر ٠ روى أبو الفرج عن عبد الله ابن مسلمة أنه قال : لقيت جريرا فقلت له يا أبا حرزة ان شعرك رفع الى المدينة وأنا أحب أن تسمعني منه شيئا فقال انكم يا أهل المدينة يعجبكم النسيب وان انسب الناس المخزومي يعني ابن ابي ربيعة ٠

وفي الكتاب نفسه ان الفرزدق سمع شيئا من نسيب عمر وفي العمدة لابن رشيق : والنسيب والغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد وفي المعاجم ما يؤيد هذا ، قال صاحب اللسان « في مادة غزل » : الغزل محادثة الفتيان وفي « مادة نسب » ونسب بالنساء شبب بهن في الشعر وتغزل ٠ وفي « مادة شبب » : شبب بالمرأة قال فيها الغزل والنسيب ٠ واذا فالغزل والنسيب والتشبيب كلها بمعنى واحد ولو كره المكابرون !

فلنعد الى عمر ! ولندرس غزله :

أنا أعلم ان زميلي قد قرأ كتـابي في عصر عمر ولاحظ بحثي عن هذا التطور الذي طرأ على الامة العربية في دلـك العصر فكان له الاثر الاكبر في حياة افرادها فقد حمل الفتـح العربي لهذه الأمة الفتية الناهضـة مدنيـات أمم عريقـة في الحضارة كالفرس والروم ودفع العرب الى الاحتكاك بأبناء هذه الأمم ! أفلا ينتظر أن تتطور الحياة والادب ؟ ومن يستطيع أن ينكر هذا ؟ ولكنني قبل الانتقال من هذا اريد أن ألاحظ ان الاوساط التي كثر الاحتكاك فيها بين العرب والأمم المغلوبـة كالعراق والشام لم تعرف هذا الغزل الذي نحن بصدده كمـا عرفته الحجاز ·

وهناك ملاحظة اخرى وهي ان الادبـاء القدماء حينمـا ذكروا في عمر هذه النزعة لم يذكروا الفتح العربي ونسـوا الجواري الفارسيات والروميات وأهملوا كل ما قد ينتج عـن الاحتكاك بين العرب والفرس والروم فقال أبو الفرج باسناده عن أم عمر : هي من حمير ومن هناك أتاه الغزل يقال غـزل يمان ودل حجازي ، ولقد أيد مناظري الكريم هذا القول كما لاحظتم وذهب الى أن هذا الغزل يمني قديم : ولست أدري كيف يكون هكذا ولا يكون جاهليا · اذا فقد عرف العرب هذا الغزل وعرفوا ان مصدره عربي وجعلوا اليمن موطنا اصيلا لـه : روى صاحب الاغاني عن المدائني عن ابن دأب انه قال : قلت لرجل من بني عامر أتعرف المجنون وتروي مـن شعره شيئـا ؟ قال : أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروي أشعار المجانين ؟ انهم لكثير فقلت ليس هؤلاء أعني انما أعني مجنون بني عامر

الشاعر الذي قتله العشق فقال هيهات بنو عامر أغلظ أكبادا من ذاك انما يكون هذا في هذه اليمانية الضعيفة قلوبها ٠

بل هناك من جعل لامرىء القيس نسبا يمنيا : وضربوا بغزله المثل فقالوا أغزل من امرىء القيس ٠ فاذا كان الامر كذلك فلم يحتل عمر هذا المقام بين شعراء الغزل ولم تكون له هذه المكانة في نفوس القدماء والمحدثين ؟ اما زميلي فيرجع الى ان عمر ابتدع فنا جديدا في الشعر العربي هو الغزل ثم يذهب الى أن هذا الغزل الذي ابتدعه لم تكن بينه وبين غزل القدماء صلة ما ٠ أما أنا فأرى ان عمر شاعر غزلي لطيف شهر بغزله وعرف به وكان له من نسبه وجماله وغناه وصحبه ، ومن خفة روحه ومرحها وميله الى التعلق بشعر الغزل وحده والتخصص بوصف النساء ما رفعه الى هذه المكانة التي يحتلها في نفـوس الناس ٠ وأرى فوق ذلك انه لم يكن لعمر أن يتخلص من تأثير القدماء ولا من غزل القدماء بل ان الصلة في بعض الأحيـان لتشتد حتى يكاد عمر يسطو على غزل القدماء ٠

أنا لا أنكر أن في غزل عمر ظواهر جديدة تختلف عن بعض ما ألفنا في غزل القدماء بل تختلف عما ألف الناس في زملاء عمر من مناصريه ٠ ومن ذا الذي يزعم ان نفوس الناس واحـدة واحساساتهم واحدة ولكنني أرى ان النفس الواحدة مهما تفردت واستقلت وتميزت بميزاتها الخاصة لا تخرج عن أنها وليـدة عوامل متعددة قديمة وحديثة فلا يمكن أن يصدر عنها فيض دائم مستقل من الاحساس أو الفكر لا صلة بينه وبين ما سبقها أو يحيط بها ٠ فكأي من رأي تبديه على انه وليد ساعته ولكن

ذاكرتك قد وعته نقلا عن غيرك منذ أزمان ، وهل يحجز بين العقل البشري وبين ثمار العقول السابقة ؟

وبعد فما هو الجديد في غزل عمر ؟

يقولون تخصصه ولكن هناك من تخصص في الحب اكثر من عمر ٠

فعروة وجميل وكثير وقيس تخصص كل منهم بفتاة ونحن نعرفهم اليوم بعروة عفراء وجميل بثينة وكثير عزة وقيس لبنى ٠ وقد تقولون قصه القصص ، وهاكم امرأ القيس فليست معلقته بشديدة الاختلاف عن رائية عمر ٠ وقد تقولون الجديد في غزل عمر هو هذا الحوار بين اشخاص شعره :

فقالت فلا تلبثن قلن تحدثي
اتيناك ، وانسبن انسياب مها الرمل

وقلت لها ، فقالت لي ، وقد زعم القدماء ان جميلا حين سمع هذا الحوار قال لعمر والله ما خاطب النساء مخاطبتك أحد قط ، فاذا أفسح لي المجال سأدلكم على من سبق عمر الى شيء من هذا الحوار ٠ وقد تقولون روح عمر هي التي تحبب الينا غزل عمر وأنا أحب عمر وقد رافقته حقبة ليست بقصيرة فراقني اصطحاب هذه الروح الحلوة المرحة ولكن حبي لعمر لا يعميني عن سواء السبيل ٠

وقد تقولون كان أوصف الشعراء لربات الحجال وكان الغزل غرضا عنده لا واسطة ولكنني أعرف شعراء غيره لم يكن

الغزل عندهم سبيلا لغيره من الاغراض وأعرف آخرين أحسنوا في وصفهم الغانيات ٠

واذا فلم يحتل عمر هذه المكانة ؟ والجواب بسيط ذلك ان أكثر هذه الصفات قد اجتمعت فيه فميزته من غيره وكان له من نسبه وجماله وغناه ما ساعده على أن يشهر ويعرف تاهيك بقريش التي أخذت بناصيته شدا الى السماء تضيف الى مفاخرها مفخرة جديدة ٠ فقد زعم الرواة ان العرب كانت تقر لقريش بكل شيء الا الشعر فانها كانت لا تقر لها به حتى كان عمر ٠ وقال بعض الرواة : أدركت مشيخة من قريش لا يزنون بعمر ابن ابي ربيعة شاعرا من أهل دهره في النسيب وكانوا يستحبون منه ما يستقبحونه من غيره ٠ ولقد ملك عليهم نفوسهم فخضعوا لسحره حتى كان يقال اذا اعجزك أن تطرب القرشي فغنه بشعر ابن ابي ربيعة ولحن ابن سريج فانك ترقصه ترقيصا ٠ ولا تنسوا النساء فاذا نال المرء حظوة في أعينهن فقد رفعنه الى السماء ٠

ولقد حاول مصعب الزبيري القرشي أن يذكر لنا أسباب تفوق عمر على نظرائه فعرض لذاك بنحو خمس وعشرين صفحة من كتاب الاغاني طبع دار الكتب ليس فيها موضع واحد يشير فيه الى فن جديد ابتدعه عمر ٠

أيها المحفل الكريم !

ان عمر لم يأت بغزله من السماء وان كان بعض الناس يزعم ان الحب نفحة من نفحات النبوة ٠ ان عمر استوحى حبه

من وجوه الحسان وقدودهن ، مــن عيونهــن وقلوبهن ، مــن ابتساماتهن الحلوة ورضابهن الطيب وحديثهن العذب واستمد تعابيره ومعانيه لاظهار هذا الحب ووصف أثره في نفسه من كل ما وصلت اليه ذاكرته أو خاطره أو علمه أو بيانه ، من القرآن الكريم والحديث الشريف ومن شعر رهطه الاباحيين وزملائهم العذريين اسلاميين كانوا أم جاهليين فهو في بعض شعره اباحي وفي بعضه الآخر عذري وفي غير هــذا فني يأخذ عن جميــل ابن معمر وعن قيس ابن ذريح • ويختلط الامــر على الروائيين فينسبون اليــه أشعــارا للعرجي وأخرى للحــارث ابــن خالد المخزومي ، وينقل هو عن الاعشى وزهير والنابغة وعنتره ومعن ابن أوس والحطيئة ويقلد امرأ القيس وعدي ابن زيد وعبد بني الحسحاس وقيس ابن الحدادية !

هنا يبدأ قصيدة كما بدأها الجاهليون فيقول :

قل للمنازل من اثيلة تنطــق بالجزع جزع القرن لما تخلق
حييت من طلل تقــادم عهده وسقيت من صوب الربيع المغدق

وهناك يأتي بتشبيه أو استعارة أو تعبير يأخذه عن زهير :

يا صاحبي قفا نستخبر الطللا عن بعض من حله بالامس ما فعلا
فقال لي الربع لما ان وقفت به ان الخليط اجد البين فاحتملا

وقد قال زهير :

ان الخليط اجد البين فانفرقا وعلق القلب من اسماء ما علقا

وفتاته كفتاة امرىء القيس نؤوم الضحى قليلة ازعــاج

الحديث لم تنتطق عن تفضل يتسلل الى خدرها ليلا فيفاجئها وقد نضت ثيابها للنوم فتجفل منه ثم يهدأ روعها فيدنو منهـا يهتصر معها غصون الاحاديث ، ثم يصف فرعها الاسود الفاحم وجسدها الغض الناعم ويذكر انه اذا دب نمل عليه آثر فيه ، وأبيات امرىء القيس مشهورة فاسمحوا لي أن أذكر لكم أبياتا من شعر عمر يأخذ فيها عن امرىء القيس :

خليلي مرا بي على رسم منزل وربع لشنباء ابنة الخير محول
اتى دونه عصر فاخنى برسمه خلوجان من ريح جنوب وشمأل

وفيهـا :

قليلة ازعاج الحديث يروعهـا تعالي الضحى لم تنتطق عن تفضل
نؤوم الضحى ممكورة الخلق غادة هضيم الحشا حسّانة المتجمل

ومن قصائد اخرى لعمر :

فلما اجرنا ساحة الحي قلن لي ألم تتق الاعداء والليل مقمر

ألا يذكركم هذا بالبيت :

فلما اجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

ويقول عمر : فلم يرعها وقد نضت مجاسدها ٠

ويقول ايضا :

لو دب ذر رويدا فوق قرقرها لأثر الذر فوق الثوب في البشر
سبته بوحف في العقاص مرجل اثيث كقنو النخلـة المتكـور

وكلكم تعلمون أصولها في شعر امرىء القيس ٠

واما هذا الضرب من القول الذي ينطق به اشخاص شعره :

فقلت ، وقالت وقالتا ، وقلن الخ فانظروا أصوله في شعر امرىء القيس :

فقالت سباك الله انك فاضحي
ألست ترى السمار والناس احوالي
فقلت يمين الله ابرح قاعدا
ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
فلما تنازعنا الحديث واسمحت
هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

ولكن لعل صاحبي يشك بوجود امرىء القيس أو بشعر امرىء القيس فلننتقل الى غير امرىء القيس فاسمعوا ما يقول المرقش الاكبر أحد المتيمين في الجاهلية وكان يهوى ابنة عمه أسماء بنت عوف ابن مالك وقارنوا هذا القول بمطلع رائية عمر وترديده لاسم نعم :

أغالبك القلب اللجوج صبابة   وشوقا الى اسماء أم أنت غالبه؟
يهيم ولا يعيا بأسماء قلبه   كذاك الهوى امراره وعواقبه
أيلحي امرؤ في حب أسماء قد نأى   بغمز من الواشين وازور جانبه
واسماء هم النفس ان كنت عالما   وبادي احاديث الفؤاد وغائبه
اذا ذكرتها النفس ظلت كأنني   يزعزعني قفقاف ورد وصالبه

فثنايا فتاة عمر العذبة كثنايا فتاة طرفة :

وتبسم عن غر شتيت نباته   له اشر كالاقحوان المنور

وكلكم تذكرون بيت طرفة :

وتبسم عن ألمي كأن منورا تخلل حر الرمل دعص له ند

ودار حبيبته كدار حبيبة عدي ابن زيد التي يقول فيها :

لمن الدار تعفت بخيم اصبحت غيرها طول القدم
ما تبين العين من آياتها غير نؤى مثل خط بالقلم

فيقول عمر :

لمن الدار كخط بالقلم لم يغير رسمها طول القدم

ثم ألا تشعرون بأنفاس عنترة في هذا البيت :

تشكى الكميت الجري لما جهدته وبين لو يسطيع أن يتكلما

وفي هذين البيتين :

وذكرت فاطمة التي علقتها عرضا فيا لحوادث الدهر
شرقا يذوب الشهد يخلطه بالزنجبيل وفأرة التجر

ولعنترة : « علقتها عرضا واقتل قومها » ، وله ايضا :

وكأن فأرة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها اليك من الفم

كل هذه التشابيه والفكر والتعابير نقلها الشعراء من عصر الى عصر فكان الفضل للشاعر الذي يحسن الاستعارة والنقل وخذل المستضعفون ٠

وأود لو يتسع لي المقام لاذكر لكم طائفة كبيرة من شعر عمر أردها الى أصولها في أشعار الجاهليين وبنوع خاص في اشعار عدي ابن زيد وعبد بني الحسحاس ، وكان عدي فيما يزعمون جميلا كعمر وكانت الفتيات تطلبنه وتحتلن على رؤيته والتحدث اليه ٠

وهو القائل في صاحباته :

بنـــات كــرام لـم يربـن بضـرة
دمـى شرقـــات بالعبـير روادعـــا
يسارقـن م الاستـــار طرفـا مفترا
ويبـوزن مـن فتـق الخدور الاصابعا

والفرق بين عدي وعمر ان عديا كان يرى صاحباتـه في البيع أيام الشعانين والفصح وعمر كان يراهن في مواسم العقيق في المدينة وفي مواسم الحج في مكة وبطاحهـا امـا عبـد بني الحسحاس فقد كان عبدا عند والد عمر (عبد الله ابن ابـي ربيعة) حين كان عاملا على بعض مخاليف اليمن وكان ينظـم الشعر متغزلا بالنساء وليس غريبا أن يكون عمر قد تأثر هذا العبد في هذا الضرب من الشعر ٠

ولعل زميلي الكريم لا يجهل أن لعمر شعرا عـارض به الجاهليين وهو لا يختلف عن الشعر الجاهلي في شيء وتقولون لي ورائية عمر ونعم عمر وقصص عمر وهذه القصيدة الكاملة التامة يقصرها عمر على نعمه فلا يتعداها الى غيرها أقل لكم قد سبق عمر الى مثلها شاعر آخر لا أبوح باسمه ولكنني أذكر شعره وأترك لمناظري الكريم أن يعرفه :

اجـدك ان نعـم نـأت انـت جـازع
قـد اقتربـت لـو ان ذلـك نـافـع
قـد اقتربـت لـو أن في قـرب دارها
نـوالا ولكـن كـل مـن ضن مانـع

وقــد جاورتنــا في شهـــور كثــيرة
فمـــا نولــت واللــه راء وســامــع
فـــان تلقيـــا نعمــا هديــت فحيها
وسل كيــف ترعى بالمغيـــب الودائــع
وقلــت لهــا في السر بيني وبينهـــا
على عجـــل ايـــان مـــن سار راجــع
فقالــت لقـــاء بعـد حـــول وحجـة
وشحط النـوى الا لذي العهـد قاطـع
وحسبــك مـــن نأى ثــلاثة اشهــر
ومـــن حزن ان زاد شوقـــك رابــع
سعـــى بينهــم واش بافلاق برمــة
لتفجـع بالاظعــان مـــن هـــو جــازع
بكــت مـــن حـــديـث بثـــه واشاعــه
ورصفــه واش مـــن القـــوم راصـع
لهــوت بــه حتـــى اذا خفــت أهلــه
وبـــين منـــه للحبيـــب المخـــادع

الى أن يقول :

فمـــا راعنـــي الا المنــادي الا اظعنوا
والا الـــرواعـــي غـــدوة والقعاقــع
فجئـــت كـــأنـــي مستضيف وسائــل
لأخبرهـــا كـــل الـــذي أنـــا صانـــع

فقالت تزحزح ما بنا كبر حاجة
اليك ولا منا لفقرك راتع
فما زلت تحت الستر حتى كأنني
من الحر ذو طمرين في البحر كارع
فهزت الي الرأس مني تعجبا
وعضض مما قد فعلت الأصابع

الى أن يقول : -

فقلت لها يا نعم حلي محلنا
فان الهوى يا نعم والعيش جامع
فقالت وعيناها تفيضان عبرة
بأهلي بين لي متى أنت راجع
فقلت لها تالله يدري مسافر
اذا اضمرته الارض ما الله صانع
فشدت على فيها اللثام واعرضت
وامعن بالكحل السحيق المدامع
واني لعهد الود راع وانني
لوصلك ما لم يطوني الموت طامع

ترى اذا لم يكن هناك لغزل عمر صلة بهذه القصيدة فأين توجد الروابط والصلات ؟

كِتَابُ الإمَامَةِ وَالسِّيَاسَةِ
مَنْ هُوَ مُؤَلِّفُهُ ؟

عاش عبد الله ابن مسلم ابن قتيبة الدينوري في القرن الثالث للهجرة وكان من اشهر علماء عصره • ولد في الكوفة سنة ٢١٣ ونشأ في البصرة وانتقل الى نيسابور وعمل في القضاء في دينور واستقر اخيرا ببغداد حيث اخذ يدرس كتبه التي ألفها ومات في بغداد سنة ٢٧٦ (١) •

وقد ساعده اتصاله بعلماء هذه المدن المختلفة واخذه عنهم على أن يتسع أفق ثقافته فجمع ووعى كثيرا من علم عصره وألم بآراء كثير من المدارس الفقهية والنحوية المختلفة ولاءم بين بعضها والبعض الآخر واستطاع بفضل رزانته وتدينه وعلمه

(١) الفهرست لابن النديم ليبزج ١٨٧٢ ، ص ٧٧ . وفيات الاعيان لابن خلكان القاهرة ١٩٤٨ ، ٢ : ٢٤٦ . شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي القاهرة ١٣٥٠ ، ٢ : ١٦٩ .

ان يصبح عالما يسند اليه القضاء في دينور (١) ثم استاذا كبيرا في بغداد يضع عشرات الكتب في مختلف الفنون ويدرسها طلبته • فقد كتب في القرآن وتفسيره وفي الحديث وتأويله وفي الشعر ونقده ، وكتب في التاريخ والسياسة والحرب والزهد • ولعله أول كاتب عند العرب وضع كتبا من نوع الموسوعات •

وأهم كتبه الموسوعية اثنان اولهما كتاب المعارف (٢) ويدور على شتى المواضيع ، من قصة الخليقة والتكوين الى اصحاب الكهف ، فسيرة النبي ، فأخبار الصحابة والخلفاء ، فالمشهورين من الاشراف ، فالعلماء ، فأيام العرب وأخبار الفتوح والفرق الاسلامية ، الى ذوي العاهات ، فملوك اليمن والشام والحيرة والعجم الخ • والثاني كتاب عيون الاخبار (٣) وهو في عشرة ابواب رئيسية في السلطان والحروب والسؤدد والطبائع والاخلاق والزهد والنساء الخ •

وقد ذاع صيت ابن قتيبة في المشرق وقصده العلماء وانتشر الى المغرب فطلبت كتبه هناك ورغب فيها وصار أهل المغرب يعظمونه ويتهمون من لم يكن في بيته من كتبه شيء (٤) •

واختلف المؤرخون في عدد كتبه فذكر ابن النديم اسماء اربعة وثلاثين كتابا (٥) وعقبه النووي فأوصلها الى الستين (٦)

(١) ابن النديم ص ٧٧ .
(٢) غوتنغن ١٨٥٠ ومصر ١٣٠٠ .
(٣) دار الكتب المصرية في ٤ اجزاء ١٩٢٥ — ١٩٣٠ .
(٤) مقدمة عيون الاخبار ج ٤ ص ١٢ و ١٧ .
(٥) الفهرست ص ٧٧ .
(٦) تهذيب الاسماء واللغات ، مصر (الطباعة المنيرية) ج٢ ص ٢٨١ .

وهناك من زعم انها بلغت ثلاثمئة (١) · ومهما يكن من أمر عددها فقد بلغ ما طبع منها حتى الآن خمسة عشر اشهرها سبعة هي كتاب الشعر والشعراء (٢) وكتاب عيون الاخبار (٣) وكتاب أدب الكاتب (٤) وكتاب المعارف (٥) وكتاب المعاني الكبير (٦) وكتاب تأويل مختلف الحديث (٧) وكتاب الأشربة (٨) ·

وهناك عدا هذه الكتب كتاب شهير آخر طبع ونسب الى ابن قتيبة هو كتاب الامامة والسياسة (٩) وكان يمكن ان يسمى كتاب تاريخ الخلفاء فهو يدور على تاريخ الخلفاء من زمن أبي بكر حتى أول خلافة المأمون وتفرده بالملك (١٠) ·

وقد لاحظ بعض المستشرقين ان هذا الكتاب لا يمكن أن يكون صدر عن ابن قتيبة ، وكان اول من نبه الى ذلك المستشرق

---

(١) راجع حياة ابن قتيبة ومؤلفاته بالانجليزية لاسحق موسى الحسيني. بيروت ١٩٥٠ ص : ٥١ .
(٢) ليدن ١٩٠٢ .
(٣) القاهرة ١٩٢٥ — ١٩٣٠ .
(٤) ليدن ١٩٠٠ .
(٥) غوتنغن ١٨٥٠ .
(٦) حيدر آباد ، ١٩٤٩ .
(٧) القاهرة ، ١٣٢٦هـ .
(٨) دمشق ، ١٩٤٧ .
(٩) القاهرة ، ١٣٢٧ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٣ هـ. وفي بعض النسخ الخطية كما سيجيء : « احاديث الامامة والسياسة » .
(١٠) انظر الامامة والسياسة (١٣٣٣) ج٢ ص ١٧٢ — ١٧٤ .

الاسباني كاينكوس (١) ثم تبعه دوزي (٢) وجاراهما بعد ذلك دي غويه واقتبس عنه بروكلمن في مقالته عن ابن قتيبة في الموسوعة الاسلامية (٣) ٠

وأخذ العلماء بعد هذا اذا ذكروا كتاب الامامة والسياسة قالوا عنه « المنسوب لابن قتيبة » (٤) ٠

ولما نشرت دار الكتب المصرية كتاب عيون الاخبار عرضت لكتب ابن قتيبة ومنها كتاب الامامة والسياسة فذكرت من شك في نسبة هذا الكتاب اليه وسردت الاسباب التي عددها كاينكوس واستند اليها في شكه (٥) وسنشير اليها بعد حين ٠

ولم يهمل الدكتور اسحق موسى الحسيني أن يلتفت الى هذه الامور في رسالته التي وضعها باللغة الانكليزية عن ابن قتيبة وأضاف ان هناك عالما عربيا سبق كايتكوس في الشك في صحة النسبة هو أبو بكر محمد المعافري من علماء القرن السابع (٦) ٠ والواقع ان ابا بكر لم يشك في صحة نسبة

---

(١) مقدمة عيون الاخبار ج٤ ص ٣٦ وانظر

Recherches sur l'Histoire et la Littérature de l'Espagne Pendant le Moyen Age, par R. Dozy, Leyde 1881, vol. I pp. 21-28.

The History of the Mohammedan Dynasties in Spain 2 vols. by Pascual De Gayangos, London: 1840-1843.

(٢) ص ٢٢ من كتاب دوزي في اعلاه ٠

(٣) تحت Ibn Kutaibah

(٤) انظر حسيني ص ٥٥ ٠

(٥) ج٤ ص ٣٦ من المقدمة ٠

(٦) ص ٥٥ ٠

الكتاب الى ابن قتيبة ولكنه نقد ابن قتيبة زاعما انــه تعرض للصحابة فقال : « ان ابن قتيبة لم يبق ولم يذر للصحابة رسما في كتاب الامامة والسياسة ان صح عنــه جميع مـــا فيه » (١) وظاهر من هذه العبارة التي استند اليها الدكتور اسحق ان قائلها (ابا بكر) يشك في أن يكون جميع ما في الكتاب هو لابن قتيبة ولكنه لا ينفي الكتاب عنه ٠

وقد ذكر دوزي في كتابه « ابحاث في تاريخ اسبانيا وأدبها » جميع الادلة التي استند اليها كاينكوس في نفي كتــاب الامامة والسياسة عن ابن قتيبة وقبلها على علاتها (٢) ثم جاء بعــده ناشرو عيون الاخبار فسردوها في مقدمــة الجزء الرابع مــن الكتاب وهذا نصها :

١) ان كثيرين من الذين ترجموا لابن قتيبة لم ينسب اليــه واحد منهم كتابا أو مؤلفا بهذا العنوان ٠

٢) ان مؤلف الكتاب يذكر في مواضع مختلفــة انــه استمــد معلوماته مـــن اناس حضروا فتح الاندلس مـــع ان فتــح الاندلس كان في سنة ٩٢هـ ٠ وميلاد ابن قتيبــة في سنة ٢١٣ هـ ٠

٣) ان اسلوب الكتــاب يختلف كثيرا عـــن اسلوب ابن قتيبــة المعروف في كتبه ٠

(١) ص ٥٥ وسنرجع الى هذا النص حين نعرض لمؤلف الكتاب الحقيقي٠
(٢) ج١ ص ٢٢ — من كتاب دوزي ٠

٤) ان شيوخ ابن قتيبة الذين يروي عنهم في كتبه لم يرد لهم ذكر في اي موضع من مواضع الكتاب ·

٥) انه يظهر لمن تصفح كتاب الامامة والسياسة ان مؤلفه كان مقيما بدمشق وابن قتيبة لم يخرج من بغداد الا الى الدينور ·

٦) ان مؤلف الكتاب يروي عن ابن ابي ليلى وابن ابي ليلى هذا هو محمد ابن عبد الرحمن ابن ابي ليلى الانصاري ابو عبد الرحمن الفقيه قاضي الكوفة توفي سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥م) أي قبل أن يولد ابن قتيبة بخمس وستين سنة ·

٧) ان مؤلف الكتاب قد ذكر اسماء بلاد لم تكن في زمن الرشيد فقد تكلم عن غزو موسى ابن نصير لمراكش مع ان هذه المدينة محدثة بناها يوسف ابن تاشفين سلطان المرابطين سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٢م) وابن قتيبة توفي سنة ٢٧٦هـ ·

ثم علقوا على هذه الادلة بهذه العبارة وهي ملخصة من بحث دوزي : وليس من العلماء من نقل عن هذا الكتاب على انه لابن قتيبة الا القاضي ابا عبد الله التوزي المعروف بابن الشباط فقد نقل عنه في الفصل الثاني من الباب الرابع والثلاثين من كتابه « صلة السمط » ·

ونريد أن نذكر هنا ان دوزي اعتمد في قبولها على ترجمة كاينكوس للامامة والسياسة (١) ولعله لو رجع الى نسخ عربية

(١) ص ٣٣ و ٢٤ من المصدر نفسه .

غير التي اعتمدها كاينكوس لما قبلها كلها • فبعضها ضعيف ، اذ ليس في الكتاب مثـلا نص صريح على ان مؤلفـه استمـد معلوماته من أناس حضروا فتح الاندلس أو من اناس اخبرهم من حضر فتح الاندلس ، وكل مـا في الامر انـه يذكر اخبـارا تروى عن اناس حضروا فتح الاندلس وليس هناك سلسلة اسناد متصلة • ولو صح ان في الكتاب رواية أو خبرا لشخص حضر فتح الاندلس ورواه لمؤلف الكتاب لامتنع ان يكون الكتاب لمؤلف ما عاش بعد آخر القرن الثاني •

ولما كان الكتاب يحوي اخبارا كثيرة تصل الى زمن المأمـون ويشير بعضها الى ما بعد زمن المأمون بأجيال كما يلاحظ مـن ج ٢ ص ١٧٢ (١) اصبح لا بد ان يكون النص نفسه ناقصـا سقط منه بعض رجال السند • والواقع ان اخبـار « الامامـة والسياسة » عن الاندلس مسبوقة كلها في النسخ المطبوعة بقوله « وذكروا » واذن فلا وزن لهذا الدليل • كذلك الدليل الذي يعرض لابن ابي ليلى وروايته عنه والذي فيه ان ابن ابي ليلى الانصاري توفي قبل ان يولد ابن قتيبة فانه كالدليل الآخـر لا وزن له للاسباب نفسها التي بيناها • ومن الممتع ان نعلم ان

---

(١) حيث يقول : « فتم بعون الله تعالى ما به ابتدانا وكمل وصف مـا قصصنا من ايام خلفائنا وخير ائمتنا وفتن زمانهم وحروب ايامهم وانتهينا الى ايام الرشيد ووقفنا عند انقضاء دولته اذ لـم يكن في اقتصاص اخبار من بعده ونقل حديث ما دار على ايديهم وكان في زمانهم كبير منفعة ولا عظيم فائدة وذلك لما انقضى امرهم وصار ملكهم الى صبية اغمار غلب عليهم زنادقة العراق فصرفوهم الى كل جنون وادخلوهم الى الكفر فلم يكن لهـم بالعلماء والسنن حاجـة واشتغلوا بلهوهم واستغنوا برأيهم الخ .

ابن قتيبة نفسه يستند الى ابن ابي ليلى في كتاب آخر هو عيون الاخبار حيث يقول : « روى ابن ابي ليلى » (٢) فان صح هذا الدليل انتفى ايضا عن ابن قتيبة كتاب عيون الاخبار ٠

ثم انا قرأنا الامامة والسياسة مرتين فلم نر اشارة صريحة الى ان مؤلف الكتاب كان مقيما في دمشق ٠ ونخشى ان يكون كاينكوس قد أساء فهم النص لا سيما وانه اهمل ذكر الموضع الذي يشير الى هذا الامر ٠

اما بقية الادلة فأقواها انه لم يرد ذكر للكتاب في الجداول التي ذكرت اسماء كتبه وانه أورد اسم مراكش ومراكش لم تعرف من قبل زمن ابن تاشفين ٠ على اني لم أقع على ذكر لمراكش في النسخة المطبوعة التي اعتمدتها وهي طبعة سنة ١٣٣١ ففيها ذكر المغرب فقط في غير موضع وقد استنكر كاينكوس ذكر المغرب حين ترجم النص في كتابه المذكور وقال : هذا خطأ لان حكم موسى ابن نصير بلغ مقاطعة افريقية فقط التي لم تكن تشمل افريقيا الغربية (المغرب) ٠ وبعد المقابلة بين نص ترجمة كاينكوس والنسخة المطبوعة وجدت ان كلمة مراكش واردة في النسخة الخطية التي اعتمدها هو وذلك في الفصل عن فتح سجوما وهو يقابل ص ٥٥ من الجزء الاول من النسخة المطبوعة التي اعتمدتها ٠ وقد ذكرت فيما يقول كاينكوس بهذا الشكل : « وجعل يكتب [اي موسى ابن نصير] الى عبد العزيز بفتح بعد فتح مراكش » ٠ وقد آثر كاينكوس

(٢) ج١ : ص ٣٠٨ ٠

ان يصلح النص بزيادة (كالفتح في) قبل كلمة مراكش بحيث اصبح « وجعل يكتب الى عبد العزيز بفتح بعد فتح كالفتح في مراكش » (١) ٠

ونستطيع لو شئنا اضافة اسباب غيرها تبعد الكتاب عن ابن قتيبة ٠ منها مثلا ان من عادة ابن قتيبة ان يشير في بعض كتبه الى بعض كتبه الاخرى ولم ترد اي اشارة في الامامة والسياسة الى كتاب من كتبه ٠ كذلك نقده للخلفاء العياسيين المتأخرين لا يتفق مع ما عرف عن ابن قتيبة في مؤلفاته المختلفة ٠ وقد لاحظ الدكتور حسيني هذا الامر في رسالته التي أشرنا اليها ٠

بقي أمر ذلك المصدر الوحيد الذي ذكر فيه عن كتاب الامامة والسياسة انه لابن قتيبة وهو صلة السمط لابن شباط وقد تذرع بهذا المصدر م٠ اماري (أحد المستشرقين) رافضا حجج كاينكوس ولكن دوزي سبق فرد على السيد اماري في ان ذكر ابن شباط الامامة والسياسة منسوبة لابن قتيبة لا يكفي لرد هذه الحجج لسبب وجيه واحد وهو ان ابن شباط كتب هذا الامر في النصف الثاني للقرن الثاني عشر وهي شهادة حديثة جدا بالنسبة لمؤلف عاش في القرن التاسع (٢) ٠

ومهما يكن من امر فان احدا من القدماء او المتأخرين من

(١) Gayangos; vol I. app. E. P. Ixiii; وليلاحظ ان النسخة الخطية التي اعتمدها كاينكوس تسمي الكتاب « احاديث الامامة والسياسة » فكأنما هناك محاولة مقصودة لطمس معالم الاثر واخفاء الاسم الحقيقي.

(٢) Dozy; Recherches p. 22

عرب او مستشرقين لم يذكر ــ فيما اعلم ــ انه عثر على اسم مؤلف الكتاب الحقيقي او انه توصل الى شيء يساعدنا في البحث عنه · وقد اشار كاينكوس نفسه الى انه بحث كثيرا لكي يصل الى اسم مؤلف الكتاب فلم يستطع (١) ·

وكنت منذ خمس عشرة سنة وقعت على نص في كتـــاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة لابن بسام (٢) يذكر فيه اخبارا عن علي ابن حزم ونتفا من اقواله ويسرد فيه جدولا بأسمــاء بعض كتبه وكان بينها كتاب الامامة والسياسة وقد استغربت ألا تكون اللجنة التي أشرفت على نشر الكتاب قد التفتت الى هذا الامر · وكنت كل سنة بعدها حين أدرّس طلبتي كتب الاصول ونمر بابن قتيبة اذكر لهم ان كتاب الامامة والسياسة ليس له وان مؤلفه اندلسي · ولما كلفت ان اكتب المقال عن ابن قتيبة للموسوعة اللبنانية عدت الى هذا النص ثانية وتأكدت ان ابن حزم هو صاحب الكتاب ·

ومن الممتع ان نعلم انه ليس من دليل من الادلة التي تنفي عن ابن قتيبة هذا التأليف تقف في سبيل ان يكون لابن حزم ·

وان اشارة المؤلف الى ملك بني العباس (انظر هامش ٢٧ في اعلاه) انه « صار الى صبيـــة اغمار غلب عليهــم زنادقــة العراق » ليدل اولا على ان المؤلف غير عراقي وثانيا انه متأخر عن زمن الخلفاء المستضعفين من بني العباس ، يعني بعد ابن

(١) Gayangos; vol. I App. li

(٢) القاهرة ، ١٩٣٩ المجلد الاول القسم الاول ·

قتيبة بأزمان · كذلك ان تعرضه للصحابة والائمة القدماء (١) يستبعد ان يكون قد صدر عن ابن قتيبة كما سبق وشك أبو بكر محمد المعافري فهو لا يتفق مع ما كتبه ابن قتيبة بشأنهم في كتبه الاخرى ولكنه أمر طبيعي بالنسبة لابن حزم الظاهري وهو من الادلة التي تثبت النص في ان الكتاب المذكور هـو من كتبه · وقد لاحظ القدامى هذه النزعة في ابن حزم فقال فيه ابن خلكان : قال العباس ابن العريف : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج ابن يوسف شقيقين ، وانما قال ذلك لكثرة وقوعه في الائمة (٢) ·

ثم ان الذي يطالع الامامة والسياسة يشعر ان المؤلف يعطف على الشيعة وعلى الامويين وكلا الامرين يتفق مع مثـل ابن حزم او بالحري مع علماء المدرسة الاندلسية · وقد لاحظنـا

(١) انظر ذكره لخبر السقيفة وما جرى فيها من القول ص ٧ — ٩ . وذكره لاختلاف الزبير وطلحة على علي ص ٤٦ . وتوجههما مع عائشة الى البصرة ص ٥٢ — ٦٦ . وقول علي لطلحة : اقبـل النصح وارض بالتوبة مع العار قبل ان يكون العار والنار » ص ٦٦ . وانظر اخباره عن مصارع الناكثين لعلي ص ٧٢ . حتى فيما يتعلق بالامام عمر ابن الخطاب فان مؤلف الكتاب لم يستنكف عن ايراد اخبار يظهر منها شك عمر باخوانه وخشيته انها مؤامرة منهم عليه حين طعن . ثم اتهامه بالانانية في امر استخلافه بعد ابي بكر . فقد روي ان عمـر خرج بالكتاب الذي عهد فيه ابو بكر بالخلافة اليه فلقيه رجل فقال لـه : ما في الكتاب يا أبا حفص قال لا ادري ولكني اول من سمع واطاع . قال : ولكنني والله ادري ما فيـه . أمرتـه عام اول وامرك العام ص ١٩ .

(٢) وفيات الاعيان ٣ : ١٥٠ .

في دراستنا لابن عبد ربه وعقده (١) ان ابـن عبد ربه كـان مالكيا ولكنه عرف بتشيعه الحسن • وقد كان ابن حزم شافعيا ثم انتقل الى مذهب أهل الظاهر وكان أصله فيما يدعي مـن فارس وقد زعم ان جده الاكبر يزيد كان من موالي يزيد ابن ابي سفيان (٢) اخي معاوية الاول فصار من الطبيعي ان يوالي الامويين فيما ينقل عنهم • وقد قال فيه ابن بسام في الذخيرة : « وكان مما يزيد شنآنه تشيعه لامراء بني امية ماضيهم وباقيهم بالمشرق والاندلس واعتقاده لصحة امامتهم » (٣) •

أضف الى هذا ان الكتاب لا يعرض الى الفتوح الا فيمـا يختص بالاندلس والمغرب فكأنما كاتبه عني عناية خاصة بهما لانه اندلسي أو مغربي • فقد تحاشى ذكر فتح سورية ومصر والعراق والسند والحملات التي سيرت اليها وقوادها وأمرائها

(١) ابن عبد ربه وعقده لجبرائيل جبور ص ٦١ — ٧٠ — ونريد ان نلاحظ هنا — بهـذه المناسبة ان كثيرا مـن نصوص ابن حزم في الامامـة والسياسة تتفق بالحرف مع بعض النصوص في العقد في باب اخبار الخلفاء . ويتفق ابن حزم احيانا مع ابن عبد ربه في الاخذ عن المدائني وهو من الموالين لبني امية في روايته .

(٢) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، المجلد الاول القسم الاول ص ١٤٢ ووفيات الاعيان ٣ : ١٣ وانظر :

R. Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne ed. Leyde 1932, vol. II, p. 326.

ففيه يذكر دوزي ان اصل ابن حزم نصراني ولكنه اراد ان يخفي نسبه فادعى انه من اصل فارسي من موالي يزيد ابن ابي سفيان اخي معاوية الاول .

(٣) الذخيرة مج. ١ قسم ١ ص ١٤٢ .

ولم يذكر شيئا عن هذه كلها بينما أفرد لموسى ابن نصير وفتح افريقية والاندلس نحو اربعين صفحة من مجموع نحو ٣٥٠ .

بقي شيء واحد وهو : كيف نعلل الامر في ان يكتب احدهم كتابا فينسب الى غيره ويلتبس الامر على العلماء والمؤرخين مئات السنين ؟ وتعليل الامر يسير فان الاشارة التي وردت وفيها ان المؤلف هو ابن حزم لم نرها حتى الآن الا بكتاب واحد هو الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . ولم تكن نسخ الكتاب الخطية شائعة كثيرا كما يستدل من مقدمة ما نشر منه . وقد نشرت بعض اجزائه جماعة من أساتذة الجامعة المصرية ولم تتم نشره حتى الآن وغفلوا عن وضع أي اشارة أو تعليق حين ورد اسم الكتاب بين الكتب التي ألفها ابن حزم فلم يعرف الامر .

ثم ان كلا من ابن قتيبة وابن حزم مؤلف عظيم وكلاهما عرف في عصره وبعده بكثرة التأليف وتنوع المواضيع وقد ذكرنا هذا عن ابن قتيبة في أول هذه الكلمة اما ابن حزم فقد قال فيه ابن بشكوال (١) ونقله عنه ابن خلكان (٢) انه كان « اجمع أهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والاخبار . وأخبر ولده أبو رافع الفضل « انه اجتمع عنده بخط أبيه من تآليفه نحو اربعمئة مجلد » . فصار من الطبيعي

(١) كتاب الصلة في تاريخ أئمة الاندلس : لابن بشكوال طبعة الحسيني ١٩٥٥ ج ٢ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ .

(٢) وفيات الاعيان ٣ : ١٤ .

وقد كثرت هذه الكتب وفقد اكثرها الا تحفظ اسماؤها كلها والا يستفقد بعضها اذا ضاع أو نسب الى غير مؤلفه .

ثانيا : لقد كانت تآليف ابن قتيبة مرغوبا فيها بالاندلس بحيث صاروا يتباهون باقتنائها ويتهمون من ليس في بيته شيء منها فصار من الطبيعي أن ينسب أحدهم كتابا يملكه ، الى ابن قتيبة ، اذا ضاع اسم مؤلفه أو أراد أن يفتخر باقتنائه ، لا سيما اذا كان مالك الكتاب من تجار الكتب ويرغب في بيعه فان اسم ابن قتيبة يأتيه بثمن أوفى من اسم ابن حزم .

ثالثا : كان ابن حزم مضطهدا في زمنه ، استهدف بعقيدته لكثير من الفقهاء وعيب بالشذوذ قال ابن بسام : « فتمالأوا على بغضه وردوا قوله واجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو اليه والاخذ عنه فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ويسيرونه عن بلادهم الى أن انتهوا به الى منقطع اثره بتربة بلده من بادية لبلة (١) » . ثم قال عنه : « انه لم يدع المثابرة على العلم والمواظبة على التأليف والاكثار من التصنيف حتى كمل من مصنفاته في فنون العلم وقر بعير لم يعد اكثرها عتبة بابه لتزهيد الفقهاء طلاب العلم فيها حتى احرق بعضها باشبيلية ومزق علانية (٢) » ثم قال : ناقلا من كلام ابن حيان : « ويا لبدائع هذا الحبر علي ابن حزم وغرره ما أوضحها على كثرة الدافنين لها والطامسين

(١) الذخيرة مج ١ قسم ١ ص ١٤١ .

(٢) الذخيرة مج ١ قسم ١ ص ١٤١ — ١٤٢ .

لمحاسنها وعلى ذلك فليس ببدع فيما اضيع منه • فأزهد الناس في عالم أهله (١) » • فليس غريبا و بعض كتبه لم تشتهر أن يكون كتابه الامامة والسياسة عند أحد من الناس أو تاجر للكتب فيخشى عليه ويمحو اسم ابن حزم منه ويضع اسم ابن قتيبة حفاظا للكتاب (٢) أو طمعا في ثمن كبير وهو كما نرى منه كتاب في أخبار الخلفاء فحسب ، وليس فيه ما يسيء الى مقتنيه اذا محي اسم ابن حزم عنه • بل على عكس ذلك قد يستفيد صاحبه شهرة ومكانة وترتفع قيمة الكتاب اذا نسب الى ابن قتيبة •

هذه الامور في تعليل حذف اسم ابن حزم ووضع اسم ابن قتيبة مضافا اليها ما سبق فقلناه من ان النص في الكتاب يتفق مع نزعة ابن حزم في نقده لبعض الصحابة وتشيعه لبني امية • واشارة ابن بسام الواضحة الصريحة الى ان بين كتب ابن حزم كتابا اسمه الامامة والسياسة وهو في سير الخلفاء وعدم اشارته الى كتاب لابن قتيبة بهذا الاسم على شهرة ابن قتيبة في الاندلس ثم فصله الطويل عن فتح الاندلس بينما لم يعرض لفتح غيرها من الامصار ـ كل هذه تدل على ان المؤلف الحقيقي لكتاب

---

(١) الذخيرة مج ١ قسم ١ ص ١٤٢ .

(٢) يقال ان ابن عباد هو الذي احرقها وقد ذكر ابن حزم في شعره خبر احراقها فقال :

فان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل ان انزل ويدفن في قبري
دعوني من احراق رق وكاغد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
والا فعودوا في المكانب بداة ... فكم دون ما يبغون لله من ستر

والسياسة هو علي ابن حزم لا غيره · اكتفي بهذه الكلمة
آمل حين اطلع على النسخ الخطية المعروفة لهذا الكتاب
ف المكاتب أن أجد فيها ما يزيل أي شبهة في هذا الموضوع
، في هذه المناسبة لو عمد أحد المدققين الى نشر الامامة
سة من جديد بطريقة علمية صحيحة ·

لا بد لي في الختام من الاشارة الى اني أشرفت على رسالة
قتيبة منذ نحو ١٢ سنة كانت تعدها الآنسة ملك هنانو
تير وقد استنفدت فيها جهودا عظيمة اقتضتها مراجعة
ن مؤلفاته الخطية في المكتبة الظاهرية وقد اضطرتها
عائلية خاصة ألا تتقدم لمناقشتها حتى الآن وهي فيما
تزال تتابع عملها فيها فعسى أن يجيء في دراستها ما
كتشافي لصاحب الامامة والسياسة والسلام ·

كتاب الإمامة والسياسة
من هو مؤلفه ؟

محمد يوسف نجم

نشر الدكتور جبرائيل جبور مقالا حول كتاب « الامامة والسياسة » (١) ، وفق فيه الى تلخيص آراء الباحثين في مدى صحة نسبة هذا الكتاب لابن قتيبة ، وحاول أن يرد هذه النسبة عنه ويلقيها على ابن حزم ، معتمدا على نص ورد في كتاب الذخيرة لابن بسام (المجلد الاول ، القسم الاول) ، وهذا النص موجود ايضا في معجم الادباء الذي طبع قبل الذخيرة بأكثر من ثلاثين سنة ٠

وقد أغراني هذا البحث النفيس بتتبع القضية في مظانها ، وقد دونت بعض الملاحظ التي أود أن أشرك فيها القارىء لعلها أن تلقي ضوءا على البحث ، وتكون منطلقا جديدا له ٠

---

(١) الابحاث جزء ٣ السنة ١٣ ٠

١ ـ من ذكر الامامة والسياسة من المؤرخين :

يذكر الدكتور جبور (ص ٣٨٧) ان ابن الشباط (من رجال القرن السادس هو أول من أشار الى الامامة والسياسة وقرنه بابن قتيبة · والنقل الذي اقتبسه (ص ٣٨٦) عن أبي بكر بن العربي (٤٦٨ ـ ٥٤٣) ، ذُكر فيه اسم هذا الكتاب مقترنا صراحة بابن قتيبة (١) · وابن العربي قريب العهد بابن حزم وقد هاجمه بشدة في « العواصم من القواصم » ونصب نفسه للرد على آرائه (٢) · وواضح من النص الذي اقتبسه الدكتور جبور ان « الامامة والسياسة » اقترن بابن قتيبة منذ ذلك العهد المبكر ، ولعل الامر كان كذلك وابن حزم حي ، لان ابن العربي رد على ابن حزم وكتب « العواصم من القواصم » بعد عودته من المشرق عام ٤٩٣ · يضاف الى هذا ان ابن العربي كان على معرفة وثيقة بكتب ابن حزم ومن المستبعد ان تجوز عليه نسبة الكتاب ، وهو المعني بتتبع آثار خصمه ·

٢ ـ حرق كتب ابن حزم :

ثم ان حرق الكتب (٣٩٣ ـ ٣٩٤) لا يعني انها فقدت جملة ، فقد كان الكتاب ينسخ وتشيع نسخه وتتناقل ، وكان ابن حزم في بيئته أعلى مكانة من ابن قتيبة ، فلا بد من ان

---

(١) جاء هذا النص في « العواصم من القواصم » ط. السلفية ، القاهرة ١٣٧١هـ ص ٢٤٨ ·

(٢) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ط. دائرة المعارف النظامية ، ١٣٣٤ هـ ، ج٣ : ٣٢٤ ·

نفترض اذن ان الناسخ الذي يطمس اسمه ليضع في مكانه اسم ابن قتيبة ، انما هو ناسخ جاهل . وقد شاع مذهب الظاهر بعد ابن حزم ، ويشهد بذلك ابن العربي نفسه اذ يقول : « فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية اشبيلية يعرف بابن حزم » (١) . ومثل هذا من شأنه ان يزيد في تنافس الناس على اقتناء كتبه ، ويزيد في اقبال النساخ على تحقيق اسمه وابرازه لا على طمسه واحلال اسم آخر محله .

٣ ـ كتاب السياسة لابن حزم :

لدينا اشارتان الى كتاب لابن حزم اسمه كتاب «السياسة» ، الاولى أوردها ابن حزم في كتابه « التقريب لحد المنطق » (ص ١٨٠ ـ ١٨١) ، وذلك حيث يقول : « وأما ما يظنه أهل ضعف العقول من أنه عقل ـ وليس عقلا ولا مدخل للعقل فيه ـ فقد غلطوا في ذلك كثيرا فانهم يظنون العقل انما هو ما حيطت به السلامة في الدنيا ووصل به الى الوجاهة والمال ... وكذلك ما ظنه آخرون من ان العقل المحمود الذي لا ينبغي خلافه التزام ازياء معهودة لا معنى لها فليس اذا حصلته الا سخفا وجهلا وليس هذا من العقل في شيء وبيان هذا مذكور في كتابنا في « اخلاق النفس والسيرة الفاضلة » وفي كتابنا في « السياسة » ان شاء الله عز وجل » .

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ج٣ : ٣٢٤ .

والاشارة الثانية وردت في الرسائل الصغرى لابن عباد الرندي (١) (٧٣٣ ـ ٧٩٢هـ) ، حيث يقول :

« بل من جهل النفس وشدة غباوتها انها تفعل الافعال الشاقة لغرض تافه كالذي يعرض نفسه لمعارك الحرب ومباشرة الطعن والضرب ليثنى عليه بالشجاعة والجلادة بعد موته ، وهذا جهل عظيم • وأي منفعة للنفس في ذلك بعد الموت وقد تفعل ذلك من غير تصور غرض ولا تحصيل عوض كما قال علي بن حزم في كتاب السياسة » •

ويتضح من هاتين الاشارتين ما يلي :

١ ـ ان موضوع كتاب « السياسة » لابن حزم لا يتعلق بتاريخ الخلفاء وانما هو دائر ـ في الاكثر ـ على مسألة التدبير، وعلى دراسة طبائع النفوس في شؤون المعاش والاخلاق •

٢ ـ ان كتاب « السياسة » لابن حزم لم يطمس عنه اسم صاحبه كما قدر الدكتور جبور ، بل كان معروفا بنسبته الى صاحبه حتى عصر ابن عباد الرندي أي حتى القرن الثامن الهجري • وهو تاريخ متأخر عن نقل ابن الشباط ، واشارة ابن العربي •

٣ ـ وأضيف هنا ان قول ابن بسام « ما أوضحها على كثرة الدافنين لها والطامسين لمحاسنها » لا يعني الدفن والطمس حرفيا ، انما يعني ان اعداء ابن حزم في الاندلس من المالكية وغيرهم ـ وهم كثر ـ كانوا يغضون منها وينتقصون قيمتها •

(١) تحقيق الاب بولس نويا ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٧ ، ص٥١.

٤ ـ وقد يقال ان هاتين الاشارتين تومئان الى كتاب « السياسة » لا الى كتاب الامامة والسياسة الذي ذكره ابن بسام ، أو « كتاب الامامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب الى الواجب منها » الذي ذكره ياقوت (١) • ومن تأمل هذا العنوان عند ياقوت ، وجده مضطرب الدلالة ، ان كلمة الخلفاء في هذا النص تستوقف النظر ولعلها اذا صححت وجعلت « الخلقاء » مثلا ، لكان العنوان منطبقا على موضوع الكتاب « السياسة » نفسه • واذن فهنالك كتاب واحد هو كتاب السياسة كما أشار اليه ابن حزم وابن عباد الرندي • وقد يشككنا في هذا العنوان ان الذهبي ، وهو معني بذكر ما وقع له من اسماء كتب ابن حزم ، لم يذكر كتاب « الامامة والسياسة » بينها ، وكذلك لم تذكره سائر المصادر كطبقات الامم لصاعد ـ وهو قريب العهد به ، واستمد اخباره عنه من ابنه ـ والمغرب واخبار العلماء والنفح ووفيات الاعيان •

٤ ـ التعرض للصحابة والأئمة :

وقد استدل الدكتور جبور على ان ما جاء في « الامامة والسياسة » من تعرض للصحابة والائمة القدماء أمر طبيعي بالنسبة لابن حزم (ص ٣٩١) • وهذا الامر الذي بدا له طبيعيا لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يحتاج الى فضل بيان أو مزيد استقصاء ، لا يقره عليه من عرف ابن حزم معرفة دقيقة ممحصة وقرأ كتبه واطلع على آرائه • فليس ثمة

(١) ارشاد الاريب ١٢ : ٢٥٢ نقلا عن ابن حيان •

من هو أشد توقيرا للصحابة منــه ، وانما السؤال الذي يستحق أن نجيب عليه هو : لماذا رمي ابن حزم بهذه التهمة ؟ والجواب على ذلك ان خصومه من أهل المذاهب الاخرى كانوا اذا أرادوا سند القياس والاستدلال والتقليــد ومــا الى ذلك مــن أركان مذاهبهم ، عمدوا الى الاستشهاد ببعض ما عمله الصحابة والائمة السابقون • وكان ابن حزم لا يتورع عن أن ينسب الخطأ الى أولئك الائمة دفاعا عــن فكرته في منع التقليــد والاستدلال والقياس • وكان أسلوبه حادا حقا في الهجوم علــى خصومه هؤلاء ، عبر عنه ابن حيان بقوله : « ولم يكن يلطف صدعــه بما عنده بتعريض ولا يزفه بتدريج بل يصك به معارضه صك الجندل وينشقه متلقيه انشاق الخردل » (١) ، فلذلك استهجنوا منه طريقته في التعبير • ورغبة في اثارة النفوس عليه ، اتهموه بأنه لا يوقر الصحابة والائمة ، وهو قول لا يستبان كذبه من صدقه الا بالاطلاع على الصراع المذهبي يومئذ • وما أبعــد الفرق أن يقال : ان ابن حزم يطعن في الصحابة ، وبين تجويزه الخطأ عليهم • ان روايات « الامامة والسياسة » هي التي لا توقر الصحابة ، ولو اطلع عليهــا ابن حزم لانكرهــا وانبرى للرد عليهــا •

٥ ـ منهج ابن حزم في كتبه وما يستدل منه :

اعتمد الباحث الفاضل اذن على اتفاق الاسمين ليستنتج

(١) الذخيرة ق١ م١ ص ١٤٠ ، والمغــرب ١ : ٣٥٥ وارشاد الاريــب ١٢ : ٢٤٨ •

ان كتاب « الامامة والسياسة » الذي نسب الى ابن قتيبة انما هو لابن حزم • واتفاق الاسماء في الكتب لا يصحح نسبة • وهناك كتب كثيرة تحمل اسما واحدا لمؤلفين مختلفين ــ والفهرس وكشف الظنون وفهارس المخطوطات فيها الدليل على ذلك ــ ولكنه اغفل شاهد المعارضة ، وهو من أقوى الشواهد بل أقواها حين نفقد النص الصريح والبيان المثبت • وكان من حق البحث عليه أن يعرض « الامامة والسياسة » على ما عرف من اسلوب ابن حزم ومنهجه وآرائه ، فان وجد اتفاقا في هذه الامور استند اليه في ترجيح نسبة الكتاب له ، لا في القطع الجازم بذلك •

وتوضيحا لذلك نذكر ما يلي :

١ ــ لابن حزم أسلوب في الكتابة متفرد لا يحيد عنه ، ذلك شأنه اذا كتب في المنطق أو في السيرة أو في الفقه أو الاحكام • وتكفي المقارنة العابرة لتدلنا على ان اسلوب « الامامة والسياسة » لا يتفق واسلوب ابن حزم في كل ما وصلنا من كتبه • وهذه الحجة اذا صدقت واستعملت دليلا بالنسبة الى ابن قتيبة ، فما أحراها أن تكون صادقة صادعة فيما يتصل بابن حزم •

٢ ــ ولابن حزم طريقة منهجية خاصة التزمها لانه محدث يؤسس مذهبه على الرواية الصحيحة • وتلك الطريقة قائمة على النقد الدقيق ورفض الواهي من الروايات • وهو من أشد الناس التزاما بالنقد ، وانما يجيئه الخطأ احيانا من افتقاره

الى الوسائل أو عدم اكتمالها بين يديه • وهذا المنهج في جوهره يتعارض أشد التعارض مع الاساس الذي قام عليه كتاب « الامامة والسياسة » ، وهو حشد الروايات في نطاق واحد دون تمحيص وادراجها تحت لازمة تتكرر « وذكروا ••• » • وان قوة النقد عند ابن حزم هي التي عرت الاخبار الانسانية من اطارها الاسطوري ومن صلتها بالغيبيات وجعلت التاريخ عنده « تحقيقا وتمحيصا » • ولكن كتاب « الامامة والسياسة » لم يتجرد من الطابع الغيبي والاسطوري ، ويكفي أن أورد مثلين على ذلك :

(ا) جاء في الامامة والسياسة (ج ١ ص ٣٨) (١) الخبر التالي : « ثم اشرف عليهم عبد الله بن سلام فقال : يا معشر من حاصر دار عثمان من المهاجرين والانصار ممن أنعم الله عليهم بالاسلام ، لا تقتلوا عثمان ••• واني لاجده في التوراة التي أنزل الله على موسى عليه السلام : وكتب بيده عز وجل اليكم بالعبراني وبالعربي : خليفتكم المظلوم الشهيد » •

هل يمكن أن يقبل أبو محمد بن حزم مثل هذه الرواية وهو الذي يسخر من أحد شيوخ المالكية لانه كتب في كتاب ألفه ورآه ابن حزم ووقف عليه ،كتب يقول : « روينا بأسانيد صحاح الى التوراة ان السماء والارض بكتا على عمر بن عبد العزيز أربعين سنة » • يسخر ابن حزم منه لانه يروي عن التوراة شيئا من اخبار عمر بن عبد العزيز (٢) • وهل يمكن ان يفوت

(١) الاشارات هنا الى الامامة والسياسة ، مطبعة الفتوح ، القاهرة ١٣٣١هـ
(٢) الاحكام لاصول الاحكام ج ٥ : ١٦٣ .

ابن حزم الرجل المدقق اللماح تناقض ابن سلام في تلك الرواية وهو يقول : لا تقتلوا امامكم ، ثم يذكر ان التوراة سمته شهيدا ، وكيف يستشهد اذا لم يكونوا قد قتلوه بعد ٠ وما شأن التوراة بعثمان ؟

(ب) وجاء فيه ايضا (ج ٢ ص ١٠٨) : « ان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس دخل وهو شيخ عشي بصره على هشام بن عبد الملك فقال هشام كالمستهزىء : «ان هذا الشيخ ليرى ان هذا الامر سيكون لولديه هذين أو لأحدهما» » ٠

وهب ان ابن حزم لخص هذا الكلام من الروايات الموجودة في كتب التاريخ ، فانه لا يمكن أن يمر عليه دون تعليق حاد لاذع ٠

وهذان مثلان فقط ٠ ولو كان الامر محاكمة ما في « الامامة والسياسة » من روايات يقبلها ابن حزم أو يرفضها لاتسع مجال القول في ذلك ٠

٣ ـ ولابن حزم حرص شديد على التناسب في أي موضوع يكتبه فهو يلتزم بمنهج صارم يضعه ٠ ومثله لا يكتب صفحات في حديث الغضبان بن العبقثري وهو يستعرض تاريخا طويلا (ج ٢ ص ٢٧ ـ ٢٩) ، ولا يكتب حديث فتح الاندلس بتطويل ثم لا يذكر شيئا عن الفتوحات الاخرى ، ولا يستطرد لقصة أبي حازم الاعرج مع سليمان بن عبد الملك (٢ : ٨٥ ـ ٩٠) في نطاق تاريخي دقيق ٠

٤ ـ ثم لدينا آراء لابن حزم في التاريخ لا يحيد عنها وفيها

مخالفة صريحة لبعض ما جاء في كتاب « الامامة والسياسة » ٠ استمع اليه يتحدث في الفصل (ج ٤ ص ١٥٨) عن موقف الصحابة من مقتل عثمان :

« فهو على ذلك وجماعات من الصحابة فيهم الحسن والحسين ابنا علي وعبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وغيرهم من نحو سبعمائة من الصحابة (١) وغيرهم معه في الدار يحمونه وينفلتون الى القتال فيردعهم تثبيتا الى أن تسوروا عليه من خوخة في دار ابن حزم الانصاري جاره غيلة فقتلوه ٠ ولا خبر من ذلك عند أحد ٠ لعن الله من قتله والراضين بقتله فما رضي أحد منهم قط بقتله ولا علموا انه يراد قتله لانه لم يأت منه شيء يبيح الدم الحرام » ٠

وقارن هذا بالرواية التي جاءت في الامامة والسياسة (ج ١ ص ٤٤) في حوار بين الحسن وأبيه ، قال الحسن : « وايم الله يا ابت ليظهرن عليك معاوية لانه من قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ٠ فقال علي : يا بني وما علينا من ظلمه والله ما ظلمناه ولا أمرنا ولا نصرنا عليه ولا كتبت فيه الى أحد سوادا في بياض ٠ وانك لتعلم ان أباك أبرأ الناس من دمه ومن أمره ٠ فقال الحسن : دع عنك هذا والله اني لا أظن بل لا أشك ان ما في المدينة عالق ولا عذراء ولا صبي الا وعليه

(١) انظر الامامة والسياسة ج١ ص ٣٨ وقد جاء فيه : « وكان معه في الدار مائة رجل » .

كفل من دمه فقال : يا بني انك لتعلم ان أباك قد رد الناس عنه مرارا ، أهل الكوفة وغيرهم وقد أرسلتكما جميعا بسيفيكما تنصرانه وتموتان دونه فنهاكما عن القتال ونهى أهل الدار أجمعين · وايم الله لو أمرني بالقتال لقاتلت دونه أو أموت بين يديه · قال الحسن : دع عنك هذا حتى يحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون » ·

فقول الحسن في هذه الرواية « دع عنك هذا » يلمح الى انه غير مقتنع تمام الاقتناع بما يقوله أبوه من عدم رضاه بمقتل عثمان ·

٥ ــ واذا صحت النقول عند ابن حزم لم يعدل عنها الى سواها ابدا ــ حتى ولا عن طريق الاستئناس · فقد كان يرى مثلا ان بيعة ابي بكر ثابتة بالنص (الفصل ج ٤ ص ١٠٨) ثم يعلق على ذلك بقوله : « ولو اننا نستجيز التدليس والامر الذي لو ظفر به خصومنا طاروا به فرحا أو ابلسوا أسفا لاحتججنا بما روي : اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر · قال أبو محمد : ولكنه لم يصح ويغنينا الله من الاحتجاج بما لا يصح » · ومن راجع الاخبار التي وردت عن بيعة أبي بكر في « الامامة والسياسة » وجد انها ليست هي الاحاديث التي يعتمدها ابن حزم في مسألة الامامة ·

٦ ــ ملاحظ متفرقة :

١ ــ يمكن الاشارة الى نقطة صغيرة ، ولكنها ذات دلالة

هامة ، وهي ان ابن حزم لا يمكن ان يقول بعد ذكر علي « كرم الله وجهه » ـ اذ لا يميزه عن سائر الصحابة · ولذلك نجده يلحق اسمه حيثما ورد في كتبه بقوله : « رضي الله عنه » · اما مؤلف « الامامة والسياسة » فانه مصر على هذا التمييز ·

٢ ـ ويمكن ان نتساءل ايضا : اذا كان هذا الكتاب من تأليف ابن حزم وهو قد توفي سنة ٤٥٦ ، فلماذا وقف في سرد تواريخ الخلفاء عند مقتل الامين ؟ ونحن نعلم أن له رسالة في الخلفاء بلغ بها حتى عهد القائم بالله (١) ·

٣ ـ واذا كان اسم مراكش قد ورد في نص « الامامة والسياسة » وهي قد أسست سنة ٤٥٤ ، وكانت وفاة ابن حزم سنة ٤٥٦ ، فان ذلك يبعد ان يكون الكتاب له ، أولا من ناحية الدقة في التعبير ، وثانيا لان الفترة بين بناء مراكش ووفاة ابن حزم لا تسمح بذلك ·

٤ ـ اما مسألة الاقتصار على ذكر فتح الاندلس ، فانها تغري الباحث بأن يتساءل : لماذا تحذف من الكتاب قصة الفتوحات في الاقاليم الاخرى ؟ وهل ذكر فتح الاندلس دليل قاطع على ان مؤلف الكتاب اندلسي ، وهل كونه اندلسيا ينصرف الى ابن حزم على التعيين (٢) ؟

(١) هي رسالة « اسماء الخلفاء وذكر مددهم » وهي الرسالة الخامسة من الرسائل الملحقة بكتاب جوامع السيرة له ، تحقيق احسان عباس وناصر الدين الاسد ، ص ٣٥٣ — ٣٨٠ .
(٢) افرد ابن حزم رسالة لاحصاء الفتوحات . انظر الرسالة الرابعة من المجموعة السابقة ص ٣٣٩ — ٣٥٠ .

والمصادر التي ينقل عنها في هذا الجزء من الكتاب هم شيوخ المصريين • وقد تعرض زميلنا الدكتور محمود علي مكي (١) لهذه القطعة المتصلة بالمغرب والاندلس فوجد ان بينها وبين تاريخ عبد الملك بن حبيب (ومنه نسخة في البودليانا باكسفورد) اتفاقا في كثير من التفاصيل • وخلص الدكتور مكي من بحثه الى ان مؤلف هذه القطعة ينبغي ان يكون مصريا وان يكون قد عاش في القرن الثالث الهجري • ثم أشار الى ان المؤرخين الاندلسيين والمصريين يتحدثون عن كتاب يسمونه « اخبار الاندلس » ، ألفه رجل من ولد موسى بن نصير فاتح الاندلس عن قصة الفتح وأشاد فيه بالدور الذي قام به جده موسى • اما المؤلف فهو « معارك بن مروان » ، ورجح انه مصري النشأة وان حياته انما كانت في غضون القرن الثالث • واذا فحصت القطعة الموجودة في « الامامة والسياسة » وجدت متفقة مع ما ذكره المؤرخون عن كتاب معارك بن مروان • والحق ان نتائج الدكتور مكي لا تكشف عن صاحب الكتاب ولكنها تؤكد صلته بالمشرق وتبعده عن الاندلس •

٥ ــ اما مسألة العصبية لبني امية (ص ٣٩١ ــ ٣٩٢) ، فانها لو صحت لنفت نسبة الكتاب اليه دون عناء ، ولكن الرجل كان مجتهدا يضع على الخطأ وسما ويميز الصواب بسماته • وكان يحرص على تحقيق « الامامة » بالمعنى الذي يفترضه مذهبه • وهو قد عاصر الفتنة الاندلسية التي انقسمت فيها البلاد الى دويلات صغيرة فكان حريصا على ان يكون هناك امام

(١) مجلة المعهد المصري م٥ ، القسم الاسباني ص ٢١٠ ــ ٢٢٠ .

تجتمع حوله الكلمة لا ائمة عدة • وكان مذهبه قائما على أن الامامة في قريش و ان الامة لا بد لها من ان تجتمع على امام • وأشق ما شاهده وجود اربعة أئمة في وقت واحد (١) • ولذلك جاهد جهادا كاد يكلفه حياته لارجاع الامويين الى الحكم • وقد أثبتت الايام ان الاندلس سقطت سياسيا بعد فقدان الامويين وضاعت شخصيتها السياسية حتى النهاية • ومن أجل تلك المحاولات التي بذلها ابن حزم اتهمه ابن حيان بالعصبية لبني امية • وابن حيان يصدر هذا القول ايام ملوك الطوائف ، ولم يكن ابن حزم يخفي نقمته على وضع اولئك الملوك •

وقد تحدث محققا جوامع السيرة عن هذه العصبية فقالا : « ومن المجانبة للانصاف أن يتهم ابن حزم بأنه كان متشيعا في بني امية منحرفا عمن سواهم من قريش كما يقول ابن حيان ، فان مثل هذا الاتهام اساءة كبيرة الى رجل عاش من طلاب الحق وعشاقه في القول والعمل • فان كان ابن حيان يعني بني امية بالاندلس فابن حزم كان يعرف لهم قيامهم بأمر الاسلام وجهادهم في سبيله ويثني عليهم من هذه الناحية • اما اذا كان يعني بني امية بالمشرق ، فليس فيما كتبه ابن حزم ما يشير الى شيء من التعصب لهم • وان رسالته في تواريخ الخلفاء لتدلنا على انه كان يرى امامة ابن الزبير ويعد مروان بن الحكم خارجا عليه ولا يثبت له حقا في الخلافة ، حتى انه ليقول فيه في موطن آخر : مروان ما نعلم له جرحة قبل خروجه على امير المؤمنين

---

(١) انظر له « نقط العروس في تواريخ الخلفاء » تحقيق شوقي ضيف • مجلة كلية الاداب بجامعة القاهرة م١٣ ص ٨٣ •

عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما . واذا ذكر الحرة قال : وهي ايضا اكبر مصائب الاسلام وخرومه ، لان أفاضل المسلمين وبقية الصحابة وخيار المسلمين من جلة التابعين قتلوا جهرا ظلما في الحرب وصبرا . ويقول ايضا في مقتل عبد الله بن الزبير : وقتله أحد مصائب الاسلام وخرومه ، لان المسلمين استضيموا بقتله ظلما علانية وصلبه واستحلال الحرم . ومثل هذه الاقوال لا يرددها من يتعصب للامويين أو من يحاول أن يعتذر عن كل ما حدث في أيامهم » (١) .

اذن فما نزال حيث كنا . فكتاب الامامة والسياسة ليس لابن قتيبة وهو بهذا القدر نفسه ليس لابن حزم .

(١) انظر مقدمة جوامع السيرة ص ١٢ — ١٣ .

كِتَابُ الإِمَامَةِ وَالسِّيَاسَةِ
مَنْ هُوَ مُؤلِّفُهُ ؟

رد على نقد

نشرت مجلة الابحاث (١) تعليقا للدكتور محمد يوسف نجم حول مقالي عن كتاب الامامة والسياسة المنشور في عدد سابق من المجلة نفسها (٢) وقد دون في هذا التعليق بعض الملاحظ وقال انه يأمل أن تلقي ضوءا على البحث وتكون منطلقا جديدا له.. وكنت أشرت في مقالي الى ان الباحثين متفقون على ان الكتاب ليس لابن قتيبة ولكن أحدا منهم لم يستطع تعيين صاحبه أو معرفة نص يشير اليه وذكرت فوق ذلك اني وقعت على نص في كتاب الذخيرة لابن بسام ينسب كتابا بالاسم نفسه الى ابن حزم ولاحظت انه ليس في متن الامامة والسياسة الذي بين أيدينا ما يمنع ذاك بل لعله يؤيد ما عرف عن ابن حزم من رأي

(١) مجلد ١٤ عدد ١ .

(٢) مجلد ١٣ عدد ٣ .

في بعض الصحابة وفي بعض الخلفاء وخلصت الى رأي دعتمه ببعض الادلة ذهبت فيه الى ان الكتاب أولى أن يكون واحدا من تآليف ابن حزم المفقودة ولا سيما ان هناك نصا ينسبه اليه ·

وقد حاول الدكتور نجم في تعليقه أن يرد هذا الرأي فرفض النص وزعم انه يمكن أن يكون محرفا وانتهى بعد ذكر ملاحظه الى انه لا يزال حيث كان فهو قد سلم ان كتاب الامامة والسياسة ليس لابن قتيبة ولكنه ذهب الى ان الكتاب هو بالقدر نفسه ليس لابن حزم ·

وأريد أن أذكر قبل كل شيء اني ما كتبت هذا البحث في مجلة الابحاث الا ليكون منطلقا لدرس هذا الامر الذي كان خافيا وللوصول الى الحقيقة ، ولهذا فاني ارحب بكل تعليق ينشر بصدده وآمل أن يكون التعليق صادرا بعد درس وتقص وان يكون البحث واردا بروح علمية بريئا من الغرض وخالصا من شوائب المهاترة والتهديم · واني اذ اشكر للدكتور نجم اهتمامه بهذا المقال وثناءه وتعليقه عليه أود أن ألفت انتباهه وانظار قراء الابحاث الى ما يلي :

لقد دار رد الدكتور نجم حول قضيتين أساسيتين : الاولى تتعلق بالنص الذي وقعت عليه والثانية بالآراء التي أبديتها بصدده · ولعل من الخير أن أعيد هنا ذكر النص الذي يشير الى هذا التأليف في كتاب الذخيرة لابن بسام حين عرض الى كتب ابن حزم فقد قال :

« ومن تواليفه كتاب الصادع والرادع ··· وله كتاب

الجامع في صحيح الحديث ... وكتاب التلخيص والتخليص ... وكتاب الامامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب الى الواجب منها . » (١)

وقد رفض الدكتور نجم قبول هذا النص واشار الى كتاب لابن حزم اسمه السياسة ورد ذكره في مصدرين واقترح تحوير العنوان في النص الذي رفضه فقال : « ان كلمة الخلفاء في هذا النص تستوقف النظر ولعلها اذا صححت وجعلت الخلقاء مثلا كان العنوان منطبقا على موضوع الكتاب « السياسة » نفسه » .

ثم قال : « واذن فهنالك كتاب واحد هو كتاب السياسة كما أشار اليه ابن حزم وابن الرندي ، وقد يشككنا في هذا العنوان ان الذهبي وهو معني بذكر ما وقع له من اسماء كتب ابن حزم لم يذكر كتاب الامامة والسياسة بينها وكذلك لم تذكره سائر المصادر كطبقات الامم لصاعد ــ وهو قريب العهد به ، واستمد اخباره عنه من ابنه ــ والمغرب ، واخبار العلماء ، والنفح ، ووفيات الاعيان . » (٢)

ولست أدري كيف يجوز أن يغير باحث نصا واضحا صريحا ورد في كتاب نشره وحققه اساتذة مدققون لا لشيء الا لانه يؤيد رأيا لغيره ولا يؤيد رأيه . زد على هذا ان الدكتور نجم نفسه أشار الى ان النص قد ورد ايضا في معجم الادباء لياقوت .

---

(١) ج١ قسم ١ ص ١٤٣ .

(٢) مجلة الابحاث مجلد ١٤ ع١ ص ١٢٥ .

وقد دفعتني ملاحظته هذه الى مراجعة بعض الكتب التي تصدت للكلام عن ابن حزم أو عرضت لمؤلفاته علي أجد فيها ما يدفع الشبهة في هذا الصدد ولا سيما ان العنوان المذكور في نص الذخيرة ومعجم الادباء (١) يذكر الامامة قبل السياسة ويصف الكتاب بقوله انه في سير الخلفاء ومراتبهم والندب الى الواجب منها ، فرأيت في ترجمة ابن حزم التي قدم بها الشيخ احمد عمر المحمصاني لكتاب الاخلاق والسير للمؤلف نفسه عند ذكر تصانيفه انه ذكر الكتاب نفسه بهذا الاسم « كتاب الامامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبهم » (٢) ولا أظن الدكتور نجم في هذه الحالة يقترح أن يكون عنوان الكتاب « كتاب الامامة والخلاقة في سير الخلقاء ومراتبهم » .

ورأيت كذلك اسم الكتاب في مقدمة كتاب « الفصل (٣) في الملل والاهواء والنحل الذي صححه الاستاذ عبد الرحمن خليفه مذكورا في باب تصانيف ابن حزم وقد ورد بهذا الشكل » كتاب الامامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها . » (٤)

وقرأت فوق ذلك في كتاب « الرد » على ابن النغريلة

(١) طبعة دار المأمون ١٢ : ٢٥٢ .
(٢) كتاب الاخلاق والسير لابن حزم (مصر ؟) ص ٥ .
(٣) لقد جرى بعض الباحثين ومنهم ناشر الكتاب على تسمية كتاب ابن حزم هذا « الفصل في الملل والاهواء والنحل » بكسر الفاء وفتح الصاد بينما يرتأي اخرون ان تقرأ الفصل بفتح الفاء وتسكين الصاد ونحن نؤثر رأيهم .
(٤) مصر ، ١٣٤٧ ج١ ص ٤ .

اليهودي ورسائل اخرى لابن حزم » الذي أشار اليه الدكتور نجم في مقاله فرأيت في مقدمته اسم الكتاب مذكورا هكذا « كتاب الامامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب الى الواجب منها . » (١)

وفي الصفحة نفسها اشارة من الناشر الدكتور احسان عباس الى ورود ذكر الكتاب في نفح الطيب باسم « الامامة والخلافة . » (٢) وليلاحظ ان هذا يتفق مع اسمه الوارد في مقدمة الشيخ المحمصاني وترجمته لحياة ابن حزم .

ورأيت في كتاب سعيد الافغاني « ابن حزم الاندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة » (٣) جدول مؤلفات ابن حزم فاذا فيه ايضا « الامامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها . » (٤)

واني أرى الآن أن اكتفي بهذا القدر من المراجع والنصوص لان فيها ما يقنع القارىء ان لابن حزم كتابا بهذا الاسم يدور على الامامة والخلافة أو الامامة والسياسة وليس على الاخلاق والتدبير .

(١) تحقيق الدكتور احسان عباس (القاهرة ، ١٩٦٠) ص ٤ .

(٢) ج١ ص ٣٦٥ وفي طبعة بريل التي نرجع اليها (١٨٥٥ — ٥٩) ج١ ص ٥١٣ « وله من الكتب .. وكتاب الامامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبها والواجب منها » .

(٣) دمشق ١٩٤٠ .

(٤) ص ٤٢ .

وهذا يقودنا الى الامر الآخر الذي يتعلق بالنص في ملاحظ الدكتور نجم فقد ذكر كما أشرنا سابقا أن لابن حزم كتابا اسمه السياسة وردت اشارة اليه في مصدرين مختلفين وأردف ان موضوع هذا الكتاب لا يتعلق بتاريخ الخلفاء وانما هو دائر في الاكثر على مسألة التدبير ودراسة طبائع النفوس في شؤون المعاش والاخلاق وانه كان معروفا بنسبته الى صاحبه حتى القرن الثامن الهجري • ثم استنتج بعد هذا انه يجب أن يكون هو الكتاب المشار اليه في الذخيرة واقترح كما ذكرنا ابدال الفاء بقاف في كلمة خلفاء في النص الذي ذكره ياقوت مهملا كلمة « الامامة » وكل العبارة اللاحقة التي تفيد سير الخلفاء • وهذا اجتهاد غريب في قراءة النصوص لا لسبب سوى دفع كتاب الامامة والسياسة الذي يدور على سير الخلفاء عن ابن حزم • ولعله الآن يرجع عن هذا الرأي حين يطلع على هذه النصوص المختلفة التي ذكرناها لا سيما حين يرى بينها ان الاسم هو في بعضها الامامة والسياسة وفي بعضها الآخر الامامة والخلافة وكلها تشير الى ان مادة الكتاب هي في الخلافة والامامة ــ كما هي مادة الكتاب المنسوب لابن قتيبة ــ وليست في الاخلاق والتدبير •

نحن لا ننكر ان لابن حزم كتابا في السياسة أي في الاخلاق والتدبير كما ذكر الدكتور نجم ولكننا نذهب الى أن كتاب السياسة هذا هو غير كتاب الامامة والسياسة أو الامامة والخلافة الذي أشرنا اليه في المراجع المذكورة • وليت الدكتور نجم رجع في هذا الامر الى ما كتبه الدكتور احسان عباس الذي درس ابن حزم ونشر بعض آثاره فانه سيرى في ما كتبه الدكتور عباس في

مقدمته لكتاب ابن حزم « الرد » على « ابن النغريلة » حين عرض لهذين الكتابين ــ كتاب الامامة والسياسة وكتاب السياسة ــ ما ينقض رأيه فقد ورد فيها ما نصه بالحرف :

(كتاب الامامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب الى الواجب منها) الذخيرة ١ ــ ١ ــ ١٤٣ والنفح ١ : ٣٦٥ باسم كتاب الامامة والخلافة ٠٠٠ وقد ذكر ابن حزم كتاب السياسة في التقريب : ١٨١ وهو يدل على ان السياسة بمعنى التدبير ، وذكره ابن عباد الرندي في الرسائل الصغرى : ٥١ ونقل منه شيئا في بعض أحوال النفس الانسانية ٠ وهذا يدل على ان كتاب « السياسة » مختلف في موضوعه عن كتاب « الامامة والخلافة » ٠

ولسنا هنا في مجال البحث عن كتاب السياسة الذي أشار اليه الدكتور نجم ولكننا نذهب الى أنه ليس غريبا أن يكون هو كتاب اخلاق النفس والسيرة الفاضلة لان موضوعهما واحد كما يستدل من النصوص التي وردت عنهما ٠ واذا أجزنا لانفسنا بعض ما أجازه الدكتور نجم لنفسه من تعديل في النص ووضعنا كلمة « أي » بدلا من « وفي » في العبارة التي استند اليها في كتاب التقريب (١) لاصبح الاسمان عنوانا لكتاب واحد هو في الاخلاق والتدبير أي في السياسة ٠ وسواء أكان هذا الكتاب المشار اليه (السياسة) كتابا واحدا أو كتابين مختلفين في الاخلاق والتدبير فهو أو هما غير كتاب الامامة والسياسة أو

(١) الابحاث ١٤ عدد ١ ص ١٢٤ ٠

الامامة والخلافة الذي يدور على اخبار الخلفاء ـ أي الكتاب الذي نزعم انه نسب الى ابن قتيبة وهو ليس له ٠

واذن فلا وزن لجميع ما ذكره الدكتور نجم بشأن كتاب السياسة من انه هو كتاب الامامة والسياسة الذي أشارت اليه المراجع المختلفة انه لابن حزم ٠ وليلاحظ هنا ورود كلمة الامامة قبل السياسة في اسم الكتاب الذي ذكره ياقوت وابن بسام والمقري وغيرهم ٠ وليس طبيعيا ـ ونريد ان نؤكد ان هذا التعبير لا يعني القطع والجزم كما فهمها الدكتور نجم حين علق بقوله : « وهذا الامر الذي بدا له طبيعيا لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يحتاج الى فضل بيان أو مزيد استقصاء » (١) ـ نقول وليس طبيعيا أن يكتب أحد في الاخلاق والنفس ثم يعنون كتابه « الامامة والسياسة » أو الامامة والخلافة ٠ ومهما يكن من أمر فانه لا يصح أن نرفض النصوص الصريحة التي تذهب الى أن الكتاب هو كتاب الامامة والسياسة وأحيانا الامامة والخلافة وانه يدور على سير الخلفاء وأخبارهم ٠ وهذا يتفق مع اسم كتاب الامامة والسياسة ومع محتوياته المنسوب لابن قتيبة وهو ليس له باتفاق جميع الباحثين ٠

اما اشارة الدكتور نجم الى ان الذهبي « وهو معني بذكر ما وقع له من أسماء كتب ابن حزم لم يذكر كتاب الامامة والسياسة بينها » وقوله : وكذلك لم تذكره سائر المصادر

(١) الابحاث ١٤ : ١ ص ١٢٥ ٠

كطبقات الامم لصاعد وهو قريب العهد به ... والمغرب وأخبار العلماء والنفح ووفيات الاعيان فيسهل الرد عليها بقولنا :

أولا : ان كتب ابن حزم فيما ذكر عنه في كتاب الذهبي نفسه وفي غيره بلغت نحو أربعمئة ولم يذكر الذهبي منها سوى ما يقرب من ثلاثين مؤلفا كبيرا ونحو أربعين بين كراريس ورسائل قال في بدء سرد القسم الاول منها انها « أكبر كتبه » ولم يقل جميع كتبه وأنهى الجدول بقوله : « وأشياء سوى ذلك . » فهل من اللازم أن يذكر كتاب الامامة والسياسة بين هذه الثلاثين ؟ واذا لم يذكره فهل ينفى عنه ؟ وماذا نفعل بالمصادر المتعددة التي ذكرته ؟

ثانيا : ان الذهبي نفسه لم يذكر كتاب السياسة ايضا الذي أشار اليه الدكتور نجم على انه من مؤلفات ابن حزم فهل هذا يعني انه لم يؤلفه ؟

ثالثا : ان كتاب طبقات الامم لصاعد الذي أشار اليه والذي استمد صاعد اخباره التي فيه عن ابن حزم من ابنه لم يذكر من المجلدات الاربعمئة التي نوه بها ابنه سوى كتابين لا ثالث لهما واحد في المنطق وآخر لم يسمه في النحو فهل يوجب الدكتور نجم أن يكون الامامة والسياسة مذكورا معهما أو واحدا منهما والا نفي عنه ؟

رابعا : ان المصادر الاخرى التي تكلمت عن ابن حزم ولم تذكر الامامة والسياسة يصدق عليها ما يصدق على كتابي الذهبي وصاعد فهي لم تذكر سوى عدد قليل من كتب ابن

حزم . ومن الغريب حقا ان الدكتور نجم جعل بينها كتاب النفح أي نفح الطيب للمقري دون ان يرجع اليه أو يدقق في مراجعته لأن نفح الطيب كما سبق وقلنا قد ذكر الكتاب بين كتب ابن حزم باسم الامامة والخلافة وقال انه : في قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب الى الواجب منها . فهل هناك بعد هذا مجال للتعليل الذي اقترحه الدكتور نجم .

. أما القضية الثانية التي أثارها فتتعلق بالآراء التي أبديتها لتأييد نسبة الكتاب الى ابن حزم وسأعرض للملاحظ التي أبداها في هذا الشأن . فلقد ذكرت تعرض كتاب الامامة والسياسة للصحابة والائمة . وقد سلم الدكتور نجم بذلك ولكنه رفض أن يصل الامر بابن حزم الى هذا الحد ، وقال انه لو اطلع ابن حزم على هذا لانكر هذه الروايات وانبرى للرد عليها ثم زعم فوق ذلك ان من عرف ابن حزم معرفة دقيقة ممحصة وقرأ كتبه واطلع على آرائه لا يقرني على ان الامر طبيعي بالنسبة لابن حزم . وسأمر بالقسم الثاني من زعمه لأني لا أعرف من هو هذا العالم الذي عرف ابن حزم معرفة دقيقة ممحصة وقرأ كتبه واطلع على آرائه ثم أوعز الى الدكتور نجم انه لا يقرني على ما ذهبت اليه ولا أظن عبارة مثل هذه يمكن أن يقبلها الدكتور نجم من طالب يكتب بحثا علميا بل لعله لو اطلع على مثلها في رسالة علمية تكتب تحت اشرافه لعلق عليها من هو هذا الباحث ؟ ولماذا لم تذكر اسمه ؟ وأين أبدى مثل هذه الآراء القاطعة « التي لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها ولا تحتاج الى فضل بيان أو مزيد استقصاء » ؟

ولنعد الى القضية الاساسية وهي هل كان ابن حزم بالفعل ينال من بعض الصحابة او الائمة ؟ أو هل كان يورد بعض الروايات التي تنتقدهم ؟ فاذا كان الجواب بالنفي جاز ان ينفى كتاب الامامة والسياسة عنه لأن الكتاب المنسوب الى ابن قتيبة لا يخلو من بعض الروايات التي تتعرض للصحابة او الائمة • وهنا يجب علينا أن نعالج الموضوع من ناحيتين ـ الاولى تتعلق بموقف ابن حزم منَ هذه القضية والثانية تتعلق بالروايات • ومن المعلوم أننا جميعا لا نعرف ابن حزم الا من تآليفه التي تحدرت الينا ومن الاخبار التي تناقلها الرواة والمؤلفون عن حياته ودونت في الكتب • فاذا تواترت الاخبار واتفقت مع ما في بعض كتبه فليس علينا أن نرفضها ونقف موقف المدافعين عن ابن حزم اذ نحن قضاة في مثل هذا الامر ولسنا محامين • أجل يمكننا تجريح الرواة والمؤلفين اذا لم نثق بهم ، ويمكننا نقد الاخبار اذا لم نطمئن الى صحتها • ولكن ليس من الحق في البحث العلمي ان نرفضها لانها لم تصادف هوى في نفوسنا أو لأننا نريد أن نأتي بشيء يخالف آراء الآخرين • وغني عن القول انه يجب أن نقيس هذه الامور بمقاييس العصر الذي عاش فيه هؤلاء القدماء وليس بمقاييس عصرنا •

أما هذه الاخبار فقد اوردت شيئا من نصوصها في مقالي الذي نشرته مجلة الابحاث وأراني مضطرا الآن الى اعادة ذكر بعضها لزيادة الايضاح والى اضافة روايات اخرى لم أذكرها قبلا دفعا للتطويل •

فهذا ابن حيان وهو من معاصريه يقول فيه : « حتى

استهدف الى فقهاء وقتــه فتمالأوا على بغضــه وردوا قولــه وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم مــن فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو اليه والاخذ عنه · » (١)

وهذا الامام الحافظ ابن حجر العسقلاني وهو من هو في نقد الرجال يقول في ترجمته لحياة ابن حزم في كتــاب لســان الميزان : « ومما يعاب به ابن حزم وقوعه في الائمة الكبار بأقبح عبارة وأشنع رد » (٢) ونريد ان نعلق هنا ان ليس في كتــاب الامامة والسياسة على ما فيه من نقد وقدح عبارات قبيحــة نستنكرها وهذه الروايات التي زعم الدكتور نجم أنه لو رآها ابن حزم لانكرها وانبرى للرد عليها ليست شيئا اذا قيست بما نسب اليه او اتهم به ·

وهذا ابن خلكان وهو عالم متزن جليل يقول عن ابن حزم: قال العباس ابن العريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج ابن يوسف شقيقين وانما قال ذلك لكثرة وقوعه في الائمة » (٣) أهناك أبلغ من هذه العبارات الموجزة الموجعة في الاخبار عــن الوقوع في الائمة ؟

وروى ابن بسام في الذخيرة وهو يكتب عن سيرة ابن حزم قال : قال ابن حيان : وكان مما يزيد في شنآنه تشيعه لامــراء بني امية ماضيهم وباقيهم بالمشرق وبالاندلس واعتقاده لصحة

---

(١) الذخيرة ج١ ص ١٤١ .
(٢) لسان الميزان قسم ١ (حيدر آباد ، ١٣٣٠) ج٤ ص ٢٠١ .
(٣) وفيات الاعيان ٣ : ١٥ .

امامتهم وانحرافه عمن سواهم من قريش حتى نسب الى النصب لغيرهم . » (١) وليلاحظ القارىء هنا كلمة « امامتهم » وكيف تتفق مع اسم الكتاب الامامة والسياسة الذي نحن بصدده .

حتى الذهبي الذي دافع عن ابن حزم لميل اليه فانه قد قال عنه : « وقد امتحن لتطويل لسانه في العلماء وشرد عن وطنه » ثم قال : « وأنا لي ميل الى ابي محمد (يعني ابن حزم) لمحبته في الحديث الصحيح ومعرفته به وان كنت لا اقطع بخطأه في غير ما مسألة ولكن لا أكفره ولا أضلله وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين . » (٢)

وقال المقري فيه : « وعلى الجملة فهو نسيج وحده لولا ما وصف به من سوء الاعتقاد والوقوع في السلف الذي أثار عليه الانتقاد سامحه الله . » (٣)

اما ابو بكر ابن العربي فقد حمل بشدة على ابن حزم فقال فيه : نشأ وتعلق بمذهب الشافعي ثم انتسب الى داود ثم خلع الكل واستقل بنفسه وزعم انه امام الأمة يضع ويرفع ويحكم ويشرع ... » « وقد جاءني رجل بجزء لابن حزم سماه نكت الاسلام فيه دواهي فجردت عليه نواهي وجاءني آخر برسالة في الاعتقاد فنقضتها برسالة العزة [والامر] افحش من أن ينقض » . (٤)

(١) ج١ قسم ١ ص ١٤٢ .
(٢) سير النبلاء للذهبي (دمشق ، ١٩٤١) ص ٢٧ و ٣٠ — ٣١ .
(٣) نفح الطبيب ج١ ص ٥١٢ .
(٤) سير النبلاء ص ٢٠ — ٣١ .

أيمكن أن يقال فيه بعد هذا « فليس ثمت من هو أشد توقيرا للصحابة منه ؟ » وبعد لماذا احرقت بعض كتب ابن حزم ومزقت علانية ؟ ألأنه كان أشد الناس توقيرا للصحابة واحتراما للسلف ؟ وما لنا نذهب بعيدا في سرد الروايات التي تؤيدنا في ما عيب على ابن حزم ، ونحن نرى ان الدكتور نجم نفسه يخالف نفسه ويقر هؤلاء الرواة على بعض ذلك فقد قال في رد هذه التهم عن ابن حزم : « ان خصومه من أهل المذاهب الاخرى كانوا اذا أرادوا سند القياس والاستدلال والتقليد وما الى ذلك من أركان مذاهبهم عمدوا الى الاستشهاد ببعض ما عمله الصحابة والائمة السابقون وكان ابن حزم لا يتورع من ان ينسب الخطأ الى اولئك الائمة دفاعا عن فكرته في منع التقليد والاستدلال والقياس » (١) ونظن ان هذا الاقرار يكفي للدلالة على ان ابن حزم كان في بعض الاطوار من حياته يقع في بعض الائمة ولا يتورع أن ينسب الخطأ اليهم . واريد أن أطمئن الدكتور نجم اني من المعجبين بابن حزم برغم ما له من نقائص وسخافات ولست أدينه أو أصدر الاحكام على اخلاقه ولكني احاول أن ألتمس من الاخبار عنه ما يثبت بعض ما نسبوا اليه في هذا السبيل مما يؤيد نظرنا في نسبة كتاب الامامة والسياسة اليه . قال نكلسن وهو مستشرق كبير موثق عند اكثر الباحثين في بحثه عن ابن حزم بعد ان اثنى عليه كثيرا : « ان مجرد اتباعه للمذهب الظاهري لم يكن سبب نكبته ولكن اسلوبه اللاذع الذي هاجم به اعظم الشخصيات الدينية الاسلامية المحترمة هو الذي

(١) الابحاث مجلد ١٤ ع١ ص ١٢٥ .

أثار عليه من الخصومة والعداء ما جعل الفقهاء يضطهدونه ويحرمونه بحيث احرقت كتبه في اشبيلية . » (١)

بقي مسألة كتاب الامامة والسياسة نفسه وهل يتفق مع ميول ابن حزم ومذهبه الظاهري وآرائه التي عرف بها أو ما سماه الدكتور نجم بمنهج ابن حزم في كتبه ، يعني شاهد المعارضة ومن هنا ما حاولنا من مقابلة بين آراء هؤلاء المؤرخين وبين ما في الامامة والسياسة وكنا نود لو كان كتاب الامامة والسياسة قد عرض للمذاهب المختلفة وتفنيد آراء الفقهاء اذن لزالت كل شبهة في الموضوع . ولكن الكتاب قبل كل شيء كتاب في التاريخ وهو في سير الائمة والخلفاء وبعض التاريخ المتصل بهم . والكتاب كما لاحظنا بعد درسه حافل بالاخطاء المطبعية وغيرها لم يسلم من الدس والتحريف والاضطراب في الروايات (٢) وليس فيه تناسب بين فصل وفصل بل قد رأينا فيه أبوابا اقحمت فوضعت في غير مواضعها واخبارا اخرت فوردت في غير ابوابها . وليس بعيدا ان تكون النسخة الخطية الأولى منه قطعة من كتاب انقذت مما أحرق من كتب ابن حزم ثم ضمت بعض أوراقها متسلسلة أحيانا وغير متسلسلة وحذف منها وزيد عليها كما جرى لكثير من الكتب القديمة فكانت هذا الكتاب الذي بين أيدينا .

---

(١) A Literary History of the Arabs (London, 1923) p. 427.

(٢) نعيد ما ذكرناه في المقال السابق من وجوب نشر الكتاب نشرا علميا صحيحا بعد درس النسخ الخطية المختلفة ومقابلتها مع بعض النصوص في الكتب القديمة الاخرى .

ولو فرضنا جدلا ان الكتاب سالم من الدس والاضطراب وانه لم ينقص ولم يزد ولم يحرف بعض ما فيه فليس من اللازم ان يمثل طريقة منهجية خاصة • ذلك انه مجموعة اخبار عن الخلفاء السابقين منقولة عن كتب اخرى • ومع ان الجامع قد بدأ بذكر بعض الاسانيد في الصفحات الاولى فانه اهمل الاسناد في كل الكتاب واكتفى بكلمات يبدأ بها الخبر ، مثل «وذكروا» أو « قال » أو « قالوا » أو « قال وذكروا » ولا تزيد الابواب التي فيها شيء من الاسناد ـ وهو اسناد مشوش مضطرب عن اربعة او خمسة بينما تبلغ تلك الخالية من الاسناد نحو ٢٦١ بابا كلها منقولة عن اقوال جماعة سابقين او عن كتب لهم دون اسناد ما ، ولعل المؤلف أو الجامع قد نقلها عن أساتذته في أول نشأته أو من كتب كلف أن ينسخ هذه المادة منها • وقد لاحظنا حين قابلنا بعض النصوص فيه بما في كتاب العقد لابن عبد ربه الاندلسي فوجدنا انها تكاد تتفق بالحرف • وهذا يدل على انه ليس لجامعها رأي أو يد في تأليفها سوى الاختيار في بعض الاحيان في تصنيفها أو اختصارها على طريقة القدماء أمثال ابن قتيبة وابن عبد ربه • ولسنا نرى سببا يمنع أن يكون ابن حزم ألف هذه المجموعة أو نقلها من كتب مختلفة عن جماعة من أساتذته وشيوخه القدماء في اول نشأته حين لم يكن قد تعمق بعد في درس الفقه أو تبع المذهب الظاهري • وقد لاحظ محمد أبو زهرة في دراسته عن ابن حزم ان ابن حزم في تراثه العلمي نفسه لم يكن يجري في مدار واحد بل تعددت آفاقه واختلفت

اتجاهاته . (١) ولاحظ ناشرو جوامع السيرة (٢) انه نقل نقولا متفرقة في شيء قليل من التصرف .

قالوا : « وقد أفاد ابن حزم في كتابة السيرة مما صنعه قبله شيخه ومعاصره أبو عمر ابن عبد البر مؤلف كتاب « الدرر في اختصار المغازي والسير » ، ونحن لا نملك من هذا الكتاب صورة كاملة أو وافية تدلنا الى أي مدى اعتمد عليه ابن حزم ولكن النقول القليلة التي احتفظ بها ابن سيد الناس من كتاب أبي عمر المذكور تؤكد ان ابن حزم قد نقل عن شيخه نقولا متفرقة في شيء قليل من التصرف ــ الا ان نفترض ان المؤلفين يعني ابن عبد البر وابن حزم ينقلان عن مصدر ثالث لم يقع الينا . ثم قالوا : « حتى ان شدة اتباعه لرواية ابن اسحق في هذه المواطن لتطلعنا على ظاهرة عجيبة فقد حافظ ابن حزم على النسب الكامل لاكثر من ذكرهم من الاشخاص وليس هذا مما يستغرب منه وهو صاحب الجمهرة في الانساب انما الغريب حقا انه في السيرة اختار رواية ابن اسحق نفسه في النسب بينما لم يأخذ بها في الجمهرة فلعله ألف الكتابين في فترتين متباعدتين أو لعل مصادره في الجمهرة كانت كتبا اخرى ليست تحتوي على رواية ابن اسحق . » (٣) نريد ان نخلص من هذا انه ليس من اللازم ان يكون للكاتب اسلوب في الكتابة متفرد لا يحيد عنه أو طريقة منهجية لا يغيرها أو ميل عقائدي أو سياسي يطبق على

---

(١) ابن حزم حياته وعصره ص ٨ و ص ١٢ .
(٢) مصر ١٧٧٦هـ .
(٣) ص ٨ .

كل ما كتب في جميع أطوار حياته فقد يكون ناقلا وقد تكـون طريقته في شبابه غيرها في كهولته وقد يتغير منهجه وتتغير ميوله لا سيما اذا كان الامران قد صدرا في فترتين متباعدتين أو كان الشخص نفسه فوق ذلك قد تقلب بين مذاهب مختلفة كما فعل ابن حزم وكان مالكي المولد والنشأة فانقلب شافعيا ثم صـار بعدها ظاهريا . ونريد ان نعلق هنا ان ابن حزم مر في طور من اطوار حياته ، كما روى عنه الذهبي ، عكف في منزله بعد جدل فقهي لم يبرز فيه ثم خرج بعد ذلك وناظر أحسن مناظرة قال فيها أنا أتبع الحق واجتهد ولا اتقيد بمذهب . (١) .

ويجب أن نلاحظ هنا ان الحكم على نصوص النسخـة المطبوعة لا يجوز الا بوجه عام لانها لم تنشر نشرا علميا وهي محشوة كما ذكرنا بالاخطاء النسخية والمطبعية وقد عارضنـا بعضها على نسخة خطية في المتحف البريطاني فوجدنا اختلافا كثيرا حتى في أسماء رجال السند القلائل المذكورين في أولهـا فهناك ابن أبي ليلى مثلا بدلا من ابن أبي مريم وكذلـك ان النسخة التي اطلع عليها كاينكوس تختلف ايضا عن المنشورة التي رجعنا اليها كما لاحظنا في مقالنا السابق . ومن هنا فلسنا نقيم ايضا وزنا للملاحظ التي أبداها الدكتور نجـم بشأن تمييز علي عن الصحابة واستعمال عبارة « كرم الله وجهه » بعد ذكر اسمه في النسخة المطبوعة وكيف انها تختلف عمـا في كتب ابن حزم الاخرى حيث يذكره ويتبع اسمه بـ « رضي الله عنه » بدل « كرم الله وجهه » وننكر عليه كذلك قوله ان صاحب

---

(١) الذهبي ص ٣١ .

الامامة والسياسة مصر على هذا التمييز • ففي النسخة المطبوعة التي رجع اليها الدكتور نفسه صور مختلفة متعددة للعبارة التي تتلو اسم علي فهي ليست في كل المواضع « كرم الله وجهه » اذ هناك لا اقل من عشرة مواضع فيها « رضي الله عنه » وهناك موضع فيه « عليه السلام » وهذه اكثرها في عناوين الابواب اما النسخة الخطية التي اطلعنا عليها فهي خالية من اكثر هذه العناوين • واذن فليس هناك اصرار على التمييز من قبل صاحب الامامة والسياسة حتى ولو كانت عبارة « كرم الله وجهه » قد استعملت في النسخة المنشورة اكثر من العبارة الاخرى • ولعل الدكتور نجم لا يجهل ان مثل هذه العبارات كثيرا ما تكون من وضع النساخ لا سيما اذا كان اكثرها في العناوين كما نرى في الامامة والسياسة ولعلها تمثل ميول الناسخين لا ميول المؤلفين وهذا ابسط ما يدسه بعض النساخ والناشرين •

ومع هذا نود أن نهمس بأذن الدكتور نجم أنه مخطىء حين قال : « ان ابن حزم لا يمكن أن يقول بعد ذكر علي « كرم الله وجهه » اذ لا يميزه عن سائر الصحابة ولذلك نجده يلحق اسمه حيث ورد في كتبه بقوله « رضي الله عنه » (١) فهل قرأ كل كتب ابن حزم ليأتي بمثل هذا الحكم القاطع ؟ انا نحيله بهذا الشأن الى كتاب جوامع السيرة وقد نشر نشرا علميا دقيقا وهو دون شك قد قرأه فسيرى فيه ذكر ابن حزم لعجائب النبي ما نصه : « وتفل في عيني علي رضوان الله عليه وهو أرمد يوم

(١) الابحاث ١٤ : ١ ص ١٢٩ •

خيبر فصح من حينه ولم يرمد بعدها وبعثه بالراية وقد قال لا ينصرف حتى يفتح الله عليه فكان كما قــال ، لم ينصرف كرم الله وجهه الا بالفتح . » (١) .

وسيرى في خبر الامراء الذين ولاهم النبي ما نصه : « وولى علي ابن ابي طالب كــرم الله وجهــه على الاخماس باليمــن والقضاء بها . » (٢)

وفي خبر أولاد النبي وهو يتكلم عــن فاطمة ما نصــه : « وتزوجها أمير المؤمنين علي ابن ابي طالب كرم الله وجهــه فولدت له الحسن » الخ . (٣)

وفي خبر الغزوات والبعوث ما نصه : « ودفع الراية الواحدة الى علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه » . (٤) ترى أيغير رأيه بعد هذه الشواهد ؟

وقد استغرب الدكتور نجم في ملاحظته الثانية أن يقــف المؤلف في سرد تواريخ الخلفاء عند مقتل الامين ولكن المؤلــف نفسه أو الجامع ذكر السبب في ذلك في كتاب الامامة والسياسة كما أشرنا في مقالنا السابق فلا حاجة لاعادته .

ونرد على الملاحظة الثالثة بشأن ورود ذكر مراكش فنقول اننا سبق فقلنا انا لم نقع على ذكرها في النسخة المطبوعة ففيها

---

(١) جوامع السيرة ص ١٣ .
(٢) جوامع السيرة ص ٢٤ .
(٣) جوامع السيرة ص ٣٩ .
(٤) جوامع السيرة ص ١٠٨ .

ذكر المغرب لا مراكش ونضيف الآن ان نسخة المتحف البريطاني خالية ايضا من ذكرها ولكننا نستغرب كثيرا كيف يتذرع الدكتور نجم بذكرها وقد رفضناه ثم يرفض ذلك حين يحاول ان ينسب هذا القسم من الكتاب الذي وردت فيه الى مؤلف مصري عاش في القرن الثالث ٠

ونرد على الملاحظة الرابعة وهي مسألة الاقتصار على ذكر فتح الاندلس وقوله : « فانها تغري الباحث بأن يتساءل لماذا تحذف من الكتاب قصة الفتوحات في الاقاليم الاخرى » بأننا نقره على هذا التساؤل فهو الذي جعلنا نميل الى تأييد النص ولكننا لسنا نذهب الى انها الدليل القاطع او الاوحد على ان مؤلف الكتاب اندلسي أو الى أن كونه اندلسيا ينصرف الى ابن حزم على التعيين بل لسنا نذهب الى ان اي دليل وحده هو الدليل القاطع ٠ انما هي أدلة يسند واحدها الآخر ٠

أما ملاحظته في مسألة العصبية لبني أمية وانها لو صحت لنفت نسبة الكتاب اليه دون عناء فلم نفهم المقصود منها ولعلها حجة عليه ٠ فهو ينكرها في بعض ملاحظه ثم يعود فيقبلها لرد حجة اخرى ٠ ولا بد من الاشارة الى هنا انه ليس من المحتم على من يتشيع لبني امية ان يدافع عن كل خلفائهم وأمرائهم أو أن ينزه من عرف منهم بالفسق أو الفجور فينتحل له الاعذار ٠ وانما يكفي أن تبدو نزعته من خلال ما يكتب أو يترك من آثار (١) ٠ ولم يتفرد القدماء بذكر هذه النزعة بل ان بعض

(١) نلاحظ هنا ان ليس في الامامة والسياسة تعصب شديد للامويين ولا اعتذار عن كل ما حدث في ايامهم ومن هنا فالكتاب لا يخالف ما لاحظه في كتب ابن حزم محققا جوامع السيرة .

الذين درسوا ابن حزم لاحظوها فيه ٠ فقد عارضه محمد أبو زهرة بقضية السيادة والفضل في حديث نبوي فقال : « ولذلك أخالف ابن حزم وأحسب قوله هذا من شدة رغبته الاموية ٠ » (١) وعارضه لقبوله كلاما منسوبا لعمر يتنافى في رأي محمد ابي زهرة مع كل ما عرف عن عمر وهو انه قال : كان أبو بكر خيرا من معاوية وكان معاوية اسود من أبي بكر فعلق عليها : ولكن النزعة الاموية سهلت للحافظ ابن حزم وهو الثقة أن يقبل مثل هذا الكلام مع غرابته ٠ (٢)

وأريد أن أذكر في الختام ان كتاب الامامة والسياسة كما هو الآن لا يتميز بمنهج مؤلف خاص أو مدرسة خاصة وانما هو مجموعة من الاخبار عن الخلفاء الراشدين والخلفاء الامويين في المشرق وأوائل دولة بني العباس وعن بعض الفتوحات التي تمت على يد موسى ابن نصير وأيدي أعوانه في افريقية والاندلس (٣) وهو أشبه ما يكون بنقول جمعها ناشيء أو مدرس لتكون بين أيدي طلابه ٠ ولعل أقوى ظاهرة فيه انه كتب في اسلوب مختصر سهل المأخذ وان جامعه أو كاتبه كان طليقا الى حد ما غير مقيد بكثير من قيود الاغراض الدينية والزلفى الى الحكام ، جريئا بحيث استطاع أن يورد كثيرا من

(١) ابن حزم حياته وعصره ص ٢٥٦ ٠

(٢) ابن حزم حياته وعصره ص ٢٥٧ ٠

(٣) هذا لا يمنع ان تكون المادة عن هذه الفتوحات منقولة عن كتاب الفه معارك ابن مروان احد احفاد موسى ابن نصير (انظر جذوة المقتبس للحميدي ، مصر ، ١٣٧١) ص ٣١٧ ٠

الروايات المتناقلة التي عرضت لبيان اخطاء بعض السلف من صحابة وأئمة دون تعليق أو مناقشة الا ما نقل عن القدماء ٠

وفي الكتـاب فوق ذلـك كثـير مـن الاضطـراب والدس والتشويش وليس غريبا أن تكون لعبت في تضاعيفه عند جمعه وبعده أيد كثيرة انقصت وزادت وحرفت ومسخت ومن هنـا وجوب نشره نشرا علميا صحيحا بعد مراجعـة جميع نسخـه الخطية ومقابلة مادته بنصوص اخرى من الكتب القديمة التي يمكن أن تكون استمدت منها وقد وجدت بالفعل نحو ثلاثـين صفحة منه تكاد تتفق بالحرف مع نقول وردت في العقد تحـت أبوابها المختلفة ٠ منها ما نقل عن ابي معشر ومنها ما نقل عن الهيثم ابن عدي ومنها ما نقل عن الجاحظ ومنها مـا نقل عـن المدائني ٠ وكما ان ابن عبد ربه الاندلسي قد نقل كثيرا من اخياره في عقده عن ابن قتيبة فليس غريبا أن يكون في الكتاب نقول عن ابن قتيبة وقد ذكر اسم الاخير في النسخة المطبوعة في أوائل بعض الابواب ولعل هذا كان ايضا من الاسباب التـي جعلت بعض النساخ ينسبون الكتاب الى ابن قتيبة حين طمس اسم مؤلفه الحقيقي ٠

حتى تاريخنا الناصع تزوّره الشهوات

بقلم الشيخ عبد الله العلايلي

مجلة الفكر العربي عدد ١

لعل موضوعا في مطلع هذا القرن ، لم يثر من حوله الاهتمام الذي آثاره موضوع احراق العرب لمكتبة الاسكندرية. فقد اتخذ سبيله الى كل لون من الوان النشر ، واشرك فيه جمهرة كبيرة من اعلام البحث يومذاك . وركدت حدته بانجلاء جانب الشبهة فيه ، وتكشف مقدار الوهم العالق به .

وانما دفعنا اليوم الى اثارة بحثه من جديد ، ان الدكتور فيليب حتي في كتابه « العرب » الذي ظهر حديثا بحلة عربية قشيبة ، عرض لهذا الموضوع وتركه حيث هو في مثار الشك ، بل ظهر فيه مميلا فلم يقطع بسلب أو ايجاب . وكان عليه وهو يقدم فيه خلاصة سائغة ــ أن يقصره فقط على ما هو حقيقة تاريخية في عرف البحث التاريخي .

ولكي لا يخامر بعض الناس ريب ما ، نزود القراء بخلاصة سائغة عن ابحاث الاعلام الذين بحثوا الموضوع

ولا سيما بحث الاستاذ محمد مسعود (١) ٠

مكتبة الاسكندرية : دار كتب الاسكندرية ، أسسها في أشهر الآراء ، بطليموس سوطر الاول في القرن الرابع قبل الميلاد أي منذ ٢٣٠٠ سنة تقريبا ، وكانت تضم على ما يقال (٢٠٠) ألف مجلد ، كما أضاف اليها خلفه فيلا دلفوس سائر ما كان أرسطو قد جمعه من المصنفات العلمية والفلسفية ٠

ومن الخير أن ننبه هنا الى ان المجلد في مكتبة الاسكندرية لم يكن بحجم المجلدات الآن أو على مثالها وضعا وغزارة مادة٠ وانما كان صغير الحجم قليل المادة لان قابلية ورق البردي للعطب دعت الى تجزئة كل مصنف اجزاء صغيرة بشكل الملفات، وكل جزء منها يقابل بابا من ابوابه ٠ وقد اعتبر القدامى هذه الاجزاء في التعداد مجلدات قائمة بذاتها ٠

وكانت دار الكتب المذكورة في بدء أمرها ، قسما من القصور الفسيحة التي أعدها الملوك البطالسة لسكناهم وايواء العلماء فيها على مقربة منهم ، بالحي المعروف وقتئذ « بحي البروخيون » الذي يطابق موقعه من الاسكندرية اليوم موقع الاماكن المجاورة لمحطة الرمل ، فيما بين شارع الباب الشرقي وشارع شريف باشا على وجه التقريب ، وكانت تلك القصور في مكان هذه المحطة أو ما يليها قليلا الى الغرب ٠

(١) هو محاضرة القاها الاستاذ المذكور يومذاك في نادي الموظفين بالقاهرة ونشر في مجلة الملاجىء العباسية مجلد ١١ عدد ١٠ ص ٥٢٣ — ٥٣٧ .

الاحداث الوثيقة التي مرت بها :

اتفق ، لما آل الامر الى قلبطرة « كيلوبطرة » قبل الميلاد ببضع عشرات من السنين ، ان اسطول الامبراطور يوليوس قيصر الروماني كان راسيا في مياه الاسكندرية « بالميناء الشرقي الآن » تجاه قصر الملك ، لقمع الفتنة التي شبت فيها فشبت النار فيه ، واتصلت من ثم بالقصر الملكي بريح غربية فدمرته ، كما دمرت بعده دار التحف فالمكتبة حتى لم يبق منها سوى مجلدات ــ أي ملفات ــ قليلة العدد ، نقلت من بعد الى مكتبة « هيكل السرابيوم » التي كانت تسمى يومئذ بدار الكتب الصغرى ٠

وعلى اثر ذلك أراد انطونيوس أن يرأب هذا الصدع فأهدى قلبطرة كتب مكتبة « برجامة » من مدائن آسيا الصغرى ، وكان يبلغ عددها مائتي ألف ، فضمتها الى كتب مكتبة السرابيوم التي غدت دار الكتب الوحيدة في الاسكندرية ٠

والسرابيوم هذا كان معبدا مشيدا على الاكمة التي يوجد بأعلاها الاثر المعروف « بعمود السواري » ، وكان محاطا برجال العلم والفلسفة ولذا سماه العرب في كتبهم برواق الحكمة ٠ وكانت مكتبة الاسكندرية الثانية موجودة بالطبقة السفلى منه ، وما برحت فيها الى سنة ٣٩٠ للميلاد التي أمر فيها الامبراطور طيودوزس بازالة الهياكل الوثنية ، فاندفع الاسكندريون ودمروا الهيكل وأتلفوا ما فيه وألقوا بتمثال « ابيس » في الطريق العام ٠

الايجابيون خيال الاسطورة :

يرقى العهد بها الى الفيلسوف المؤرخ « عبـد اللطيـف البغدادي » ويتصل بأبي الفرج الملطي اليعقوبي ، ثـم تتخذ أشكالا من القطع عند « فللر » في معجمه الذي ألفه في تراجـم حياة مشهوري الرجال ، مادة « عمر » :

« ان العرب لم يأتوا من ضروب الايذاء في فتوحاتهم الا ما اضطرتهم اليه الحاجة ، وهم انما تركـوا لتعصبهم العنان في حادث احراق دار كتب الاسكندرية ، وهو الحادث الذي وصم سيرة عمر بما لا يمحوه الزمان » ٠

٠٠ وورد في القاموس الكبير العام للقرن التاسـع عشر « ان ذكرى حريق هذه الدار لا تزال لاصقة بسيرة عمر ابـن الخطاب ، بل ما برح اسم هذا الخليفة بسببه مرادفا لمعنى الفاتح المدمر » ٠٠ وفي سنة ١٨٥٧ قدم المسيو شارل دوبان الى مجمع العلوم الفرنسي مذكرات عن قنال السويس ، ومما جـاء في تعليقاته على تلك المذكرات قوله : « لما فتح عمر مصر ، اقترح عليه عمرو بن العاص ايصال ما بين السويس وبيلوزه « الفرمة الآن » بقناة ٠ ثم قال ولكن ذلك الفاتح الـذي أحرق كتـب الاسكندرية لم يكن عقله الضيق ليدرك مغزى هـذه الفكـرة السامية وفائدة هذا المشروع الجليل » ٠٠ ومن الخير التنبيـه هنا الى ان القناة كانت موجودة فعلا ، وانما كانت في حاجة الى الاصلاح فقط وعمر بن الخطاب هو الـذي أمر باصلاحها ، وانما استطردنا بهذا التنبيه لنرى مقدار الاوهام التي لا تزايل اقلامهم فيما يكتبون ٠

العاذرون بحرقها :

يأخذ بنا العالم ميشو مأخذا غريبا للاعتذار عن هذا الصنيع فيقول : « يلومون عمر بن الخطاب لانــه أمر قائــده في مصر باحراق دار كتب الاسكندرية ، نعم ان هذا الحادث الذي وضع في أيامنا هذه موضع الريبة والشك ، لا ينبغي أن نقع تبعته على عمر وحده ـ ان صح ـ بل على عهد الجهل والتهوس . ألم تر في القرن الثامن عشر أمة متمدنة ، قد أبادت المؤلفات التي كتبت في آداب التتر والتبت ، وكانت محفوظة في مكتبة ابلايكيت » .. وكذلك جيبون في كتابه « تــاريخ اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية » حيث يقول : « من المحتمل انه كان هناك مكتبة ولكن اذا كانت الكتب الضخمة التي تألفت منها هي المجادلات والمناظرات الدينية الشكليــة الدائــرة على اللفظ والاسلوب ـ وهي هي التي أوقدت بها الحمامات العمومية ، فان ذوي الافكار الصائبة يقرون بأن هذا العمل جاء مفيــدا للنوع الانساني » .

السلبيون حيال الاسطورة :

نجد أول ما نجد عند المؤرخ عبد الله خالد الملقب بالشامي من أهل القرن الثامن للميلاد عند كلامه على عمود السواري هذا النص وهو :

« ان عمود تل السواري كان وسط مائة عمود تحمل رواق الحكمة ، وكان هذا الرواق يحتــوي على كتب قديمة ونفيسة

مكتوبة بحروف لا يحل رموزها غير العلماء والمنجمين • وقد اتلفت في عهد الروم هذه الكتب ، خشية ان يتوصل سحرة الوثنيين بها الى الايذاء ، ولكي يوقنوا من عدم بقاء كتاب واحد هدموا المكان الذي كان يحويها وجعلوا عاليه سافله » •

ثم نجد عند المؤرخ « شويل » ما يأتي « ان مكتبة الاسكندرية التي احرقت للمرة الثانية سنة ٣٩٠ للميلاد لا يوجد دليل ما يثبت انها اعيدت • أما رواية أبي الفرج الملطي التي ذهب فيها الى وجودها فكاذبة في ذاتها ، ولهذا ينبغي حسبان زعم الزاعمين بأن العرب احرقوها في عداد الاغلاط التاريخية » •

وورد في النهر الثاني من ص ١٨٠ من ج ١ من موسوعة لاروس ضمن مادة « اسكندرية » بعد كلامه على المكتبة الاولى « اما دار كتب السرابيوم وهي التي اضيفت اليها مكتبة برجامة ، فقد دمرت سنة ٣٩٠ اثناء المعارك التي قامت بين الوثنيين والمسيحيين » •• وقال العلامة شارل بارتلمي في كتابه « الاغلاط والاكاذيب التاريخية » ج ١١ ص ١٧٩ ما نصه :

« من الجائز ان يكون قد بقي باق من كتب مكتبة السرابيوم بعد تدميرها سنة ٣٩٠ الى عهد الفتح العربي في القرن السابع ، الا ان سكوت كتاب ومؤرخي القرنين الخامس والسادس جميعا عن هذا الامر وعدم اشارتهم بكلمة واحدة اليه لا سيما النصارى منهم ، لمما يدعو الى الشك في رواية المؤرخ الذي قال بوجود مكتبة في الاسكندرية ، ابان الفتح العربي ،

وان الخليفة عمر امر باحراقها » • وشارل بارتلمي هذا عضو في الاكاديمية الكاثوليكية برومية ، وكتابه طبع باذن قداسة البابا بيوس التاسع •

بيان وايضاح :

مما تقدم في سرد الاحـــداث الوثيقة التي مرت بالمكتبة ، يظهر انها دمرت مرتين في مدى ٤٣٧ عاما ، مـــرة في سنة ٣٩٠ بامر الامبراطور الروماني « طيودوزس » ، وانه لم يكن خلاف في انها احرقت او دمرت في هذه المرة الثانية •

وقد زار الاسكندرية سنة ٤١٤ م اي بعد الحريق الثاني باربعة وعشرين عاما وقبل الفتح العربي بمائتين وثلاثين عاما تقريبا ، المؤرخ « بولس اوروز » فلـم يذكـــر في كتاب رحلته شيئا عن دار كتبها •

ثم لا نجد عند معاصري الفتح العربي مثل «اوتشسيوس» بطريرك الاسكندرية ذكرا لها او لاحـــراقها ، رغم ان تاريخه تضمن وصف هذا الفتح وصفا ضافيا •

وبعد خمسمائة سنة على الفتـــح العربـــي تـــروى رواية الاحراق ويوصم بها العرب . هذه الرواية التي روج لها « أبو الفرج الملطي اليعقوبي المعروف بابن العبري » والمعروف عند الافرنج باسم غريغـــوريوس بارعبـــرايوس » • فقـــد وضع باللغة السريانية كتابا اورد فيه حوادث التاريخ منذ الخليقة ،

ثم ترجمه بنفسه الى العربية والاصل والترجمة متطابقان في معناهما ومبناهما ، الا فيما يتعلق بحريق دار الكتب المذكورة، فانه اورده في الترجمة العربية وحدها دون الاصل ٠

النتيجـــة :

بحسبنا دليلا على ان رواية ابن العبـري فريـة محضة ، عدم ايرادها في الاصل السرياني لتاريخه فضلا عـن الفاصلة الزمنية الكبيرة والانقطاع التاريخي الساحق ٠

ولو صح وجود مكتبة ـ وان دينية ـ ابان الفتح العربي ، فقد كان نقلها ممكنا في مدة الهدنة التـي اعطيـت قبل تسليم الاسكندرية ، وفقا لمـادة في المعاهـدة تسمـح بنقـل الاشياء الثمينة ، وكان طريق البحر اذ ذاك مفتوحا ٠

ويذهب الكثيرون الى تفسير صنيـع ابـن العبري ، بانه حين رأى في عصره طغيان نزعة التفلسف وطغيان ما تجر اليـه من شكوك حادة ، اثبت في نسخة تاريخه العربي هذه الرواية ، وهي تسند الى خليفة كبير ، تحريضا واستفزازا علـى الايقاع بهذه النزعة المستفحلة وانصارها ، وهي منه جزء متمم لحركة الصراع التي نشبت واستمرت بين الفلسفة والدين ٠

وبذلك ننتهي من المؤرخ « شويل » الـى انـه آن في حقل التاريخ المحقق ، أن تحسب هذه الروايـة في عـداد الاغـلاط التاريخية النكـراء ٠

مكتبة الإسكندرية ..
من الذي اتهم العرب بإحراقها ؟

ومن الذي دفع عنهم التهمة ؟

« رد على نقد »

قرأت بامعان ودقة مقال الصديق الكريم الشيخ عبد الله العلايلي في العدد الاول من هذه المجلة ــ مجلة الفكر العربي ــ الذي يدور حــول التهمــة التــي اتهــم بها عمر ابن الخطاب ــ بطلا وبهتانا ــ انه امر باحراق مكتبة الاسكندرية ، فعجبت كما عجب غير واحد من زملائي الذين قرأوه ، كيف أن الشيخ العلايلي لم يعالج الموضوع بشكل علمي يتفق مــع مــا أعرف عنه من علم ومقدرة وفهم وكيف انه اوهم القارىء ــ عن غير قصد فيما اعتقد ــ ان الدكتور فيليب حتي حــين عــرض لهذا الامر في كتابه تاريخ العرب الموجز لم ينف عــن العــرب هذه التهمة وانه تركها في مثار الشك • وقد ادهشني بنــوع خاص انه جعل موضوع مقاله هكذا : « حتى تاريخنا الناصــع تزوره الشهوات » وهو موضوع ، اذا قرىء متــن المقــال في ضوئه ، يوهم القارىء ان الدكتور حتي هـــو الــذي يــزور تاريخنا الناصــع •

وقد أخذ على الشيخ عبد الله أكثر من باحث موقفه من الدكتور حتي فكتب في العدد الثاني من هذه المجلة معلقا يذكر انه اتهم ذاكرته أول الامر ، فرجع الى كتابي حتي المطول والموجز فوجد ما يتفق مع الرأي الذي أبداه ·

وقد رأيت دفعا لهذا الوهم الذي يمكن أن يساور نفوس القراء أن أكتب ردا على المقال والتعليق لا لغرض سوى اظهار الحقيقة العلمية التي يجب أن تسمو فوق كل اعتبار ·

والواقع اني حين قرأت المقال ودهشت لما فيه تجاذبني عاملان عامل الود والتقدير لاخي الشيخ عبد الله وعامل الولاء والاخلاص للحقيقة فآثرت الحق على الود وحكمت العقل على القلب ·

قومي هم قتلوا ، اميم ، اخي
فاذا رميت اصابني سهمي

ولست اريد أن أغض من مكانة الشيخ عبد الله في قلبي فهو العليم بما اكن له فيه من تقدير واعتبار ولكن الحقيقة يجب ان تقال والتاريخ يجب ان يفهم على وجهه الصحيح ·

لقد استهل مقاله في أن الذي أثار الموضوع بنفسه من جديد هو ظهور كتاب « العرب » حديثا بحلة عربية قشيبة وكتاب « العرب » هو تاريخ العرب الموجز الذي نشرته دار العلم للملايين في طبعته الاولى منذ ست عشرة سنة وفي طبعته الثانية منذ نحو أربع سنوات وهو الآن نافذ من الطبع · فأين وقع على هذه الطبعة الجديدة ؟ والواقع أن

تاريخ العرب المطول هو الذي ظهر حديثا بحلة جديدة · وليس في الموجز أو في المطول الا دفع للتهمة التي الصقها بعض المؤرخين بالعرب وانكار للقصة التي اختلقها بعضهم من انهم مسؤولون عن احراق مكتبة الاسكندرية · وبحسبي أن أذكر النص كما ورد بحرفه في الكتابين واترك للقارىء الكريم أن يستنتج الحقيقة :

فقد جاء في الموجز ما يلي :

« اما قصة احراق مكتبة الاسكندرية التي يتداولها الناس عن عمرو فمصدرها الخيال لا الحقيقة · وخلاصتها أن عمرا ابقى بأمر الخليفة أتاتين حمامات الاسكندرية مشعلة طوال ستة أشهر بمجلدات مكتبتها · والواقع أن مكتبة البطالسة احرقها يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق·م وان مكتبة اخرى نشأت من بعد يشار اليها باسم « المكتبة الصغرى » دمرت سنة ٣٨٩ م· على اثر أمر أصدره الامبراطور الروماني ثيودوسيوس · واذن فلم يكن هناك مكتبة تستحق الذكر عند الفتح العربي · ولم يرو هذه القصة احد من المؤرخين في ذلك الزمن · وأول من رواها هو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة « ١٢٣١ م· » ولا علم لنا بالسبب الذي حداه الى اختلاقها · غير أن بعض المؤرخين اللاحقين اقتبسوها عنه وتزيدوا فيها · ثم ان اكثر الكتب في ذلك الزمن كانت من الرق الذي لا يحترق » · العرب · تأليف الدكتور فيليب حتي ص ٦٨ و ٦٩ « بيروت ، ١٩٤٦ » ·

وفي تاريخ العرب المطول « بيروت ، ١٩٤٩ ، ص ٢٢٢ » ما يلـــي :

« اما القصة التي تقول ان عمرا احرق مكتبة الاسكندرية باشارة من الخليفة وأحمى بها حمامات المدينة مدة ستة أشهر فينكرها البحث العلمي • فقد احرق مكتبة البطالسة العظمى يوليوس قيصر حين غزا البلاد المصرية سنة ٤٨ ق•م• أمـــا « المكتبة الصغرى » التـــي نشأت مـــن بعـــد فلقد اتلفت بأمـــر الامبراطور ثيودوسيـــوس حوالـــي سنـــة ٣٨٩ م• واندثرت مكاتب الاسكندرية من بعد ذلك فلم يكن في الاسكندرية مكتبة عظمى يوم الفتـــح • زد علـــى هـــذا أن أحـــدا مـــن الكتاب المعاصرين لهذه الحوادث لم يتهم الخليفـــة أو عامله باحـــراق مكتبة الاسكندرية • ولا نعرف أحـــدا روى هـــذه القصة قبل عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ ـ ١٢٣١ ولسنا نفهم الباعث الى اختلاق هذا النبأ الذي اعتد به المؤلفون المتأخرون وزادوا عليه » •

فهل هناك في أي من هذين النصين ما يفيـــد أن الدكتور حتي مميل « اي متردد او شاك » كما يقول الشيخ عبد الله ؟ وهل فيها غير انكار نبأ احراق المكتبة ؟ وهل يمكـــن أن يكتب مؤرخ باسلوب علمي أوضح من هذا لرد التهمة عن العرب ؟ الا يكفي أن يقول في الموجز :

ان القصة مصدرها الخيال لا الحقيقة ثم يقول : ولا علم لنا بالسبب الذي حداه « أي راوي الخبر » الى اختلاقها !!

ويقول في المطول :

« أما القصة التي تقول ان عمرا احرق ... فينكرها البحث العلمي ... ثم يقول : ولسنا نفهم الباعث الى اختلاق هذا النبأ الذي اعتد به المؤلفون المتأخرون وزادوا عليه !!

وهل في هذا القول ما يفسر بالشك أو التمييل ؟ وبعد ما الذي يريده الصديق الكريم الشيخ عبد الله من تحقيق أمر المكتبة وشأن العرب حيالها طالما أن المؤلف نفى عن العرب هذا الامر بل انه أرجع احراق المكتبة الكبرى الى عهد يوليوس قيصر واشار الى اتلاف المكتبة الصغرى بأمر الامبراطور ثيودوسيوس ثم قال ان مكاتب الاسكندرية اندثرت بعدها فلم يكن في الاسكندرية مكتبة عظمى يوم الفتح .

والدليل على انه نفى عن العرب أمر احراق اي مكتبة صغرى او كبرى قوله : ان احدا من الكتاب المعاصرين لم يتهم الخليفة او عامله باحراق المكتبة وان أول من روى القصة هو الشيخ عبد اللطيف البغدادي المتوفي سنة ٦٢٩ هـ . « أي بعد فتح الاسكندرية بأزيد من ستة قرون » .

وأود ، على ذكر هذا ، ان انبه في هذه الكلمة الى أن البغدادي «١» سبق أبا الفرج ابن العبري «٢» في ايراد هذه القصة الملفقة وانه هو المسؤول قبل ابن العبري اليعقوبي عن هذا الامر الذي الصق بالعرب ما هم منه براء . فقد توفي

---

(١) في كتابه : الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة ، نشره وترجمه للاتينية هوايت « اكسفورد ١٨٠٠ » ص ١١٤ .

(٢) في كتابه : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ، ١٨٩٠ ص ١٧٥ — ٧٦ .

البغدادي حين كان ابن العبري في السادسة من عمره · واود أن اشير الى أن القفطي ايضا قد سبق ابن العبري في ايرادها (١) · فقد ولد القفطي قبل ابن العبري بأربع وخمسين سنة وليس غريبا ان تكون رواية القفطي او البغدادي المدسوسة هذه هي التي ورطت ابن العبري الى قول ما قال ان صح ما نسب اليه · وقد احسن الشيخ العلايلي حين ذكر ان القصة لم ترد في كتاب ابن العبري في اصله السرياني فهذا دليل على انه غير مسؤول عن هذا الاسن وان القصة دست في الترجمة العربية بعد زمنه ·

ولعل احد الاثنين السابقين هو الذي ورط تقي الدين المقريزي البعلبكي الاصل على ذكرها في كتابه المواعظ والاعتبار نشر جاستون فييت « القاهرة ، ١٩٢٢ » ج ٣ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ·

ولا بد لي في الختام من الاشارة الى ان بعض الفرنجة قد اخذوا ببعض هذه الروايات فصدقوها فكان الدكتور فيليب حتي من السابقين الى رد هذه التهمة الشنعاء عن العرب وان كتابه الذي وضعه في الانكليزية في تاريخهم كان من اكثر العوامل اثرا في افهام الغربيين اثر الحضارة العربية في التاريخ البشري وقد طبع منه حتى الآن ٧ طبعات متتابعة · وطبع ثلاث طبعات في ترجمته العربية التي نشرتها دار الكشاف في بيروت ·

---

(١) في كتابه : تاريخ الحكماء ، ليبزغ ، ١٩٠٣ ص ٣٥٥ ـ ٦ ·

العصر الأموي

ما أسهم به المؤلفون العرب في المئة سنة الاخيرة في دراسة الأدب العربي عنه (١)

— ١ —

ليس أيسر من تحديد مدة العصر الاموي سياسيا فهي تسعون سنة تقريبا تبدأ عام بويع معاوية ابن ابي سفيان في ايلياء (بيت المقدس) خليفة سنة ٦٦١/٤٠هـ . وتنتهي عام احتل العباسيون دمشق سنة ٧٥٠/١٣٢هـ . ولكننا اذا أردنا تحديدها من حيث الانتاج الادبي ومن حيث حياة الشعراء والكتّاب والخطباء فليس الامر بمثل هذا اليسر . ذلك ان هناك ادباء عرفوا في هذه الحقبة السياسية التي حددناها ولكنهم نشأوا أو كتبوا في صدر الاسلام وربما في الجاهلية قبل صدر الاسلام وان هناك آخرين عاشوا في هذه الحقبة وأنتجوا ولكن حياتهم امتدت الى العصر العباسي وعرف لهم انتاج أدبي فيه فمن رجال أي العصور نعد هؤلاء وأولئك ؟ وما الذي نعتمده

(١) نشرت في كتاب الادب العربي في آثار الدارسين — دار العلم للملايين بيروت ١٩٦١ .

في تصنيفهم ؟ أهي سنة الوفاة أم سنوات الانتاج ومـا الذي نفعله ان كانوا ــ كما ذكرنا ــ من اصحاب الآثار الادبية في عصرين متتابعين · تلك أول مشكلـة نجابههـا حـين نبحث الموضوع ·

ولما كانت المدة التي حكم أثناءهـا الامويون لـم تتجاوز تسعين سنة كان من الطبيعي أن يكون عدد كبير مـن الشعراء والكتّـاب في ذلك العصر الذين عاشوا في أول حكم بني أمية قد أنتجوا في عصر صدر الاسلام وان يكون الذين عاشوا الى ما بعد العصر الاموي قد أنتجوا في العصر العباسي الاول وقد رأينـا حلا لهذه المشكلة أن نتبع قاعدة معينة في أمر هؤلاء المخضرمين وقد اتبعنا قاعدة الوفاة اذا كان الاديب قد وضع أكثر انتاجه في العصر الذي توفي فيه فبشار مثلا نشأ في العصر الاموي ولكنه توفي في العصر العباسي وكان أكثر انتاجه فيه فهو اذن بحكم هذه القاعدة عباسي العصر ، وحسان توفي في العصر الامـوي ولكن أكثر انتاجه كان في العصر الجاهلي وصدر الاسلام فلم يدخل بين شعراء العصر الاموي ·

أما المشكلة الثانيـة فهي قلـة المراجـع البيبليوغرافيـة والفهارس المنظمة للكتب التي ألفـت في المئة السنـة الاخيرة وبنوع خاص الفهارس البيبليوغرافية بالمقالات التي كتبت في الادباء أو الادب في العصر الاموي · أضف الى هذا وهن الصلة الادبية والعلمية ــ ولا أعرض للسياسة ــ بين بعض الاقطـار العربية وبعضها الآخـر · وبين المؤلفين والادبـاء في القطـر الواحد وزملائهم في القطر الآخر · ولكن لا يفوتنا هنـا أن

نشير الى جهود بعض الادباء كيوسف داغر وخلدون الوهابي فيما يتعلق بالشعراء الذين قررتهم مناهج الحكومات المختلفة.

وهناك مشكلة ثالثة وهي التمييز بين ما ألف ليكون كتابا مدرسيا وبين ما وضع كبحث علمي فاننا قد بلغنا من قبل هيئة الدراسات أن نستثني الكتب المدرسية في بحثنا وقد فعلنا ولكنني وجدت أن هناك بين الكتب المدرسية كتبا أقرب الى البحوث العلمية من كثير من الكتب الاخرى ألتي انتحلت هذا الاسم فأدرجتها في الجدول .

ومشكلة رابعة وهي انه يستحيل على الباحث ايا كان إن يقرأ في مدى بضعة شهور او يرى كل الكتب والمقالات العلمية التي تعالج الادب في عصر كبير غني من العصور العربية ثم ينقدها ويقيمها ومن هنا فلست اكتمكم إن هذه الدراسة التي بين ايديكم وهذه الجداول طوالا كانت او قصارا ليست كل ما يمكن ان يوصل اليه . وحسبها ان تكون اساسا لدراسة اتم واوسع .

ومن الخير قبل ان نعرض لما الفه ادباؤنا في المئة سنة الاخيرة عن الادب في العصر الاموي وما نشروه من اثار ذلك العصر ان نقول كلمة في ادب العصر الاموي واهميته .

— ٢ —

لقد كان العصر الاموي عصر الفتوحات التي لم يعرف العرب مثلها حتى اليوم فقد سارت فيه جيوش الفاتحين في

ادنى الارض واقصاها وغلبت الفرس والروم واحتلت الاندلس غربا ونفذت الى قلب فرنسا في تور واندفعت شرقا الى ما وراء فارس فاحتلت بلاد السند وركزت اعلامها خفاقة على ضفاف نهر الاندس العظيم طاوية كل ارض بين كابل في الشمال وديبل على البحر ·

وقد كان العصر على فتوحاته عصر صراع داخلي شديد واحزاب متباينة كثيرة فيه نشبت الفتن العنيفة والثورات العاصفة وفيه ظهرت الاحزاب الدينية والسياسية وعادت العصبية القبلية تعبث بالعرب من جديد ·

وكان في الوقت نفسه عصر لهو ودعابة ومجون وكان فوق هذه كلها عصر شعر بل كان من اغنى العصور العربية انتاجا في الشعر ، فيه نبغ اعظم شعراء السياسة والهجاء ـ الكميت ابن زيد وعبيد الله ابن قيس الرقيات والاخطل والراعي والفرزدق وجرير وغيرهم ـ وفيه زها اعظم شعراء الحب العذري والاباحي كمجنون ليلى وقيس لبنى وكثير عزة وجميل بثينة وعمر والعرجي والحارث المخزومي والاحوص · وفيه نشأ الفن الخمري قبل ابي نؤاس والمطيع بن اياس وحسبي بابن ارطأة والوليد ابن يزيد ، قال الاصبهاني : وللوليد في ذكر الخمر وصفتها اشعار كثيرة قد اخذها الشعراء فادخلوها في اشعارهم سلخوا معانيها وابو نؤاس خاصة فانه سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره فكررها في عدة مواضع ولولا كراهة

التطويل لذكرتها ههنا لكنها تنبيء عن نفسها (١) ٠

واذا كان حقا ان بعض الشعراء قد صرفهم الاسلام او صرفتهم دهشة الاسلام في عصر النبي والخلفاء الراشدين عن قول الشعر والتمتع بسماعه او حطت من مكانته او مكانة بعضه في عيون الناس فان عصر بني امية رفع من شأنه وعزز سلطانه ٠

حتى الخطابة فلعلها لم تعرف لها مكانة في عصر من عصور العرب ـ اذا استثنينا العصر الاخير ـ كما عرفت مكانتها في العصر الاموي وحسبي ان استشهد بخطب زياد ابن ابيه والحجاج وخالد القسري وابي حمزة الخارجي واثر هذه الخطب في النفوس ٠

وكذلك بدأت كمائم النثر الفني تتفتح في هذا العصر وقد تأثر بأسلوب القرآن فهو موجز جزل بليغ يرسل في الموعظة والنصح والوصية ويصبح مثالا يحتذى به في هذا العصر ، عصر الادب او عصر الكلمة ان جاز لنا هذا التعبير وهو امر طبيعي لان الكلام كاد ان يكون الميدان الفني الوحيد الذي استطاع العربي أن يبرز مواهبه الفنية فيه ومن هنا ما زعموه من انه لما انزلت الحكمة من السماء هبطت على انامل اهل الصين وعقول اليونان والسنة العرب ٠ وقد رووا انه تصدى لجرير وحده ثلاثة واربعون شاعرا ينهشونه ـ عرض لامر بعضهم مع الحجاج في حديث يطول ذكره ٠

(١) الاغاني (دار) ٦ : ١١٠ ٠

وقد دخل الشعر في العصر الاموي ساحات القتال ورافق الجند في معاركهم وشغلهم في مضاربهم وسمرهم • روى ابو الفرج في اغانيه قال : بينا المهلب ذات يوم بفارس وهو يقاتل الازارقة اذ سمع في عسكره جلبة وصياحا فقال : ما هذا ؟ قالوا جماعة من العرب تحاكموا اليك في شيء فاذن لهم ، فقالوا : انا اختلفنا في جرير والفرزدق فكل فريق منا يزعم ان احدهما اشعر من الاخر وقد رضينا بحكم الامير فقال : كأنكم اردتم ان تعرضوني لهذين الكلبين ليمزقا جلدتي ؟ لا احكم بينهما ولكني ادلكم على من يهون عليه سؤال جرير وسؤال الفرزدق ، عليكم بالازارقة فانهم قوم عرب يبصرون الشعر ويقولون فيه بالحق فلما كان الغد خرج عبيدة ابن هلال اليشكري ودعا الى المبارزة فخرج اليه رجل من عسكر المهلب كان لقطري صديقا فقال سل ! قال : او تخبرني ؟ قال : نعم ! ان كنت اعلمه • قال : اجرير اشعر ام الفرزدق ؟ قال : قبحك الله اتركت القرآن والفقه وسألتني عن الشعر ؟ قال : انا تشاجرنا في ذلك ورضينا بك فقال : من الذي يقول :

وطوى القياد مع الطراد متونها
طي التجار بحضر موت برودا

فقال : جرير • قال : هذا اشعر الرجلين • ونقل المستشرق رينولد نيكلسن هذا الخبر في كتابه عن تاريخ العرب الادبي وعلق عليه فقال : ان هذا الحادث ليدل على ان الذوق الشعري في هذا العصر لم ينحصر في رجال الادب او في الحلقات والاوساط الادبية بل تعداه الى صفوف العامة من الناس

فانتشر في الامة وسرى فيها فتذاكــروا الشعر حتى في حروبهم واخطارها المخيفة ٠

ولكي ندرك وقع الشعر في نفــوس الناس في ذلــك العصر علينا ان ندخل بلاط الامويين لا سيما زمــن عبــد الملك ابــن مروان فقد رووا ان الاخطل انشده شعرا في هجو قيس وكــان الجحاف القيسي يسمع فخرج مغضبا حتى اتى قومه ودعاهــم الى قتال عشيرة الاخطل وقال : قاتلوا عــن احسابكم او موتوا واغاربهم على تغلب وهم بالبشر من اطراف نجد فقتل منهــم مقتلة عظيمة ثم قال هو بدوره شعرا رد فيــه علــى الاخطل وانتصف لنفسه ولقومه ٠

وهكذا فان سورة الشعر التي كانت قد حميت في الجاهلية وفترت في صدر الاســلام عــادت الى حــدتها في العصر الاموي ولعلها لم تبلغ تلك الحدة في اي عصر آخر بعده ٠ ولقد صدق الدكتور طه حسين حين قــال في حــديث الاربعاء ان في الشعر العربي لهذا العصر كنوزا خليقــة ان تستكشــف وان تدرس على وجهها ولكن كثيرا من الناس لا يعلمون ٠

ـ ٣ ـ

ومع ان ما كتبه الادباء في المئة السنة الاخيرة عــن ادب العصور العربية المختلفة دار اكثره على ادب العصر العباسي فان ما كتبوه عن العصر الاموي او نشروه مــن آثــاره لم يكن بالقليل ومرد ذلك فيما نرى الى الامور التالية :

١ ـ كون العصر الاموي ـ على قصره ـ من اغنى العصور العربية ادبا ان لم يكن اغناها لا سيما اذا اعتبرنا ان مدته لم تزد عن تسعين سنة وقد عرف فيها ما لا يقل عن مئتي شاعر ٠

٢ ـ كون الشعر الاموي اثبت مستند لغوي بعد القرآن وبعد شعر الجاهلية وصدر الاسلام وهو فوق ذلك لم يشك في صحته ولم يختلف في روايته كما شك في صحة الشعر المذكور واختلف في روايته ٠

٣ ـ كون الادب الاموي اول ادب تأثر بشكل محسوس بالاسلام فاكتسب على قوته لينا وعلى جزالته رقة واصبح كما يقول ابن خلدون امتن واعلى طبقة في البلاغة واذواقها من كلام الجاهليين في منثورهم ومنظومهم ٠

٤ ـ الشعور عند علمائنا في نهضتنا الاخيرة بأن الامويين غمطوا حقهم من قبل المؤرخين في العصور العباسية لاسباب قبلية ودينية وسياسية واكتشاف كثير من آثار الامويين العمرانية من قصور وابنية واقنية وغيرها مما دعا الى التوسع في دراسة العصر الاموي ٠

٥ ـ ظهور النزعة القومية العربية لا سيما بعد الحرب الكبرى الاولى والاعتداد بالعروبة التي تميز بها الى حد كبير العصر الاموي ـ وحكم الامويين ٠

٦ ــ تلبية مناهج التعليم الثانوي التي وضعتها في الثلاثين سنة الاخـيرة وزارات المعارف في الاقطـار العربيـة المختلفة والتي ندر ان خلت في قطـر ما مـن ثلاثة او اربعة من ادباء العصر الاموي ·

٧ ــ تميز العصر الامـوي بلونـين خاصـين مـن الشعر هما الشعر السياسي والشعر الغزلي ــ والعذري من الغزلي بنوع خاص ــ وانفراده بالخطب السياسية التي لم يعرفها العرب قبل ذلك العهد بمثل هـذا التنظيم ولم يعرفوها بهذه القوة والاحكـام والبلاغة والعنف حتى النهضة الاخيرة ·

٨ ــ نشوء حركات سياسية ودينية واجتماعية واحـزاب كـان لهـا اثـر كبـير في الادب كحـركة الخـوارج والزبيريين والشيعة والشعوبية وغيرها ·

٩ ــ انتشار التعليم العالي واندفاع المتخصصين من طلاب الادب العربي في الجامعات المختلفـة نحـو البحث في ادب العصر الاموي متأثرين خطـى المستشرقـين او بتكليف من اساتذتهم ويحسن بـي هنا ان اشـير الى فضل الجامعات او التعليم الجامعي في هذا السبيل · يضاف الى هذا النزعات الفردية والرغبات الخاصة في نفوس بعض ابناء الجيل من الطلبة وغيرهم لـدرس آثار السلـف واحيائها وللعمـل في حقـل الدراسات الادبيـة ·

وقد رأينا قبل الشروع في البحــث ان نعالج الموضوع على اساس اقسام اربعة رئيسية :

١ ـ ما الفه الادباء من كتب عن الادب في العصر الاموي بوجه عام او عن حركات او ظواهر ادبية عامة او عن ادباء العصر وسيرهم ٠

٢ ـ ما الفه الادباء من كتــب اقتصر الواحــد منهــا على شاعر او كاتب معين من ابناء العصر او على ناحية ادبية خاصة ٠

٣ ـ ما نشره الادباء مــن كتب او دواويــن تخلفت عــن العصر الاموي ٠

٤ ـ ما كتبه الادباء من مقالات او ابحاث موجزة عن ادب العصر الاموي او عن ادبائه او عــن اديب خــاص فيــه ٠

ولقد جعلنا الجداول التي أعددناها موزعــة على الاساس نفسه ومرتبة ترتيبا هجائيــا وسنحاول في دراستنــا استعراض بعض هذه الآثار مما نراه جديــرا بالالتفــات حسب سنوات صدورها مبتدئين بالاقدم حتى نصل الى احدثها الا اذا عرضنا للدراسات التي تدور على موضوع واحد أو شخص واحد فاننا سنبحثها متتابعة حتى نفرغ منها كلها ٠

وسنكتفي بعرض بعض هذه الآثــار عرضا مطولا علــى

سبيل المثال وذلك لضيق المجال كما أننا مضطرون الى أن نهمل ذكر بعض الكتب التي لم يصل الينا خبرها اما لقرب عهدها منا او لبعد مصدرها عنا او لخلو مكتباتنا منها ٠

اما الاصول الادبية المختلفة العامة التي وضعها اصحابها بعد العصر الاموي وعالجوا فيها أدب العصر الاموي أو أدباء العصر الاموي أو جمعوا فيها شعرا من العصر الاموي فلم نعرض لها لاننا لا نعتبرها من آثار العصر الاموي فالمفضليات مثلا والاصمعيات وجمهرة اشعار العرب وطبقات الشعراء والاغاني وأمثالها من الكتب على ما فيها من أخبار عن الادب الاموي وأدباء العصر الاموي لا تدخل في بحثنا ولهذا فاننا لم نشر اليها ولم نلتفت الى ناشريها ولا الى الذين كتبوا عنها في المئة السنة الاخيرة وتركنا ذلك لمن وكلوا البحث في عصور هذه الكتب المختلفة ٠

ـ ٤ ـ

وقد بدت لنا في دراستنا ظواهر ثلاث أولها ان الشعر في ذلك العصر كان يطغي على النثر بشكل ظاهر ومن هنا فقد كانت أكثر الآثار الادبية المتخلفة عن هذا العصر آثارا شعرية أو دواوين والواقع انه لم يتحدر الينا أثر أدبي نثري يحسب له حساب الا عن بضعة اشخاص هم زياد ابن ابيه والحجاج ابن يوسف وعبد الحميد الكاتب وابي حمزة الخارجي وقطري ابن الفجاءة ويزيد ابن الوليد اما ابن المقفع فقد تركناه لباحث العصر العباسي الاول وقد كانت هناك رسائل لبعض الخلفاء

والفقهاء وخطب ومواعظ وحكم ولكننا لم نر عنها بحوثا مطولة أو دراسات تستوجب التفصيل • أما الشعراء فقد كانوا كثيرين ويكاد عددهم في الخمسين سنة الاخيرة فقط من عهد بني امية لا يوازيه عدد في أي نصف قرن من أي عصر آخر • وكان يجب أن تكثر الدواوين المتخلفة عن شعراء هذا العصر لولا ان العصر قد تقدم غيره من العصور الغنية وقد ضاعت أكثر أشعار شعرائه أو ربما لم تكن قد دونت في دواوين متعددة تناقلها الرواة كما جرى لشعر الشعراء في العصور المتأخرة ولنتذكر على سبيـــل المثال شاعرا لعله لم يكن بين شعراء عصره من هو أشهر منه هو ابن أبي ربيعة وقد قصر أكثر حياته على نظم الشعر ومع ذلك فلم يتخلف عنه سوى ديوان صغير ونحن نعلم انه نظم اكثر من هذا كما يتبين من كلام ابي الفرج الاصبهاني حين أشار الى انه اطلع على دواوين لعمر رواها المدنيون والمكيون (١) وليس من شك في أن التدوين لم يعم في هذا العصر كما عم في العصر العباسي • ولعل أكثر ما دون من آثار هذا العصر قد ضاع لطول العهد واهمال الادباء • وقد روى عن ابي عمرو ابن العلاء ان دفاتره التي وضعها وكتبه التي جمعها قد ملأت بيته الى السقف قالوا : ثم تنسك فأحرق كل ما جمعه وعكف على درس القرآن • وبرغم هذا كله فقد حفظت دواوين لشعراء من العصر الاموي لا يقل عدد ما طبع منها عن عشرين • هذا عدا ما طبع وما لم يطبع من مجاميع تحوي كثيرا من شعر ذلك العصر • اذكر على سبيل المثال مما لم يطبع كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب جمع فيه محمد ابن المبارك ابن ميمون من علماء القرن السادس

(١) الاصبهاني بولاق ١٢٨٥ ج ١٩. ص ٥٢ .

الف قصيدة اختارها من اشعار العرب الذين يستشهد بأشعارهم كالمفضليات والنقائض وشعر هذيل وغيرها مما لم يتعد العصر الاموي ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ٠

اما الظاهرة الثانية فهي ان بعض هـذه الدواوين نشر في الاقطار العربية غير مرة وذلك في الغالب للكسب التجاري ومن هنا فلم يكن هناك قيمة علمية لجهود كثير من الناشرين ونكاد نطلق حكما عاما في ان اكثر ما نشره الادباء العرب من كتب ودواوين تخلفت عن هذا العصر لم تراع فيه الطـريق الصحيحة للنشر بخلاف ما فعله المستشرقون ٠ نقولها دون تـردد وبكثير مـن الخجل بل نذهب الى ان بعض هؤلاء الناشرين قـد جنوا على الادب والعلم حين اعادوا نشر بعض هذه الدواوين وقطعـوا السبيل على النشر العلمي الصحيح ٠

وظاهرة ثالثة لها صلة بالثانية وهي ان المستشرقين كانوا اكثر التفاتا في دراساتهم ومنشوراتهم الى آثار العصر الاموي وما سبقه منهم الى العصور اللاحقة وانهم سبقوا الادباء العرب في درس تاريخ الادب العربي لا سيما القديم منه في نشر الاثار الادبية القديمة ومن هنا كانت الدراسات الاولى للتاريخ الادبي العربي القديم والنشرات الاولى لكثير مـن دواوين الشعـراء الامويين والجاهليين قد صدرت عن المستشرقين ٠

وكنت اود ــ على ذكر المستشرقين ــ لو كلف باحث خاص في هـذا المؤتمر بعرض مـا ساهم بـه المستشرقون في الحقـب الاخيرة من دراسات عن آثارنا الادبية وغيرها ، فان دراساتهم

جديرة بأن تعرف وان تتخذ مثالا ينسج على منواله واقترح على لجنة المؤتمر للسنة القادمة ان تبحث هذا الامر وتقصر عمل المؤتمر – اذا امكن – على ما ساهم به المستشرقون في حقلي التاريخ والادب عن العصور العربية المختلفة ٠

وظاهرة رابعة وهي ان التخصص في الدراسات الادبية العربية لم نألفه في البلاد العربية بشكل محسوس الا في الثلاثين سنة الاخيرة ، والبحوث التي وضعت قبل ذاك قليلة جدا ٠ ويعود الفضل في هذا الاتجاه الجديد الى الجامعات التي انشئت في لبنان ومصر وسورية والمجامع العلمية فهي التي عملت على تشجيع الدراسات العربية – التاريخية والادبية – واخذت توجه الطلاب الى البحث العلمي والتحليل الادبي والنقد لنيل الدرجات العلمية وتسعى في نشر الكتب الادبية القديمة والدواوين الشعرية نشرا علميا صحيحا وكان على رأس القائمين بهذه الحركة اساتذة الجامعات الذين درسوا في الجامعات الغربية وتأثروا بالمناهج العلمية الحديثة ٠ واخص بالذكر طه حسين فهو صاحب الاثر الاكبر في هذا المضمار وقد وضعت حتى الان طائفة من الرسائل للماجستير والدكتوراه طبع بعضها ولا يزال بعضها الاخر مخطوطا وتم نشر بعض الدواوين لشعراء من مختلف العصور ٠ وقد تناولت دراسات التخصص المطبوعة رجالا وظواهر ادبية من كل العصور وما قصر منها على العصر الاموي لا يكاد يتجاوز عدد اصابع اليد ومن هنا فلسنا نستطيع ان نرى فيها تطورا او اتجاها يحسب له حساب ٠

وبعد فقد آن لنا ان ندخل في صميم الموضوع ولنبدأ بما الفه العرب من كتب عامة • وهي انواع منها ما هو دراسات عن ادباء العصر عامة او عن طائفة من المشهورين منهم ومنها ما هو مختارات من اشعارهم او خطبهم مع نتف من اخبارهم وكل هذه الكتب المدرسي منها وغير المدرسي دراسات عامة ليس فيها بحث عميق او تحليل علمي دقيق يتناول الاديب وخصائص ادبه بتوسع واستقصاء • ولسنا بحاجة الى تصنيفها او تقييمها بل نكتفي بالتنويه بكتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان فانه اسبقها واوسعها ولم يقتصر على عصر واحد من العصور العربية بل تناولها كلها حتى النهضة الاخيرة ومن هنا فليس غريبا ان يذكره اكثر الزملاء الباحثين في هذا المؤتمر • ولا بد من الاشارة الى ان المؤلف استند الى كتاب المستشرق الالماني بروكلمن الذي يعد اوسع ما كتب على الاطلاق في هذا الموضوع ويعد زيدان الرائد الاول بين الكتاب العرب لهذا النوع من تاريخ الادب • وقد طبع كتابه غير مرة اولاها ١٩١١ ـ ١٤ واختصر واخذ عنه اكثر المؤلفين الذين كتبوا في تاريخ الآداب العربية بوجه عام لا سيما ارباب الكتب المدرسية • التي يربو عددها على الثلاثين •

اما النوع الثاني من الكتب فهو الذي اقتصر مؤلفه على شاعر واحد او ناحية من نواحي ادب ذلك العصر ولدينا من

هذا النوع نحو عشرين كتابا ـ غير الكتب المدرسية ـ نكتفي بعرض عشرة منها على سبيل التمثيل :

١ ـ حديث الاربعاء ج٢ ، للدكتور طه حسين ، القاهرة ١٩٢٦ ٠

ان الكتاب الاول الذي آثرنا ذكره هو حديث الاربعاء للدكتور طه حسين وكان الدكتور قد نشره مقالات في جريدة السياسة ابتداء من ٦ ديسمبر ١٩٢٢ ايام الاربعاء ثم جمع المقالات في كتاب واحد وسماه حديث الاربعاء ، دار الجزء الاول منه على الحياة الاجتماعية في العصر العباسي والجزء الثاني على الغزل والغزلين في العصر الاموي ٠ ومع ان الكتاب وضع في الاصل دون ان ترسم له خطة معينة او برنامج واضح وانما هو مباحث متفرقة كتبت في ظروف مختلفة فانه قد شق طريقا جديدا لدراسة الادب والحياة الاجتماعية في العصرين العباسي والاموي وقد بعث هو وكتاب في الشعر الجاهلي حركة ادبية في اكثر البلدان العربية ٠ وقد انبرى كثيرون للرد على الكتابين والفت كتب في هذا الصدد وقد صادرت الحكومة المصرية كتاب في الشعر الجاهلي واحتجزت نسخه واضطر طه حسين الى ان يعدل فيه ويعيد طبعه باسم « في الادب الجاهلي » ٠

اريد ان اصل من هذا كله الى ان للدكتور طه يرجع الفضل في هذا الاتجاه الجديد في تدريسه في الجامعة المصرية ومهما يكن من امر فان طه حسين بدوره صاحب الفضل الاكبر في ما ارى على الدراسات الادبية سواء اكان ذلك في الجامعات

المصرية المختلفة او في غيرها من الجامعات والكليات •

يحتوي الجزء الثاني من حديث الاربعاء على ثلاثة عشر فصلا في الغزل عرض فيها لعشرة من شعراء هذا الفن في العصر الاموي فذكر شيئا من سيرة كل شاعر وحلل شعره واستخلص خصائص فنه • ولم يقصد من الكتاب كما قلنا ان يكون مرجعا للباحثين ولكن اثر الكتاب وما تلاه من كتب طـه في طلبته وفي غيرهم لا يكاد يعادله اثـر كتاب آخـر فيما اعلم وقـد راقت طريقة طه في التحليل والعرض للناشئة بحيث كان كثيرون منهم لا يطمحون الى اكثر من تقليده والسير على خطاه •

٢ ـ اما الكتاب الثاني فهو كتاب عمر ابن ابي ربيعة لجبرائيل جبور ويقع في جزئين دار الاول على العصر الاموي وسمـاه المؤلف عصر ابن ابي ربيعة ودار الثاني على حياة الشاعر ـ وسماه حياة ابن ابي ربيعة ـ اما الجزء الثالث وهو في حب ابن ابي ربيعة وشعره فلم يطبع لأن المؤلف لم يفرغ منه بعد(١) •

الكتاب دراسة علمية استند فيها المؤلف الى مختلف المصادر التي يمكن الوصول اليها بحيث يزعم انه لم يعرف مصدرا ذكر عن عمر شيئا ولم يقرأه وقد ارجع في هوامشه كل خبر هـام الى مصدره وعارض الروايـات المتناقضة وحللهـا وناقشهـا ومحص ما ورد فيها تمحيصا دقيقا ورفض ما لا يقبله العقـل منها وتوصل الى نتائج سردها في بحثه عن حياة عمر وبوب كل

(١) ظهر الجزء الثالث في حب ابن ابي ربيعة وشعره . نشر دار العلـم للملايين بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨١ .

جزء وفهرسه على الطريقة العلميـة المألوفـة • وقرأ مؤلـف مصطلح التاريخ في جامعة بيروت الاميركية هذه الدراسة فأعجب بالطريقة العلمية التي اتبعها المؤلف في كتابه واقتبس فصـلا كاملا من الكتاب المذكور عن اخبار موت ابن ابي ربيعة ضمنه كتاب المصطلح من صفحة ١٦٠ الى ١٧٥ • وتعتبر هذه الدراسة من اولى المحاولات للتوسع في دراسة شخص واحد وبحث أثره بأسلوب علمي نوقشت فيه الروايات المختلفة وأسندت الـى مصادرها في الهوامش • وقد لفتت انتباه النقاد وأصبحت مرجعا لمن يريد دراسة عمر • ولما كـان عمر زعيم الشعراء الغزليين الاباحيين في العصر الاموي فقد كتب عنه كثيرون كما سنلاحظ في الجدول الملحق بهذا المقال وعرض له كثيرون في ابحاثهـم العامة عن الادب أو الغزل في العصر الاموي ومن هذه الكتـب كتاب للدكتور شوقي ضيف الاستاذ في جامعة القاهرة سنعرض له بعد حين •

٣ ـ اما الكتاب الثالث الذي نريد عرضه فهو كتاب أدب الخوارج في العصر الاموي لسهير قلماوي وقد آثرنا اختياره بين هذه النماذج اولا لاظهار مساهمة المرأة بهذه البحوث الادبيـة بشيء عميق من الاختصاص وثانيا لأنه يدور على لون خاص من الادب لحزب من هذه الاحزاب التي ظهرت في العصر الاموي وقد تميز هذا الادب بصبغتين دينية وسياسية •

لقد قدمت سهير هذا البحث رسالة الى كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول لنيل درجة الماجستير في الادب العربي سنة ١٩٣٧ وطبعته دون أي تغيير فيه سنة ١٩٤٥ حرصا كما قالت على

ذكرى عهد من عهود التلمذة وفترة من فترات التكوين يتجلى صدقها بل جمالها فيما تمتاز به من نقص ومن اخطاء ٠

ولقد عرضت في هذه الدراسة لنشأة الخوارج ثم ذكـرت المبادىء العامة المشهورة عن الخوارج ثم تكلمت عن شخصيتهم الادبية وبعض أعلام أدبهـم ولم يفتهـا أن تقابـل بين أدب الخوارج وأدب الشيعة لاصطباغهما بالصبغة الدينية السياسية ثم أظهرت مكانة أدب الخوارج من الشعر السياسـي بوجـه عـام ٠

وتمتاز هذه الدراسة بالروح العلمية والتمحيص وحسن الاخراج ودقة الملاحظة ٠ ومع ان المؤلفـة قـد اقتصرت على الاعلام من أدباء الخوارج فاننا لاحظنا انهـا لـم توف بعض هؤلاء حقهم مـن حيث التوسـع في درس الخصائص الفنيـة والاسلوب كما فعلت بآخرين وكنا نود لو انها استقصت اخبار كل أدباء الخوارج المعروفين ولـم تكتـف بعـدد قليـل مـن المشهورين ٠

ونريد ألا يفوتنا هنا أن نذكر فضل الدكتورين طه حسين واحمد أمين على الدراسات الادبية في الشرق العربي وفي ارشاد الطلبة للقيام بمثل هذه الدراسات القيمة ٠

٤ ـ واما الكتاب الرابع فهو كتـاب تاريـخ النقائض في الشعر العربي لاحمد الشايب القاهرة ١٩٤٦ ٠

وهو كتاب يبحث في ظاهرة عامة في الادب الامـوي ـ شعر النقائض وقد دفع المؤلف الى وضعه عمله في الجامعة المصرية بعد ١٩٣٠ ومتابعته لدراسة هذا الموضوع حين كلف بتدريسه بعد أن ترك الدكتور طه حسين الجامعة ·

درس الشايب النقائض في عصور ثلاثة ـ الجاهلية وصدر الاسلام ، والامويين وبين الخصائص الفنية لكل منها وأظهـر مزايا الشعراء البارزين فيه وقابل بين النقائض كفـن شعري خاص وبين ما يقابلها من فنون اخرى ويهمنا بنوع خاص بحثه في القسم الثاني من كتابه وهـو القسـم الاكبر ويـدور على النقائض في العصر الاموي فقد عالج فيه النقائض الامويـة عامة ونقائض جرير والفرزدق وجرير والاخطل خاصة ·

والكتاب علمي في منحاه وتأليفه غزير المادة وكثير الشواهد التي تبين خصائص كل شاعر وقد ملأ فراغا في المكتبة العربية التي لم تغن بعد بمثل هذه الدراسات وقد وفق المؤلف في تحليل الشعر وربطه بحياة الشاعر ومزاجه وبالبيئة التي عاش فيهـا ووفق كذلك بأكثر الاستنتاجات التي وصل اليها ·

٥ ـ الحب العذري لموسى سليمان بيروت ، ١٩٤٧ ·

٦ ـ الحب العذري لاحمد عبد الستار الجواري القاهرة ، ١٩٤٨ ·

أما الكتابان الخامس والسادس فهما في موضوع واحد هو الحب العذري الاول لموسى سليمان والثاني لاحمد عبد الستار الجواري وقد اتفقا كما يظهر في الموضوع وتقاربا في زمـن

التأليف وفي الغرض من التأليف فقد ألف الاول اطروحة لنيل درجة بكلوريوس في الآداب من الجامعة الاميركية في بيروت ، ١٩٤٤ وطبعه ١٩٤٧ والثاني لنيل ماجستير في الآداب من جامعة فؤاد الاول وطبعه ١٩٤٨ وقد احدث هذا الاتفاق الغريب ضجة وزعم الاستاذ سليمان ان الجواري أخذ عنه فعهدت جريدة كل شيء الاسبوعية الى الاستاذ عبد اللطيف شرارة بدراسة الكتابين وابداء رأيه في قيمتهما ومدى التشابه بينهما وقد نشرت مجلة العروة تقرير الاستاذ شرارة في عدد أيار من سنة ١٩٤٨ واني اكتفي بمقتطفات من مقاله في الكتابين قال :

« الاول يدرس الحب عند العرب في فصل خاص والثاني يعرض للحب عندهم في مجمل كتابه ولا يشكل الحب العذري الا فصلا منه هو أقل فصوله والفرق كل الفرق بين الكتابين ان الثاني يسهب والاول يوجز اما المصادر ، اما طريقة البحث ، اما الاستنتاجات والملاحظات الشخصية فتكاد تكون واحدة حتى يوقن القارىء حين يقارن بين المؤلفين ان الجواري اخذ عن سليمان أخذا صريحا أخذ الفكرة والمادة والبحث » .

تصور ان كلا من الكاتبين مهد لموضوعه بحديث مجمل عن الحب فكان عند الاستاذ سليمان « لمحة تاريخية في العشق عند الامم القديمة » وكان عند الجواري « الحب قديما وحديثا » حتى اذا انتقلا الى ألوان الحب تحدثا كلاهما عن الحب الافلاطوني فشرحاه وفصلاه نقلا عن كتاب المائدة لافلاطون كل حسب اسلوبه والمدى الذي رسمه لمؤلفه في الاختصار أو الاطالة ثم تصور انهما حين تعرضا للحب العذري بصورة خاصة

أنهما درساه من علي صعيده النفسي والتاريخي فكــان مــن الطبيعي أن يولي كــل منهمــا عروة وقيس وجميل وسائــر العذريين عناية ورعاية والى هنا ينتهي الاستاذ سليمان من بحثه فتطبق كتابه ••• ولكن الجواري لا يقف عند هذا الحد •••

سيقول الناس عندئذ « توارد خواطر » والمقارنة بــين الكتابين تكشف عما اذا كان ثمة سرقة وها أنا أقارن ثم أعود فأقارن ولا أخلص من وجهة نظر حتى أقع في وجهة اخرى ثم لا أنتهي الى حقيقة يطمأن اليها •

ذلك لأن وحدة الموضوع تؤدي حتما الى وحدة الافكار فاذا كان المستوى الثقافي بمنزلة متعادلة عند الكتابين انتهيا الــى طريقة واحدة في الدراسة والاستنباط والتحليل •••

على ان من الموضوعات ما هو قابل لان يكتب فيه الآلاف من الادباء والشعراء ولو كان واحدا ••• والامر يختلف حين يكون التأليف ضربا من الدراسات أو التحليل اذ لا يستطيع المرء الا أن يجد تأثرا أو توارد خواطر أو ما يشبه السرقة •

أرجع الآن الى كتاب الاستاذ موسى سليمان تجد انه حصر تأليفه في موضوعه وأحاط به من جميع جوانبــه ووفق كــل التوفيق الى ابراز الصورة الروحية القائمة في ذهنــه لمعنــى روحي وخرج بنتيجة يظهر من تصميمه انه كان يريد أن ينتهي اليهــا •

أما الاستاذ الجواري فانه اشتط في تفريعاته ولــم يقف ــ كما يظهر ــ عند نقاط معينة من موضوعه ولا أعطى لقارئه

فكرة توجيهية يريد أن ترسخ في العقول والقلوب • ألا يدل ذلك على انه سرق الفكرة ، فكرة كتابه من الاستاذ سليمان ثم لم يحسن معالجتها وأراد بذلك أن يحجب عن نفسه الشبهة ويحجب الناس عن اشتباههم به ؟ من يدري ؟؟ » (١) •

٧ ــ التطور والتجديد في الشعر الاموي لشوقي ضيف القاهرة ، ١٩٥٢ •

أما الكتاب السابع فهو الكتاب الذي أشرنا اليه من قبل للدكتور شوقي ضيف وموضوعه « التطور والتجديد في الشعر الاموي » وهو يعالج موضوعا خاصا كما يرى وقد وفق صاحبه في أسلوبه وطريقته • والكتاب يمثل اتجاها جديدا في الدراسات وهو الالتفات الى ظاهرة خاصة واستقصاء نواحيها وقد أظهر فيه المؤلف كيف تطور الشعر العربي في عصر بني امية وأبرز نواحي التجدد فيه • غير أننا نأخذ عليه مأخذا هاما يتعلق بأمر الامانة في النقل • فقد كتب فيه فصلا في نحو ٢٢ صفحة عن عمر ومن غرائب الصدف أن يكون من هذه المصادر التي رجع اليها في بحثه عن عمر واتفق وجبرائيل جبور بذكرها والرجوع اليها كتب ككتاب شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي والكامل لابن الاثير والاشتقاق لابن دريد والموشح للمرزباني وتاريخ الرسل والملوك للطبري ، وكان يكفيه في مثل بحثه العام الموجز أن يرجع الى الاغاني لأبي الفرج الاصبهاني ــ وأغرب من هذا توصله الى الاستنتاجات نفسها التي توصل اليها المؤلف عن

---

(١) راجع مجلة العروة ايار ١٩٤٨.

ولادة عمر وموت عمر وموت والد عمر الذي ناقشه المؤلف ونقض فيه رواية ابن خلكان فقبل الاستنتاج صاحبنا دون تكليف وكانت المجاملة تقتضي السكوت عن هذا لولا أننا الآن بصدد بحث علمي وليس للمجاملة في البحث العلمي مكان ٠ كذلك نلاحظ في الكتاب تفاوتا في الطريقة التي عالج فيها موضوعه وفي المصادر التي استند اليها ففيه تفصيل ودقة في بعض الفصول وتعميم وسطحية في البعض الآخر ولعل أتم فصل هو عن عمر ابن ابي ربيعة فهو غني بالتفاصيل والمصادر للاسباب التي ذكرنا ٠

٨ ـ الاخطل شاعر بني أمية لمصطفى غازي الاسكندرية ، ١٩٥٧ ٠

أما الكتاب الثامن فهو كتاب الاخطل شاعر بني أمية للدكتور السيد مصطفى غازي وهو بحث نال مؤلفه درجة الماجستير في الآداب من جامعة الاسكندرية بمرتبة الشرف الاول ثم نقحه وطبعه سنة ١٩٥٧ ٠

وهو يدور كما يلاحظ من اسمه على شخص واحد هو الاخطل وقد بحث فيه بيئة الاخطل ثم نشأته ثم علاقته بالبيت السفياني وصلته بالبيت المرواني ثم شعره ومقارنته بالسابقين والمعاصرين له ٠ وليس من شك في أن مؤلف الكتاب قد استفاد كثيرا من ديوان الاخطل نشر الأب الصالحاني ولكنه لم يوفه حقه فلم يشر اليه الا في موضعين أو ثلاثة ونحن نعلم ان طبعة الصالحاني لديوان الاخطل لم تقتصر على النشر فحسب بل

تعدته الى ترجمة وافية للشاعر ظهرت في الديوان المنشور والى دراسة في مجلة المشرق ـ ومهما يكن من أمر فان الصبغة الغالبة في الكتاب هي علمية من حيث الطريقة كما نرى في مناقشة المؤلف لبعض آراء لامنس في دراسة له عن الاخطل وهي أدبية في أسلوبها كما يتجلى في فصولها المختلفة وفي عرضها للحوادث التاريخية وفي لغتها ·

٩ ـ الكميت ابن زيد الاسدي شاعر الشيعة السياسي في العصر الاموي لاحمد صلاح الدين نجا بيروت ، ١٩٥٧ ﻫ

ويدور الكتاب التاسع للدكتور احمد صلاح الدين نجا على الكميت ابن زيد الاسدي وهو اطروحة أعدها للدكتوراه ونشرها سنة ١٩٥٧ مع مقدمة للاستاذ فؤاد افرام البستاني واخرى بقلم الدكتور نجا نفسه ذكر فيها فضل التخصص وضحالة النتائج التي نصل اليها حين نكتفي بالدراسات العامة· وقد قسم الكتاب الى قسمين في كل قسم ستة فصول وعالج حياة الكميت وآثاره وفنه الادبي وعرض الى الشعر السياسي في عصره والى الاحزاب والعقائد المختلفة التي نشأت في ذلك العصر ·

ومع انه أدرك فضل التخصص في مقدمته فانه ما كاد ينتهي من بحث الكميت حتى جنح الى التوسع في بحث الاحزاب ووقع فيما حذر منه حين أتى على ذكر الشاعرين أبي قطيفة والعرجي بصدد البحث على النزاع الاموي العباسي فقال : « وماذا نقول في أمر أبي قطيفة وأمر العرجي وفي سواهما ايضا ذوي الحسب

الاموي الذين مدحوا أقاربهم أمدا طويلا يوم كانوا أسياد الدولة حتى اذا ما دال عهدهم انقلبوا عليهم يذمونهم ويهجون » وفات المؤلف ان أبا قطيفة مات في زمن عبد الله ابن الزبير وكان هجوه لعبد الملك ابن مروان في حياة عبد الملك قبل أن يدول عهد الامويين بعشرات السنين • ولما بلغ عبد الملك هجوه قال والله لولا رعايتي لحرمته لالحقته بما يعلم ولقطعت جلده بأسياط (١) •

أما العرجي الاموي فلم يدرك هو الآخر دولة بني العباس وكان هجوه لمحمد ابن هشام المخزومي وليس لقومه وقد انتقم للعرجي الوليد ابن يزيد الاموي من محمد ابن هشام وأخيه ابراهيم المخزوميين حين وكل الى عامله يوسف ابن عمر أن يقتص منهما فسجنهما وعذبهما حتى ماتا (٢) •

ولم يراع المؤلف الدقة عند ذكر المصادر • فليس يكفي مثلا أن نذكر المصدر دون أن نشير الى طبعته وتاريخ نشره لا سيما حين لا نضع جدولا لهذه المصادر وحين تكون الكتب التي يرجع اليها متعددة الطبقات ومتعددة الناشرين كالفهرست لابن النديم ووفيات الاعيان لابن خلكان والاغاني لابي الفرج الاصبهاني • ولا يكفي أن نقول ايضا راجع غولدسيهر ، الشريعة الاسلامية دون اشارة الى الصفحة من المصدر أو راجع ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة تحقيق ونشر كامل حسين

(١) الاغاني (بولاق ، ١٢٨٥ / ١٨:) •
(٢) الاغاني (بولاق ، ١ : ١٦٦) •

دون تعيين الموضع (١) ٠

وفي الكتاب أخطاء مطبعية ولغوية كثيرة كما نرى مثلا في الصفحات : ٥١ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ويعتور الاسلوب بعض الركاكة هنا وهناك غير انه بوجه عام محاولة في الاتجاه الصحيح من حيث المنحى العلمي الجديد في البحث ٠

١٠ ـ تطور الغزل من الجاهلية الى الاسلام لشكري فيصل دمشق ، ١٩٥٩ ٠

أما الكتاب العاشر فهو للدكتور شكري فيصل وضعه سنة ١٩٥٩ ويدور على تطور ناحية خاصة من الشعر الاموي هي ناحية الغزل فيستعرض الغزل في عصري الجاهلية وصدر الاسلام ثم يقصر ما بقي من الكتاب وهو نحو ٢٤٠ صفحة على تطور الغزل في العصر الاموي ويذكر الغزل العذري والغزل العمري (نسبة الى عمر ابن ابي ربيعة) ٠

وقد أورد في هذا القسم نماذج من الشعر وحللها وأبرز خصائصها وأشار الى المعاني المألوفة فيها وعرض أساليبها المختلفة ٠ ويغلب على الكتاب الطابع الادبي ولعل مؤلفه لم يقصد الى أن يكون كتابه علميا والا لكان ذكر على الاقل جدولا بالمصادر التي أوردها في هوامش الكتاب وقد وفق في تحليل الشعر على ضوء البيئة التي قيل فيها وفي أكثر الاستنتاجات التي توصل اليها ولكن هناك خطرا في الاستناد على قصيدة

(١) انظر ص ٩٥ من كتاب الدكتور نجا المذكور .

واحدة لشاعر أو حتى على قصائد شتى للتدليل على تطور في شعر العصر كما نرى في بعض استنتاجات المؤلف من شعر جميل أو شعر عمر · كذلك نأخذ على المؤلف اهماله لبعض المصادر التي توصلت الى أكثر ما توصل اليه من خصائص شعر عمر والتي يجب أن يكون قد استند اليها · ومن الاخطاء ما استنتجه عن فخر عمر وتشوفه ما ورد في شعر عمر عن ركوبه الخيل وركوب صاحباته البغال قال : ص : ٣٩٢ :

« ولعل أطرف ما كان من فخره واستعلائه (يعني عمر) انه لا يرى غالبا الا راكبا حصانه بينما لا يظهرهن الا على بغالهن » ثم استشهد الدكتور فيصل بأبيات لعمر تشير الى ظهور النساء على البغال · وفات الزميل الكريم ان المرأة العربية الارستقراطية لم تكن تألف في ذلك العصر ركب الخيل كما ألفت ركب البغال وان البغال لم تكن مركوبا للوضعاء بل كانت للنساء الارستقراطيات ومن هنا فليس في ذلك وضاعة · وقد ركبتها النساء الشريفات في مواكبهن ورووا عن عائشة بنت طلحة وهي من هي جاها وجمالا وغنى أنها حجت مرة ومعها ستون بغلا عليها الهوادج والرحائل فعرض لها عروة ابن الزبير وقال :

عائش يا ذات البغال الستين   أكل عام هكذا تحجين

وكان حاديها يقول :

عائش يا ذات البغال الستين   لا زلت ما عشت كذا تحجين

وقد سار معاوية نفسه ـ وهو الذي ليم على تقليده

الاكاسرة ـ عام حج في موكب من بغلاته الشهب عليها رحائل الارجوان فيها الجواري عليهن الجلابيب والمعصفرات فكان موكبا عظيما فتن الناس ولفت أنظار الحجازيين بحيث زعم ان عبد الله ابن الزبير ما طلب الخلافة الا لتكون له هذه البغال ٠ بل لقد رووا انه لما تزوج خالد ابن يزيد ابن معاوية بنت عبد الله ابن جعفر ابن ابي طالب قال فيها :

جاءت بها دهم البغال وشهبها مقنعة في جوف حدج مخدر
مقابلة بين النبي محمد وبين علي والحواري وجعفر
منافية جاءت بخالص ودها لعبد منافي اغر مشهر

هذه نماذج اخترناها على سبيل التمثيل لعشرة من الكتاب ولا يتسع المقام لعرض كل ما الف في مواضيع خاصة في العصر الاموي فهناك دراسات كثيرة نرجو ان نأتي على ذكرها في الملحق الخاص بالكتب ٠

ونأتي الان الى ما نشره الادباء من كتب او دواوين تخلفت عن العصر الاموي وهو كثير ولكنه مع الاسف لا يمت الى النشر العلمي بسبب او صلة اللهم الا القليل منه ٠ وقد اصبحت بيروت في هذه الحقبة الاخيرة سباقة في هذا الميدان الرخيص حتى ان بعض الدور اخذت تنتزع من كتاب الاغاني قطعا قصرت على اشخاص معينين فتنشرها على انها كتب عن هؤلاء الاشخاص دون ضبط او دراسة او تحقيق ٠

ومن هنا فاننا نكتفي بالاشارة الى بعض هذه المطبوعات التي روعيت فيها شروط النشر العلمي الصحيح ونضرب صفحا عن الاخرى محيلين القارىء اليها في الجدول الملحق بهذا

المقال • وهنا نعود فنذكر مرة ثانية فضل المستشرقين وآثارهم في هذا السبيل ولا نرى بدا من الاشارة الى بعض منشوراتهم على سبيل المقابلة •

ولقد لاحظنا من قبل ان آثار العصر الاموي كانت في الاغلب آثارا شعرية يعني دواوين اذ لم يتخلف من النثر الاموي في كتب خاصة الا رسائل عبد الحميد الكاتب وبعض الخطب وقد اعتنى بنشر رسائل عبد الحميد الاستاذ محمد كرد علي ولا تزال طبعته هي المصدر المعتمد لها ونشرت اكثر خطب العصر الاموي ورسائله في كثير من كتب الدراسات العامة ونشير بنوع خاص الى كتاب الاستاذ انيس المقدسي • تطور الاساليب النثرية بيروت ١٩٣٥ ، ففيه نماذج كثيرة من الرسائل والخطب والحكم التي وضعت في ذلك العصر • وكتاب عبد الرزاق حميدة « ادب الخلفاء الامويين » (القاهرة ، ١٩٤٩) ففيه دراسة وتحليل لطائفة من الرسائل والخطب في العصر الاموي من زمن معاوية حتى مروان الاخير ، وان كنا لا نجاري الاستاذ حميدة بقبول اكثر الروايات المروية عن هذه الاثار الادبية او التسليم بصحة نصوصها • اما الدواوين الشعرية فكثيرة ، طبع منها كما سبق فقلنا نحو عشرين لعشرين شاعرا امويا وقد تكررت الطبعات من بعضها وتعدد الناشرون بحيث طبع الديوان الواحد خمس مرات او ستا • ونذكر على سبيل المثال ديوان عمر ابن ابي ربيعة فقد طبع مرات اولاها في مصر سنة ١٣١١ بنفقة مصباح اللبابيدي وكان مدير مكتبة في بيروت بجوار سيدنا يحيى وهو كأكثر الكتب التي طبعت في مصر له فضل السبق بل افضله انا شخصيا على بعض الطبعات

الحديثة التي ظهرت في بيروت • وظهرت الطبعة الثانية لديوان عمر في المانيا تحقيق المستشرق بول شفارز سنة ١٣١٨ ـ ١٣٢٦ (١٩٠١ ـ ١٩٠٩) ولا ابالغ اذا قلت انه لم ينل شاعر من الحظوة والعناية في نشر ديوانه كما نال عمر على يد بول شفارز ويكفي ان الناشر جعل للديوان فهرسا لقوافي قصائده وملحقا مرقما بحسب ارقام القصائد وابياتها اشار فيه الى كل مصدر من المصادر العربية المختلفة مما استطاع ان يصل اليه فيه البيت المرقوم فذكر النص بالضبط وقابله بنص الديوان : يعني اذا اخذنا مثلا رائية عمر « أمن آل نعم » فانه يرقمها بيتا بيتا ثم يذكر في الملحق رقمها ورقم ابياتها ويشير بالتتابع ابتداء من البيت الاول الى مكان وروده في جميع المصادر التي اتت على ذكره ويضبط نص ذلك البيت فيها • كأن يقول ورد بهذا الشكل في خزانة الادب جزء كذا وصفحة كذا وهلم جرا وتستطيعون ان تتصوروا العناء والجهد الذي بذل حين تعلمون انه ندر ان يكون هناك كتاب ادبي عام الف في العصور العباسية لم يأت على شيء من شعر عمر ـ اما الديوان نفسه فقد ضبط بالشكل الكامل وذكرت بهامشه الصور المختلفة تبعا لمختلف النسخ الخطية وقد اضطر الناشر الى ان يفد من المانيا الى مصر لمراجعة المخطوطات المصرية • وتبعه محمد العناني بنشرة اخرى في مصر سنة ١٣٣٠ فيها شيء من الشرح وبعض الاقتباسات من الاغاني ثم تبعتها اخرى في بيروت نشرتها المكتبة الاهلية وصححها وكتب سيرة عمر فيها بشير يموت سنة ١٩٣٤ وتبعتها خامسة نشرها محمد محيي الدين عبد الحميد مشكولة مشروحة سنة ١٩٥٠ وهي افضل الطبعات

في المشرق واخرى نشرتها مكتبـة صـادر تحقيق ابراهيم ابن الاعرابي وليس للطبعة الاخيرة من ميزة سـوى وضع عناوين للقصائد وهي تخلو من ذكر طبعها ولعله ١٩٥٢ ولا استغرب مطلقا ان تكون هناك دار اخرى اعدت او تعد طبعة جديدة لهذا الديـوان .

والديوان الثاني الذي نخصه بالذكر هو ديوان عبيد الله ابن قيس الرقيات وهو شاعر قريش زبيري الهـوى اشترك في الصراع الذي نشب بـين الامويـين والزبيريـين وقـد نشره سنة ١٩٥٩ الدكتور محمد نجم من الدائرة العربية في الجامعة الاميركية في بيروت وهذا الديوان ايضا كان قد طبع في فينـه سنة ١٩٠٢ بتحقيق المستشرق رودو كناكس ويقول الدكتور نجم عن هذه الطبعة انها جيدة التحقيق متقنة الصنع قـدم لها صاحبها بدراسة طويلة عن حياة الشاعر وعن شعره وترجم في حواشيها شعره الى الالمانية . وقد اعتمد الدكتـور نجم علـى نسخ خطية لم تعرف زمن الناشر الاول وان تكن كلها ترجـع الى ام عرفها الناشر الاول بعد ان فرغ من طبعته واثبت فروقها في آخر الكتاب وفضل الدكتور نجم انه اعاد طبع ديوان نفذت نسخه وانه اصل الابيات على مـا انتشر مـن شعر الشاعر في مصادر اللغة والادب والتاريخ واثبت اختلافـات الروايات في الهوامش ثم اتبع المتن بشروح وتعليقات واتى في آخر النشرة على فهرس للاعلام واخر للامم والقبائل وآخر للامكنة ورابع للقوافي ولم يهمل ذكر المصادر التي رجع اليها للتخريج والشرح وقد راجع هذه النشرة اخيرا السيد ابراهيم عبد الرحمن محمد في مجلة معهد المخطوطات العربية نوفمبر ١٩٥٩ فأخذ علـى

الدكتور نجم بعض المآخذ لعل اهمها ان الناقد ينكر ، ان يكون الدكتور نجم رجع الى مخطوطين من الاربعة التي ذكرها ويخطئه في بعض التحقيقات والتعليقات ولسنا نشك في ان الدكتور نجم سيره على الناقد المأخذ الاول ويناقشه في كثير من المآخذ الاخرى ونرى ان الناقد قسا على الناشر فلم يذكر حسناته في هذه النشرة وهي كثر ونزعم انه يستحيل ان يسلم ناشر من اخطاء ولا سيما اذا كثرت الشروح وكثرت الاسماء وعلى سبيل المثال نذكر تعليق الدكتور نجم على ذكر بلدة القريتين في الديوان وهي البلدة التي ننتمي اليها فقد خلطها ببلدة حوارين التي تبعد عنها ١٦ كيلومترا ورّطه الى ذلك استناده الى رواية اوردها ياقوت في معجم البلدان وليس الى ياقوت نفسه مهملا الوصف الاول للمادة في الكتاب • ولو رجع الى مادة حوارين في المعجم نفسه لادرك الخطأ •

والديوان الثالث هو ديوان ابن الدمينة ، تحقيق احمد راتب النفاخ ، القاهرة ، ١٩٥٩ •

وهو من الدواوين المنشورة حديثا وتحقيقه كان شطرا من رسالة تقدم بها احمد النفاخ الى كلية الآداب بجامعة القاهرة لنيل الماجستير • اما الشطر الاخر فهو دراسة مطولة للشاعر وللديوان لم تنشر بعد ، غير ان المحقق قدم للديوان بدراسة موجزة مركزة لا نشك في انه اخذها من دراسته المطولة وقد عرض فيها لحياة الشاعر وللكتب التي كتبت عنه •

يشعر القارىء لاول وهلة بالجهد الذي بذله النفاخ في تحقيق هذا الديوان ونشره فقد استعرض اربع نسخ خطية

عثر عليها ودرسها فوجد منها واحدة هي الام فاعتمدها اساسا للنشر واستأنس بثانية لاهمية بعض القراءات والشروح فيها ، واهمل الاخريين • واستعان كذلك بكثير من مصادر الادب المختلفة لتحقيق النص واثبت الاختلافات في الحواشي وجعل الزيادات في قسم خاص • وقد راعى الطريق العلمية الصحيحة وتقيد بشروط النشر بحيث جاء عمله دليلا على اثر التعليم الجامعي في الدراسات الادبية الحديثة •

وقد وضع في آخر الديوان ملحقا في تخريج القصائد والمقطعات فيه تقييم ومقابلات لكثير من قصائد الديوان التي وردت في مصادر ادبية اخرى • ولم يهمل الحاق الديوان بفهرس للقوافي واخر لشعر الشواهد وثالث للآيات وفهارس اخرى للاعلام والامكنة وللمفردات الخاصة وجدول بالمصادر والمراجع • ويعد هذا الديوان مأثرة محمودة لدار العروبة التي ساهمت في احياء التراث العربي في سلسلتها ، كنوز الشعر ، وحبذا لو اقتدت بها دور النشر الاخرى •

ولعل اتم طبعة لديوان من العصر الاموي ظهرت في المشرق هي طبعة الصالحاني لديوان الاخطل مع ملحقها وفهارسها وقد بدأ نشر هذا الديوان من سنة ١٨٩١ عن نسخة بطرسبرج سنة ١٨٦٧ وظل يتعهدها بالدرس والتحقيق والشروح حتى اتمها مع ملحق وفهارس ودراسات كان اخرها سنة ١٩٣٥ وليس غريبا ان يكون الصالحاني قد توفي وفي نفسه شيء من الاخطل الذي بذل جهدا فائقا في نشر ديوانه ونشير هنا الى ديوان جرير وقد نشر غير مرة ولعل اوسع نشرة

واتمها شرحا هي طبعة محمد اسماعيل الصاوي ولكنها على اعتمادها على ما سبقها وعلى نسخة خطية فريدة لا تزال طبعة تجارية اذا قيست بالمنشورات الصحيحة • والامر نفسه يصدق على نشر المذكور لديوان الفرزدق ونرى اننا بغنى عن ذكر المنشورات الاخرى بين الدواوين لان ما هو جدير بالذكر منها قد نشره المستشرقون اولا كديوان الفرزدق نشر بوشير وديوان الطرماح تحقيق كرنكو وديوان القطامي تحقيق بارت وديوان قيس ابن الخطيم تحقيق كوالسكي وديوان ذي الرمة تحقيق مكارثي وديوان الوليد ابن يزيد نشر جبريللي وخليل مردم بك وقد اعيد طبع اكثر هذه الدواوين في المشرق ولكن هيهات هذه الطبعات من تلك •

– ٧ –

بقي ما كتبه الادباء من مقالات او ابحاث موجزة عن ادب العصر الاموي او عن ادبائه او عن اديب خاص فيه ولست ادري ما اقول في هذا السبيل والى اي المقالات اعرض بشيء من النقد والتحليل • بل لست اطمع ان آتي بالملحق على جدول تام بهذه المقالات (١) • وفي رأيي اننا – نحن اعضاء هيئة الدراسات العربية – قد ارتكبنا خطأ حين تركنا البحث عن هذه المقالات للمحاضرين دون تحديد الخطوط العامة او تعيين الحدود الواضحة • فاي المجلات نعتمد ؟ وايها نهمل ؟ وهل

(١) راجع الجدول المؤلف من ٢٠ صفحة بأسماء الكتب والمقالات عن أدب العصر الاموي في كتاب « الادب العربي في آثار الدارسين » بيروت ١٩٦١ ولم نلحقه هنا لطوله [*]

من الخير ان نهمل كتابا مدرسيا يكون فيه احيانا تحليل او بحث جليل ونلتفت الى مقال لعل مادته اخذت من مثل ذلك الكتاب ومن يزعم انه اطلع على كل المقالات او اكثر المقالات التي كتبت في موضوع بحثه ، ولعلنا لو كنا عينا المجلات التي يجب ان تراجع وكلفنا جماعة خاصة من الطلاب او الباحثين بمراجعة اعدادها كلها وتسجيل المقالات التي تدور على الادب في كل عصر من العصور لوفرنا على انفسنا وعلى الباحثين في هذا المؤتمر كثيرا من العناء ولوصلنا الى نتائج محمودة ·

فمن من الباحثين مثلا لديه مجموعة تامة من مجلة الهلال او المقتطف او الرسالة او الثقافة او المكشوف او الاديب او حتى المجلات الحديثة التي ظهرت في السنوات العشرين الاخيرة ؟ ماذا اقول ؟ اي مكتبة عامة او جامعية تحتوي كل هذه المجموعات تامة كاملة ؟ ثم اتعلمون عدد المجلات التي صدرت في مدى السنين الخمسين الاخيرة ؟ لقد عددت منها خمسا وتسعين منها ثلاثون على الاقل شهيرة ومنها اثنتان باسم الرسالة واثنتان باسم المجلة واثنتان او ثلاث باسم الثقافة ولم اذكر الصحف ! واي باحث يستطيع وحده ان يمر عليها كلها لتحقيق غرضه واين الفهارس المنظمة التي نرى مثلها في المكتبات للاداب الاخرى مما ينفعنا في هذا السبيل ·

فلو فرضنا ان معدل حياة المجلة الواحدة منها كان عشر سنوات لكان على الواحد منا ان يتصفح الف مجلد بحثا عما يريد بينها مجلدات لمجلات ادبية اسبوعية · وقد تصفحت بالفعل نحو ٤٠٠ عدد من مجلة المكشوف البيروتية وستة

وتسعين من مجلة الامالـي و ٩٢ مـن مجلـة العـروة الوثقى و ٤٨ من الابحاث و ٦٠ من مجلة الآداب ومثلها من الاديب ووفر علي فهرس مجلة المشرق مراجعة مئات الاعداد منها واكتفيت بما جاء في كتاب يوسف داغر وخلدون وهابـي وغيرهما مـن المجلات • واريد وانا انوه بفضل اصحـاب هـذه الدراسات الفهرسية ان انبه الى انه لا يـزال ينقصها كثـير مـن الدقة والتحقيق وقد رأيت في بعضها اخطاء فادحة اذكر على سبيل التمثيل فقط ان بعضها خلط بين بطـرس البستانـي الاديب البيروتي المعاصر وبطرس البستانـي صاحـب محيط المحيط ودائرة المعارف فنسب للثاني كتاب تاريخ الادبـاء العـرب في ثلاثة اجزاء وهو من تأليف الاول •

واستعنت بطلابي لمراجعة ما لا يقل عـن ثمانـين مجلدا من الثقافة والرسالة المصريتين ومجلة المجمع العربي بدمشق وما تبقى من مجلتي الاديب والآداب البيروتيتين وكلنا يعلم ان اكثر هذه المجلات خالية من الفهارس العامـة وليس في بعضها احيانا جداول للمحتويات •

ومن هنا فانني اكرر ما قلته في اول هذا العرض معتذرا عن نفسي بصفتي عضوا في هيئة الدراسات وعن زملائي فيها وبصفتي احد الباحثين في هذا المؤتمر وعـن زملائي الباحثين ان هذه الدراسة التي بين ايديكم وهـذه الملاحـق والجداول ـ سموها ما تشاؤون ـ طوالا كانت او قصارا ـ لا سيما تلك التي تدور على المقالات ـ ليست كل ما يمكن ان يوصل اليه وحسبها ان تكون اساسا او حافزا لدراسة اتم واوسع •

عُمَر ابن أبي رَبيعَة
عَصرُهُ . حَيَاتُهُ وَشِعرُهُ

مكتبة المقتطف نوفمبر ١٩٣٥

حسن كامل الصيرفي

اذا ذكر الشعر الغزلي في الادب العربي برز اسم عمر بن ابي ربيعة من خلال القرون البعيدة التي مرت على وفاته في مقدمة شعراء العربية قاطبة ، فهو حامل لواء هذا النوع من الشعر ، وهو مؤسس المدرسة الواقعية في الادب العربي وان سبقه امرؤ القيس والنابغة الذبياني بقليل من الشعر كان بمثابة الاساس الذي اقام عليه عمر دعائم مدرسته . ولقد كان عصر هذا الشاعر من العصور الحافلة بالحوادث الهامة في تاريخ الامة العربية . كان عصر انقلاب وثورات وتغيير في نظام الحكم الشوري وتحوله الى ملكي متوارث ، وكان لهذه التغييرات اثرها في وطن الشاعر وفعلها في شاعريته .

وقد عالج الاستاذ جبرايل سليمان جبور احد اساتذة الدائرة العربية في جامعة بيروت الاميركية هذه الشخصية بدراسة تحليلية تقع في ثلاثة اجزاء تبحث في عصره ، وحياته ، وشعره ، واصدر منها الجزء الاول في عصر عمر بن ابي ربيعة

في اسلوب بديع ينم على بصيرة نقادة ، ونفاذة ، وذهن منظم متمكن من موضوعه ، دارس له ملم باطرافه ٠

عرض المؤلف في هذا الجزء حالة العصر الذي عاش فيه هذا الشاعر من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية والادبية ، وأبان عن مظاهر كل حياة من هذه بتوسع واحاطة ، واظهر ما لكل منها من الاثر في الجو الذي عاش فيه عمر ٠

واعطانا المؤلف في الحياة الاقتصادية صورة من اثر المال الذي اغدقه بنو امية على اشراف الحجاز ليصدوا الشباب منهم عن احداث الفتن ، وليلهوهم به عن التطلع الى المناصب والاعمال ، وليمدوا لهم سبل اللهو والهوى ، فكان ان تغيرت الحياة الاجتماعية تغييرا دفع بالمرأة العربية الى حياة جديدة اذ اخذت النساء تلبس القمص الاسكندرانية الرقيقة والثياب القوهية المعصفرة تكاد تشف عن اجسادهن ــ كما يروي الاصبهاني وابن عبد ربه ــ وجعل لمجالسهن روحا غربية يظهر اثرها في شعر عمر كقوله يصف حديثا بين صاحبته ورفيقة لها :

واشفي البرد عنك له　　　كي تشوقيه اذا نظرا

وقد توسع المؤلف في باب الحياة الاجتماعية فاظهر كل التطورات التي طرأت على الامة العربية ونقلتها الى دور جديد ٠

ثم انتقل الى الحديث عن الحياة الدينية والعلمية فابان ان التطور الاجتماعي بلهوه وانسه وعبثه وترفه لم يكن يمنع

اهل الحجاز عن الالتفات الى الناحية الجدية من حياتهم والنظر في الانقلاب الديني العظيم الذي نهض بجزيرتهم تلك النهضة القوية برسالة النبي (صلعم) فقاموا بتدوين القرآن والحديث والبحث فيما كان يقضي به رسول الله في بعض الامور ، وما يمارسه في بعض الفروض • وكان لهذه الحركة الدينية اثرها الكبير في عادات القوم واخلاقهم فألانت من طباعهم ، وظهر هذا الاثر في ادبهم فتأثر بكثير من تعابير القرآن ومعانيه وتراكيبه ، وكان اثر هذه كلها ظاهرا في شعر عمر ، في حين لم يكن فيه اثر للحياة العلمية البحتة كالطب والفلسفة والمنطق وما شابه ذلك ، اذ كانت هذه الحركة بعيدة عن الحجاز •

واما عن الحياة الادبية في ذلك العصر فقد اوضح المؤلف الظواهر الاربع التي تبدو للباحث بعد التطورات الجديدة التي طرأت على هذه الامة • وهذه الظواهر كانت هي الصبغة الغالبة على لون تلك الحياة • فالظاهرة الاولى هي شيوع الشعر عن الفكر وقوته على البقاء اكثر منه • والظاهرة الثانية هي رواج الادب وخاصة الشعر وشدة الصلة بينه وبين عامة الناس الى درجة لم يبلغ اليها في عصر غير هذا العصر ، فلقد كان بعض الخلفاء والامراء والولاة رواة للشعر ، محبين لاهله ، نقادا له ، حكاما ما بين قائليه • وكانت الظاهرة الثالثة الخصومة الادبية التي قويت في هذا العصر فأنتجت ادبا خاصا حتى طغت هذه الخصومة فكاد يقضي اصحابها على غيرهم من الشعراء • وذكر المؤلف انواع هذه الخصومات واثر الشعراء في الفتن •

اما الظاهرة الاخيرة فكانت في اقليمية الادب ، اذ كان يختلف ادب قطر عن قطر · وقد ضرب المؤلف الامثلة على ذلك من ادب كل قطر حتى انتقل الى ادب الحجاز حيث كان يختلف هو الآخر باختلاف المدن ايضا ، فكان في الطائف حيث الطبقة الارستقراطية المرحة العابثة المنزوية عن اعين العمال والرقباء غير ما كان في المدينة مسرح المغنين الجواري حيث فشا المجون · وكان في مكة ـ مقام عمر ـ غيره في هاتين المدينتين ، اذ كانت حياة الدعابة والعبث واللهو في مكة مقرونة بشيء من التحفظ والحيطة فلم يقو العبث فيها ولم ينتشر المجون ، وكان شعرهم بالرغم من اباحيته يبدو وعليه مسحة من العفة ، وهناك تصدر الزعامة عمر بن ابي ربيعة · وكما كانت هذه هي الوان الشعر في هذه المدن الثلاث كان في بادية الحجاز ذا لون آخر حيث مال الكثير من شعرائه الى التقوى والعفة والطهر وعرفوا بالحب العذري كما يبدو في شعر جميل وان تلون بعض شعرهم بالوان الاخرين للاشتراك معهم فيمواسم لهوهم من ناحية ، ولشيء من اللهو يسر لهم في موطنهم فبدت صورته في اشعارهم ·

هذه كلمة سريعة عن هذا الكتاب تدل على الجهد الذي بذله المؤلف والنجاح الذي اصابه · وكان بودنا ان يتنبه المؤلف الى الخطأ الذي وقع في عنواني الكتاب ـ الرئيسي والفرعي ـ حيث وضع الخطاط الفا (لابن) وهي بين اسمين وحرك الكلمة نفسها في مكان آخر بالضم وهي في موضع الجر في جملة (عمر بن ربيعة) حتى لا تصدم مثل هذه الاخطاء نظر القارىء في غلاف الكتاب ·

في همزة ابن

سيدي مدير المقتطف الاغر

سلام واحترام وبعد فقد نشرتم في عدد نوفمبر من مقتطفكم الاغر نقدا لكتابي عمر ابن ابي ربيعة بقلم الاستاذ حسن كامل الصيرفي وارجو ان تسمحوا لي في ان اغتنم هذه الفرصة لأشكر للاستاذ الكريم ثناءه علي وحسن تقديره لعملي وتحليله الرائع لكتابي غير اني لا اوافق حضرة الاستاذ الكريم في مسألة كتابة همزة ابن فقد ذكر ان القاعدة في حذفها هي ان تقع لفظة ابن بين اسمين ولهذا يرى وجوب حذفها في عنوان كتابي الرئيسي والفرعي بحيث يكتبان هكذا :

« عمر بن ابي ربيعة » و « عصر بن ابي ربيعة » والمعروف في امر رسم همزة ابن غير هذا اذ ليست الاسمية قبل ابن وبعدها بكافية لاسقاط همزتها حتى ولا العلمية الا على شروط خاصة وقد امتنعت هذه الشروط في كلا العنوانين وكنت اود ذكرها لولا ان القدماء قد كفوني مؤونة هذا بذكرهم المواضع

التي تثبت فيها همزة ابـن بقصيـدة اوردها الشيخ ناصيف اليازجي في « مجمع البحرين » هذا نصها :

قد أثبتوا ألف ابن في مواضع من كلامهم كابنـة خذها بتصوير
اذا أضيف لاضمار رضي ابنك او لجده مثـل عمار ابـن منصور
او ذي مجاز كمقداد ابن الاسود اذ ابوه بالحق عمرو غير منكـور
او امه نحو عيسى ابن البتول سما او كان في خبر يحيى ابن مشهور
او كـان مستفهمـا عنـه كقولـك هـل
زيد ابن عمرو ام ابن القاسم الصوري
او كان تثنية كالمرتضى وأبو خديجة ابنا علـي مشرق النور
او عكس ذاك بأن قدمت تثنية كالخالدان ابن يسر وابن ميسور
او جاء الابـن بغير اسم تقدمه نحو ابن موسى وزيد وابن مذكور
او كان اول سطر او دعـا سبب لقطع همزتـه في نظم منثـور
كجاءنا خالـد ابـن الوليد وفي جمع على ابنين في بعض المناكير
زيد وعمـرو ويحيى ابنـو ابـي رجب
جـاءوا وقـد حفظـوا هـذا بتذكـير
او جاء لفظ ابيه بعـده مثـلا كجعفر ابن ابيه صاحب الصور
او أخر اسم عن ابن نحو قولك قد جاء ابن زيد علي خـير مشكور
او حـال بينهمـا وزن كجـاء لنـا
ردبي كظربي ابـن موسى صاحب الطور
او كان نصب باعني فيه مضمرة كمثل اكرمني زيد ابن مسرور
او بعد اما لشك جاءني حسـن اما ابن سعد وامـا ابن منظور
او حـال بينهمـا وصـف كـاكـرمنـا
يحيى الكريم ابـن ميمـون بـن مجبور

او كـان من بعد جمع كالعبادة ابن (م)
المرتضـى وابـن عمـرو وابـن معمور
او كـان الابـن مضافـا لابـن أو لأخ
او عمـه كالمعلـى ابـن ابـن عصفـور
أو كـان الابـن منـادى نحـو حـدثنا
موسى ابن مشكور يعنـي يا ابن مشكور
أو كـان بينهمـا ضبط كقـال لنـا
سحبان بالضم ابن المرتضى الدوري (١)

ويجدر بي أن أشير الى ان هناك شرطين من هذه الشروط يمنعان حذف همزة ابن في العنوان الرئيسي ــ عمر ابن ابي ربيعة ــ اولهما في البيت الثاني وهو اضافة العلم الى جده وابن ابي ربيعة هو جد عمر لا والده والشرط الثاني وارد في البيت التاسع عشر وهو اضافة الابن الى كنية كزيد ابن اخي فـلان او كعلي ابن ابي طالب مع ان ابا طالب والده لا جده • امـا في العنوان الفرعي وهو عصر ابن ابي ربيعة فيكفي ان تكون كلمة عصر غير علم لتثبت همزة ابن وعليه فنكتب ديوان ابن الفارض وعقد ابن عبد ربه باثبات همزة ابن •

وكم كنت اود لو يصطلح علماء اللغة على رسم همزة ابن بالالف أني وقعت هذه اللفظة ولا بـد لي في الختام مـن شكر حضرة الاستاذ الكريم لتنبيهه اياي الى الخطأ الذي ارتكبه الخطاط

(١) راجع مجمع البحرين للشيخ ناصيف اليازجي طبعة المطبعة الاميركانية ببيروت ١٩١٣ صفحة ٥٣ ــ ٥٤ على هامش المقامة البغدادية .

في تحريك نون ابن ـ بالعنوان الفرعي ـ بالضم حيث كان يجب ان تحرك بالكسر ٠

تعليق على الرد للأستاذ الصيرفي

اشكر للاستاذ جبور تنبيهه اياي الى المواضع التي يجوز فيها اثبات الالف في كلمة (ابن) على اني قد لاحظت ان الاستاذ المؤلف قد اسقط ألفها في كل موضع ذكر فيه اسم الشاعر عمر ابن ابي ربيعة في متن الكتاب ولكنها اثبتت في العنوان ٠ واريد ان اذكر للاستاذ ايضا اني لم انوه في كلمتي عن هذه الالف في جملة (عمر ابن ابي ربيعة) لان عمر ليست علما ، وانما اردت الاشارة هناك الى رفع (ابن) وهي في موضع الجر ٠

بين العربيّة الفصحى والعاميّة اللبنانيّة
ردّ على دعوة سعيد عقل

« اوردها سعد وسعد مشتمل
ما هكذا يا سعد تورد الابل »

كان ذلك منذ عشر سنين حين جاءني احد الادباء وطلب مني حديثا لمجلة يريد اصدارها وقال : انها اسئلة ألقيها عليك واود الاجابة عنها . قلت : تفضل . ومن الغريب ان السؤال الاول كان : « هل في رأيكم ان دعوة سعيد عقل الى احلال اللغة العامية اللبنانية محل اللغة العربية الفصحى في وسعها لو أخذ بها أن تطبق عمليا في الفلسفة والعلوم فضلا عن الادب ؟

ولعله يرضي أخي الاستاذ سعيد أن يعلم اني اجبت السائل : « لست أرى ما يمنع العامية سواء أكان الداعي اليها سعيد عقل او غيره من ان تكون قادرة على التعبير عن المعاني الفلسفية او العلمية او عن الخواطر الادبية . ومرد الامر في رأيي هو العالم او المفكر او الكاتب نفسه فاذا كان متمكنا من

علمه او فنه استطاع ان يعبر عنه باللغة التي يجيدها أعجمية كانت أو عربية وعامية كانت او فصحى ٠

ولم أبـد عنـدها اي تحفظ لا مـن حيث ضآلة مفردات العامية اذا قيست بالفصحـى ولا مـن حيث تحـديد معنـى اللبنانية ٠ وقد لاحظت من وجه السائل أنه بدا عليه شيء من الاستغراب ، ثم أثيرت القضية من زاوية أخرى وهي : هل من داع الى العدول عن الفصحى الى العامية ؟ وقد اجبته بلا وقلت اقولها بصوت عال واكتبها بحرف بارز كبير ، واذا كان بعض الناس يزعمون ان الفصحى عاجزة عـن التعبير عـن الفكر او الفلسفة او العلم فالرد على ذلك الزعم هو ان العجز ليس في اللغة الفصحى بل في بعض اصحابها ٠ ولكي لا يتبادر الى ذهن السائل أني اغمز من قناة أخي سعيد لانه ذكر اسمه او اقصد عجز بعض الدعاة الى العامية تابعت الكـلام وقلت له : وانـا أضمن لك ان سعيد عقل نفسه لقادر ان يعبر باللغة العربيـة الفصحى حين يشاء عن ادق الخواطـر الادبية والفكـرية وان شخصا مثل شارل مالك وكان يمكن ان اسمي غير شارل مالك تخصص بالفلسفـة والاجتماع ليستطيـع ان يعبـر عـن ادق الفكر الفلسفية باللغة العربية الفصحى بل اني لم أر للأخير حتى الآن اثرا فكريا باللغة العامية اللبنانية التي يجيدها على كثرة مـا لـه مـن المقـالات والمحاضرات والكتب في الفلسفة والسياسة والاجتماع ٠ واستمر السائل يسأل وأنـا اجيب ، وقد نشر ذلك الحديث منذ عشر سنـوات تماما في مجلة تحمل اسم « بروق ورعود » ٠

وتلاحظون قبل كل شيء أني لم أنكر على العامية لمجرد انها عامية قدرتها على التعبير عمــا يشاء صاحبها اذا كــان في الوقت نفسه ملما بما يريد ان يعبر عنه من علم او فلسفة او أدب او فن ولو عن طريق لغة اخــرى تعلمها • ولكنــي لم أر داعيا الى العدول عن الفصحى الى العامية •

وكنت أود لو كنت اطلعت قبل هذه الامسية على ما قاله الاخ الزميل سعيد وما ذكره مــن اسباب محاولا تأييــد دعوته الى العدول الى العامية كي ارد عليها ولكني سأحاول ذلك في اثناء حديثي او في آخره اذا اقتضى الامر واكتفي هنا بعــرض مــا أراه مقنعا لرفض هذه الدعوة التي لا ارى مبررا لها •

ولعل أول شــيء يجب ان نلتفت اليــه في هــذا اللقاء هو الاتفاق على تحديد الغاية من اللغة • هل الغاية هي أن نفهم ما يقوله غيرنا لنا حين يتكلم أو يخطب وحسب ؟ أم انها تتعدى ذلك الى امور اخرى في حياتنا تتناول الفكر والروح والفــن والادب بل قد يصل مداها الى بعث حركــات قوميــة وسياسية وربط صلات بتــراث له أثر في حياتنا الفكــرية والاجتماعية والقومية •

والشيء الآخر الذي اود أن الفت النظر اليه هو انه ليس من الضروري أن تتفق كل اللغات في هذا الامر فــان بعض ما يصدق في بعض اللغات من الاثر الــذي لها في نفوس اصحابها عند بعض الامم يختلف عما نرى في بعضها الآخــر • ولزيادة الايضاح اقول : ان الشعوب السامية والعرب بخاصة هم اكثر

الشعوب تأثرا بوقع اللفظة وسحر الكلمة حتى قالوا : « ان من البيان لسحرا » · مــاذا اقول ؟ لقــد قدس الساميون الكلمــة وعبدوها واعتبرها بعضهم وحيا من الله لقنه المــلاك جبريل وجبريل بدوره نقله شفويا للنبي الرســول · فصار وقعها في مسامعهم وبخاصة مسامع العرب منهم يهز العواطف والنفوس · ولو اتسع المقام لذكرت لكم مواقف خطابية في التاريخ العربي كانت أوقع سلاح في دفــع الجماهير الى الغرض الذي يريــده الخطيب · وكذلك القول نفسه في الشعر وأثره في نفس العربي · يدخل الاخطل الشاعر النصراني وفي عنقه سلسلة ذهب فيهــا صليب ذهب ولحيته تنفض خمرا · يدخل على الخليفة المسلم عبد الملك ابن مروان وينشده شعره الذي مطلعه :

« خف القطين فراحوا منــك أو بكروا
وأزعجتهــم نــوى في صرفهــا غــير »

فيهتز عبد الملك في مجلسه طربا ويأمر غلمانه بغمر الاخطــل بالخلع والجوائز ويقول ماذا يا أخطل ؟ أتريــد أن ينــادى في الآفاق أن لكل قوم شاعرا وان شاعر بني أمية الاخطل ؟

ولا اغالي اذا قلت ان كثيرا من الغناء الذي كان يستهوي الجماهير العربية في عصورها المختلفة وفي حواضرها المختلفة في كل البلاد العربية وبخاصة اليوم في لبنان هو الغناء الــذي وضع بشعر بليغ في العربية الفصحى سواء أكان من شعر شوقي ام من شعر الاخطل الصغير أم غيرهما ·

وأم كلثوم نفسها التي ملأ صوتها دنيا العرب في عصرهــا

وشغل الناس كانت في انشادها تنال الاعجاب الاكبر حين تغني الشعر الفصيح ومثلها محمد عبد الوهاب وبخاصة حين يكون القول بليغا وله وقع عظيم · واني اذكر غناء أم كلثوم مثلا في أبيات من قصيدة شوقي في ذكرى المولد التي مطلعها :

سلوا قلبي غداة سلا وتابا لعل على الجمال لـه عتابا

واذكر انها حين تبلغ قوله :

وعلمنا بنـاء المجد حتـى أخذنا امرة الارض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنـي ولكن تؤخذ الدنيـا غلابـا

كيف كان ينفجر الجمهور تصفيقـا وهتافا يدوي الى عنـان السماء ·

وما لي أذهب بعيدا وبالقرب من هذا المنتدى نفسه مـن يهزني صوتها اكثر من صوت أم كلثوم ـ نجمة لبنان فيروز ـ ولكني على تقديري واعجابي بالصوت الملائكي الذي يتسامى في حنجرتها فاني أزعم أنها حين تنشد غناءها بشعر في اللغـة الفصحى كغنائها مثلا في شعر سعيد عقل نفسه :

من أين يا ذا الـذي استسمته اغصـان
مـن أين أنـت فـداك السرو والبـان

وتبلغ :

لـي صخـرة علقـت بالنجـم اسكنها
طارت بهـا الكتب قالت تلـك لبنـان

فان الهزة التي تعروني والطرب الذي يغمرني كما لست أشك انه يغمر كل من يسمعها ويحب لبنان قد ساهم فيهما كما أحس

أنا نفسي سعيد عقل بشعره الرائــع في العربيــة الفصحى • ولا أظنه لو استعار لهذه المعاني نفسها عامية ما حتى من السماء كان يمكن أن تضاهي وقع هذه الابيات مقرونة الى صوت فيروز: اسمعوا قوله : هنا على شاطيء أو فوق عند ربى وكيف تقولها يا أخي سعيد : « هون عالشاطي   أو فوق عالتلال »

ولا يظنن أحد أن سعيدا لا يجيد الشعر الا اذا تغنى بأمجاد لبنان فان له في النشيد الذي وضعه لجمعية العروة الوثقى في تمجيد العرب ما لا يبلغه هو نفسه لو شاء أن يضع مثله بالعامية اللبنانية أيا كانت زحلية أو شويرية أو كسروانية أو طرابلسية ولا أزيد :

للنسور ، ولنا الملعب
والجناحان الخضيبان بنور ، العلى والعرب

ولنا القول الابي   والسماح اليعربي والسلاح
ولنا هز الرماح في الغضوب المشمس
ولنا زرع الدنا   قببا زرق السنا
ولنا صهلة الخيل من الهند الى الاندلس

لا يني الدهر   «من» كتبناه سطورا
يقرأ النور   حيث حط الحافر المهر

والغد •• ركبنا الموسوق عزما ومنى
طاويا عن جانبيه الزمنا

خذه من انملنا

أمة تبني وملكا يخلد

زعمت سيدة احترمها وهي من دعاة العدول الى العامية أن اللغة المحكية توفر نصف الوقت عادة على مستخدميها • وقالت لنأخذ جملة عادية ١٢ مترا = ٤ مقاطع في اللغة المحكية وتمثل تقريبا ثلث ما تمثله الكلمات نفسها بالفصحى وهذا يعني ان كتابا باللغة المحكية من مئة صفحة يكون من مئتي صفحة لـو كتب بالفصحى • ثم قالت لنحسب كم نوفر على أنفسنا مـن الوقت ومن المصروف المادي والعناء لو اعتمدنا لغة حية (تقصد عامية) •

وأنا أتحدى السيدة نفسها أن تكتب لي هذا النشيد بلغة محكية بأقل من هذه الكلمات هذا عدا عن ان استشهادها بعبارة من كلمتين وفيها أعداد لا يصح في بحث علمي للمقارنة زد على هذا ان مقاطع العبارة في الفصحى لا تبلغ ثلاثة اضعاف المحكية كما زعمت • ولكني حاولت التوسع بهذه النظرية فاختـرت سورة من القرآن الكريم وهي سورة الفيل مترجمة الى الفارسية والانجليزية والفرنسية وعددت كلماتها مع البسملة فكانت في الفارسية ٤٨ وفي الافرنسية ٦١ وفي الانجليزية ٦٧ بينما هـي في العربية ٢٧ (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل • ألـم يجعل كيدهم في تضليل • وأرسل عليهم طيرا أبابيل • ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول) وعدد المقاطـع في العربية ٦٦ وفي الفارسية ٧٦ والفرنسية ٨٥ والانكليزية ٧٤ •

وأخذت عبارة واحدة من سورة أخرى هي يوم تبلى السرائر فاذا ترجمتها الانجليزية تبلغ عشر كلمات وهي : On the day when all secrets shall be searched out.

واذا ترجمتها الافرنسية تبلغ ٧ كلمات وهي :

Le jour ou les secrets seront dévoilés.

وفي الفارسية مثلها ٧ كلمات : روز يكه اسرار باطني شخص آشكار شود ٠

وما لي أذهب بعيدا فلقد ساهمت في ترجمة تاريخ العرب من الانجليزية وطبع في العربية فكان مجموع سطوره نحو ٢٢ الف سطر بينما عدد سطوره في الانجليزية أكثر من ٣٢ ألفا ٠

وأعود الى أمر اللغة فأرى ان اللغة هي الاساس وهي لا تكون منعزلة في مدلولها بل نرى لها مشاركة فعلية في تفكيرنا وعواطفنا واحساساتنا ٠

نحن نستعين باللغة حين نفكر ليفهم بعضنا بعضا ولا نستطيع ان نعرض الاشياء على انفسنا الا بقالب هذه الالفاظ التي تعلمناها فننتقي منها ما يروقنا للتأثير على السامع أو القارىء وللحصول على الرضى في بلوغ مأربنا الفكري أو الادبي أو القومي أو الاجتماعي ٠ فاللغة اذا ليست أداة للتفاهم والتعاون والتعامل الاجتماعي وحسب وانما هي ايضا أداة للتفكير والحس والشعور ٠ وهي أداة للتعبير عن ذلك بأسلوب ساحر فني ٠ بل هي ايضا أداة لبعث الحركات والفتن والثورات ولبناء القوميات وتهديمها وتحرير الشعوب واستعبادها وللبحوث العلمية وانمائها ٠ ولست أرى كيف

تستطيع العامية اللبنانية أن تجاري الفصحى في أي من هذه المواقف كلها .

لقد سارت العامية بوجه عام في كل الاقطار العربية مع الفصحى وعاصرتها أجيالا طويلة اقتصر شأنها فيها على الحديث في الحياة العادية وبعض الفنون الشعبية ولم تستطع أن تتغلب عليها أو تحل محلها حتى في الاقطار التي غلبت فيها العناصر الاعجمية — وحتى في الاندلس حين أخذت العامية تظهر بعض قرونها في الشعر الموشح فان هذه القرون ما لبثت أن تحطمت أمام الموشح الفصيح الذي هو في البليغ منه تطور من الشعر العربي الفصيح .

واذا اعتبرنا عدد المفردات في الفصحى وفي العامية أدركنا غنى الاولى وتفوقها بما لا يقاس وكذلك قل في التركيب والجمل وفي أساليب البلاغة وفي الاستعارات والمجازات والتشابيه وما اليها من ضروب البيان .

أنا لا أزعم ان العربية الفصحى بلغت الكمال ولهذا فيجب أن لا تتغير ولكنني اذهب الى انها جابهت مثل هذه الحالة التي تجابهها في هذا العصر ازاء الحضارة الجديدة حين احتكت الأمة العربية بحضارات الامم التي اتصلت بها قبل الاسلام وبعده مغلوبة وغالبة من اراميين واحباش وفرس وروم واستطاعت أن تكيف نفسها ، بعد ان كان أصلها لغة قوم بداة ، وتتطور بحيث لم تعجز عن التعبير عن الفكر الفلسفي أو العلمي بل ان اكثر العلماء الاعاجم انفسهم بعد الاسلام لم يعبروا عن الفكر

والفلسفة الا بها فأغنوها وأغنتهم وذلك بفضل تمكنهم من علوم أقوامهم وفلسفتهم وبفضل مرونة اللغة العربية التي اقتبسوها من أهلها وبفضل أبنيتها المتينة واشتقاقها واتساق أقيستها وحسن تركيبها · فلا مفرداتها قاصرة ، ولا تراكيبها عاجزة عن اداء أجل المعاني وأعقدها اذا أردنا ذلك ·

وهذه معاجمها تحوي من حيث المفردات العلمية العربية والمعربة ما يوازي ما في معاجم أي لغة راقية أخرى ـ وانها تستطيع أن تقتبس ما تشاء من المفردات بشكلها أو بشيء قليل من التحوير كما فعلت في قديمها فقد استعارت من شقيقاتها الساميات وغيرهن كثيرا من المفردات التي احتاجت اليها عربتها وتبنتها وغنيت بها ·

فمن الحبشية استعارت ألفاظا دينية ودنيوية منها حواريون ومنافقون ، ونافق وفطر ومنبر ومحراب ومصحف وبرهان ومشكاة وسكة وخوخة وبغل وتاريخ ·

ومن الفارسية قبل الاسلام وفي أوله اصطلاحات في الادارة مثل ديوان والرزق والفرسخ والتاج والمرزبان والدهقان وفي الدين كلمة دين نفسها وجناح ومجوس ونيروز وفردوس وفي غير ذلك كلمة فيل وجاموس ومسك وديباج واستبرق وصنج وابريم وطيلسان وقمط وسراج وخندق هذا عدا المئات التي عربت بعد الاسلام ·

ومن الارامية وبواسطتها ولا سيما قبل الاسلام حين كانت اللغة الارامية على اختلاف لهجاتها سائدة في فلسطين وسوريا

وبين النهرين وبعض العراق أخذت أسماء كثير من النباتات التي لم تعرف في الجزيرة وكثير من غير النبات مثل رمان وزيت وخمر وكبريت ومرجان وبلور وسم وباب وقفل والزجاج والكيس والسكين والسيف والخاتم وفي الادارة : السلطان والامة والعالم والمدينة والسوق والقسط والسبيل والساعة وكتب وكتاب وقرأ والنقطة والصورة والتفسير والتلميذ وفي أمور الدين رحمان وقيوم وسكينة وفرقان وملاك وصلى وصام وتاب وزكى وكفر وعيد وصلب وصليب وزنديق ودجال . وهناك ألفاظ اكدية دخلت في الارامية واستعارتها العربية منها ومثلها ألفاظ شوميرية وهناك كلمات يونانية أو لاتينية وصلت الى العربية عن طريق اللغة الحبشية أو اللغة الفارسية مثل انجيل وهي في الحبشية انجيل والقلم وهو في الحبشية قلم وفي اليونانية Kalamos (كلمس) . أما في العصور العباسية وقبلها في صدر الاسلام فقد دخلت عشرات المفردات ومن أقدمها ابليس والجنس والزوج والقرطاس والازميل والفندق واللص وبعضها دينية دخلت في اليونانية ثم الارامية ثم العربية ومنها الصراط والميل والقصر والقنطرة والقنطار والدينار ــ فهضمت هذه الالفاظ وتمثلتها وأصبحت جزءا منها ولا يشعر أكثر أبناء الامة العربية اليوم انها ألفاظ دخيلة . هذا قليل من كثير مما أخذته عن أستاذي المستشرق الالماني برجشتراسر عن رقي العربية وتفوقها على شقيقاتها وقدرتها على التطور والنمو والاختراع .

فاللغة العربية قابلة للتطور والاقتباس والتعريب ولكن

هذا كله يجب أن لا يقف أمام شيء لم نعرض له وهو اللغات الاجنبية وموقفنا منها وهنا أقول : ان التطور يجب أن يتم على أيدي أبناء اللغة المتخصصين في فروعهم المختلفة ولا يمكن لأي متخصص أن يصل الى درجة العالمية الصحيحة ما لم يكن قد ألم بلغة علمية على الاقل غير لغته • ويستمر وقت طويل نظل فيه عالة في الحياة العلمية والتقنية على غيرنا من الامم المتقدمة • فلا بد اذا من اتقان لغة من لغاتهم • هذا ما يفعله طلبة الجامعات في الدول الصغيرة مثل الدنمرك وأسوج ونروج وسويسرا وغيرها بل هذا ما يفعله اكثر المتخصصين من طلبة الجامعات في البلاد الكبرى كفرنسا والمانيا وانكلترا وحتى روسيا واميركا • وهذا ما سيساعد اللغة العربية الفصحى في مستقبلها أمام تحديات العلم الحديث وليس العدول الى العامية التي تميل بالأمة الى الانحطاط •

وأرى من ناحية ثانية في الوقت نفسه ان الصعوبة التي يلقاها بعضهم في التعبير عما يدور في خلدهم من فكر أو خاطرة أو في الافصاح عن شرح لقضية علمية أو لأمر تقني مردها الى ضآلة ما قرأوا أو درسوا في اللغة العربية • واني أزعم انه متى أصبح العرب أنفسهم على مستوى علمي يقرب من مستوى الأمم المتقدمة علميا وتقنيا ، وأصبحت جامعاتهم ومدارسهم في مستوى الجامعات والمدارس العلمية والتقنية الراقية ـ ومتى درست العلوم الاساسية وغيرها في المدارس الثانوية باللغة العربية ، ومتى أصبح في البيت العربي مكتبة ولو صغيرة للاطفال ولغير الاطفال ينشأ الاولاد على القراءة في كتبها العربية مما يوافق أمزجتهم وعقولهم ، تنهض اللغة بدورها

معهم وتتطور وتصبح لغة حياتهم وعلمهم وتفكيرهم فيعبرون بها حينما يتكلمون أو يكتبون عما في نفوسهم وعقولهم ويصوغون بها ما يعرفون أو يخترعون ، ويكون اذا كتب باحث علمي في موضوع ما بهذه اللغة يعرف ان وراءه في أمته قراء متعلمين كثيرين • وعندئذ يشعر مثل هذا الباحث العالم بالرضى عن نفسه وعمله وتغنى اللغة بدورها وتعزز وتشعر الأمة بالكرامة والفخر بأن أبناءها يساهمون مساهمة أصيلة في بناء الحضارة • •

ولا أنسى في هذه المناسبة أن أؤكد على قيمة تراثنا الادبي والفكري والتاريخي وان أشدد على حرصنا في حفظ الصلة به التي ستنقطع اذا جنحنا الى العامية • فهناك ألوف الكتب التاريخية والعلمية والادبية ومئات الدواوين الشعرية المطبوعة ولا يزال ألوف من الكتب الخطية في الدنيا لم تنشر بعد ، ومنها ما لا تزال مضامينها مجهولة حتى اليوم • وكيف نقطع صلتنا بهذا التراث الغني الذي كان بعضه أساس النهضة الاوروبية التي نتمسك بأذيالها اليوم • بل لولا اللغة العربية لما عرف قسم من فلسفة اليونان وعلمهم ولا من علوم الرياضيات في فروع الحساب والجبر والمقابلة وغيرها بحيث لما ألفوا فيها نقلت من العربية الى اللاتينية وعلّمت في جامعات أوروبة • حتى الارقام التي أخذناها عن الهند نقلها عنا الغرب وسموها أرقاما عربية واحتفظوا بأكثر أشكالها • لقد كانت هذه الفصحى نفسها واسطة نقل تلك الحضارة بفروعها المختلفة • ولسنا كالاتراك الذين لم تكن لهم حضارة ولا تراث بحيث نعدل الى الحرف اللاتيني ونعود الى أمية أشد وأدهى •

واستعرضوا أهم اللغات الاجنبية التي تفرعت عن اللاتينية لتروا أثر العربية في كثير من مفرداتها لا سيما في الكلمات التي يبدو بها اللون الحضاري كالجبر والكحول والمناخ والعود والكيمياء وصفر وجلاب والرب وشراب وصداع والكحل والانبيق والقلي ورهج الغار وتوتيا والسكر والقهوة والنارنج والليمون وأمير البحر ودار الصناعة ومئات غيرها نقلوها الى لغاتهم فقالوا في الانكليزية :

Algebra, alcohol, almanach, lute, alchemy, cipher, julep, rob, syrup, soda, coal, alembic, alkali, realgar, tutty, sugar, coffe, orange, lemon, admiral and arsenal.

وقد مرت العربية الفصحى في عهود مختلفة انحطت فيها عما بلغته قبلا لانحطاط أهلها بحيث جنحت الى الزخرف والتنميق وأنواع الجناس والبديع والصناعة اللفظية كما نرى في لغة المقامات التي اعتبرت في عصرها أبلغ ما كتبوا ولكن حين بدا فجر النهضة أخذت الفصحى نفسها تتطور وتغيرت أنماط الكتابة عما ألفه القدماء وانطلق النثر العربي انطلاقة كبرى • والذي يقرأ كتب طه حسين مثلا يرى الفرق الشاسع بين أسلوبه وأسلوب الكتبة المحافظين القدماء • ومثل طه حسين عشرات الكتّاب الذين سلكوا سبلا قويمة حديثة في الاسلوب الكتابي الذي كان للبنان ورجاله في القرنين التاسع عشر والعشرين الفضل الاكبر في سنه للناشئة الجديدة وفي تعميمه في دنيا العرب كلها • واني أدعو الأخ الكريم الى أن يقرأ ما كتبه شارل مالك في كتابه « لبنان في ذاته » ليرى اسهام الطاقة اللبنانية في النهضة العربية الحديثة صحافة وطباعة وترجمة وتعليما وأدبا رائعا •

وفي الختام ان الامر في جوهره يرجع الى الأمة العربية وليس الى اللغة وان الذي يقرر مقدرة اللغة هو أهلها من العلماء والمفكرين • ولبنان على تقدمه ورقيه هو جزء صغير من العالم العربي والعدول عن اللغة التي تربط بين أجزاء هذا العالم المترابط شئنا أم أبينا الى عامية ضيقة هو حجر عثرة في سبيل تقدم لبنان نفسه وفي سبيل المحافظة على أثره في قيادة الفكر في العالم العربي •

ولبنان فوق ذلك هو كما قال بعضهم الرئة التي يتنفس بها العرب في المحنة التاريخية التي يمرون بها اليوم ولذلك وجب عليه المحافظة على دوره الثقافي التقليدي • ولا يتم ذلك الا بمحافظته على الفصحى التي عززها ورفع بناءها في العصور الأخيرة كلها • لقد كان زعماء النهضة الفكرية الصحيحة والحركة القومية العربية في الغالب من لبنان منذ أثارها اليازجي بقوله :

« تنبهوا واستفيقوا أيها العرب »

وستظل الزعامة الفكرية فيه ويظل هو الرائد الاكبر في تجديد اللغة وتطورها والنضال الحقيقي في سبيل الحفاظ عليها • ولست أكتمكم أيها المحفل الكريم ان مثل هذه الحركات في الدعوة الى العامية اللبنانية أو الحرف اللاتيني تسيء الى لبنان أكثر مما تنفعه لا سيما وانها لا تصل البلاد العربية الا مشوهة عن الغاية في نفوس أصحابها المسؤولين :

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا يا سعد تورد الابل •

فهـرس الاعـلام

واسماء الاماكن والقبائل وغيرها

تنبيه : اهملت ال التعريف ، واعتبرت المدة ألفا ، والحرف المشدد حرفين ، والهمزة على كرسي ياءً ، ووضعت للايضاح بعد بعض الاسماء (ق) اختصارا لكلمـة قبيلـة ، و (ك) اختصارا لكلمة موضع او مدينة ، واثبت ألف ابن قبل اسماء كل الاعلام في الابحاث التي كتبتها ، لاني ارى انـه يجـب ان ترسم الكلمة باعتبار انها مبدوء بها ، ولم احاول اثباتها فيما كان لغيري من الابحاث في هذا الكتاب ٠

ب

ش

ص

ط

ع

ن

ه

و

ي

فهرس المحتويات